ساعة الصفر

رواية

أحمد عودة

دار الوحدة
رابطة الكتاب الأردنيين

رواية

ساعاتُ الصّفر

أحمد عودة

رواية:

ساعاتُ الصّفر

الأعمال الكاملة (**10**)

أحمد عودة

الطّبعة الأولى:

رابطة الكتّاب الأردنيّين عمّان- الأردن

دار الوحدة للطباعة والنّشر بيروت - لبنان.

1983

الطّبعة الثانية:

دار الجيل العربي للنّشر والتّوزيع

2023

تحقيق: مظهر عاصف

(1)

قتلوه... قتلوا البراءة والصّدق... قتلوا الأصالةَ والفرح... قتلوا سرحان... سرحان صديقي. ثقبوا مظلّتي الواقية. قصّوا النّخلة السّامقة. عفّروا وجههَا بالتّراب وداسوا الرّطَب. أطفأوا خمسًا وثلاثينَ شمعةً وألقوا الوحلَ على كعكةِ العيد. مزّقوا مناديلَ الفرَح. أغرقوا المناديل بالدّم. صوّبوا خراطيمَ الغاز على الحدائقِ فاختنق الزّهر.

آه سرحان! قبرُك ما زال أخضر ومع ذا تركتُك وهربت. كنت أستطيعُ إلغاء السّفر ولكنّي هربت. هربتُ من نفسي ومنك. وها أنذا أكتشفُ أنّني إنّما أهرب منك إليك. بغداد لم تمتص حزني وتفاهتي. أرى قبرَك من هذا البُعد الشّاسع. أراه هناك في ظاهر الوِحدَات. ثلاث ليال بطولها وعرضها اقتحمَني جسدُك الفارع ووجهُك الأسمر وعيناك الخضراوان؛ تدخل إلى صدري مع الشّهيق وتبقى. ها أنتَ ذا هنا ما تزال كما كنتَ دائمًا تجلدُني وتمسح جراحي؛ ولا تقطع الأمل في أن أصيرَ كما تشتهي قلعةً

متقدّمة يحتمي بها العائدون عبرَ مخاضات النّهر إلى أرض الوطن.

طيلة رحلة الهروب طغى صوتُك على هدير الطّائرة الّتي أركبها للمرّة الثّانية على هديل عامرة. التقيتُها للمرّة الأولى فلم تعرفها أنتَ كما عرفت كلًّا من جليلة ونجاح ونفيسة الّتي صارت فيما بعد زوجتي... ينسربُ صوتُك مِن مسامات جلدي، يخزُّني وخزاتٍ موجعة لها راحة الخَدَر وبهجةُ الأحلام. «متروك! اصحُ يا متروك... اصحُ واركب قارب النّجاة وغادر هذه السّفينة الجانحة... متروك يا صديقي أنتَ تعيش في وهم وضلال». تجلدُني وتفرشُ لي ابتسامتك الوضيئة أدرجُ عليها في غيابك حافيَ القدمين. تحيطني بذراعيك «متروك يا صديقي! أرجو لك الهداية وصلاحَ الحال». ها أنذا أشرب صوتَك بعدما فارقه المذاق اللّاذع فيما أنتَ تفجّرُ أورامي بمنطقك السّليم.

لطالما انهلتُ عليكَ بالشّتائم والسّباب. لطالما وصفتك بالغَباء، بالتّضحية عبثًا في سبيلِ هرم بشريّ آيل للسّقوط. أبدًا لم تغضب لنفسك، لم تزجرني ولم تهل عليّ لعنةً أستحقّها... غضبُك للقضيّة المقدّسة، للوطن الأسير؛ عبرتَ إليهِ عبر المخاضات ورحلتَ مِن أجلهِ حين عزّ

المُقام. لم أعِ هذا من قبل كما يجب. سفري إلى حيث أنتَ في بيروت وكذا موتك الجليل من بعد على تلك الصّورة المقلوبة خلاف ما تشتهي فتحَ أقفال ذاكرتي، نثر لآلئ تركتَها في صدري ما يزيد عَن عشرةِ أعوام، بل عَن عشرين عامًا، هي رحلة الطّفولة الغضّة وريعان الشّباب. «متروك يا صديقي أنتَ تعيش في وهم باطل، فمتى تطلق التّردّد والرّكود؟ متى تغادر شواطئك الضّحلة الرّاكدة؟». لقد عرفتَني عن كثب. عرفتني أكثر ممّا عرفتُ نفسي. تعرف أنّني مدّعٍ ومكابر وعنيد، لذا لم تهزمني في نقاش قطّ. هزمتني بفعالك كما هزمني موتُك.

هزمتني حيًّا وميتًا، بل حيًّا وخالدا. لم تمت وجذورُك ما تزال ضاربةً في أعماق أرض عشقتَها، موغلةً في أغوار صدري تفتح براعم الأمل بالعودة والنّصر والتّحرير. ما كفرتُ بمعتقداتك قطّ ولكنّي مع تردّدي مكابر وعنيد وجبان... جبان من حيث إنّي أترك المواجهة إلى المراوغة ونعي ما تدفعُ مِن تضحيات. لم أحدثك من قبل عن جبني، عن ولعي بالمواربة والتّخفي بشعارات جوفاء حين تحاصرُني بمنطِقك، وتُضَيّقُ عليَّ الخناق.

لعلّك عرفتَ هذا، بل أنتَ عرفتَ بالتّأكيد... رغم صراحتك الموجعة أحيانًا لم تضعني في مواجهة حاسمة

مع نفسي؛ أراجعُ دفاترَها العتيقة وأدركُ ما حاق بي من خسارة وبوار. تُلقي بصوتك الهادئ الموزون وتمضي لممارسة الفعل. تمضي وتعود على أمل أن تجدَ بذورك قد أينَعت في بيدري الخَرب حيث تسرح الدّيدان فيه وتمرح؛ ويبكي النّمل على خرابه المُبكّر.

كلّ مرة تعبر فيها إلى الوطن تعود وقد ازددت طولًا ووسامةً وازددتُ أنا عنادًا وجبنًا ومكابرةً. أقرأ عليكَ نعيك وقصيدة شعر عن فتى أُحِبّهُ يدفعُه الجهل والغباء إلى أن يضع يده العارية في شدقِ الذّئب طائعًا. أنت ذاك الفتى والذّئب هنا وهناك يزرع أنيابه المسنونة في دربك. تضحك ساخرًا ممّن اغتصبوا الوطن وممّن يخبّئون المفتاحَ عن أبنائه كيلا يعبروا إليه. تسخر ممّن زرعوا الألغام في طريق العائدين. ممّن يتكلّفون الابتسام والعناق ويخفون الخناجر بانتظار لحظة مواتية يغرسونها مِن بُعد في الصّدور؛ ليخنقوا فيها صوتَ الحبّ ونداءَ العودة للأبد.

سخرتَ مِن هؤلاء ووجدتَ مَن يشاركك السّخرية «أبي». ووجدتُ من يسخر منك غيري «أبوك». رفيقا سلاح قديمان دقّت بينهما الهجرة الملعونة وأيّام الضّياع أسافينَ الخلاف. يتشاحنان كديكينِ شرسين. ليس انتقامًا بقدر

رغبة كلّ منهما في إثبات أنّه على صواب. أنا وأنت نسيرُ على هذا السّبيل وإذا ما احتدم الصّراع بيننا يكون صوتي هو الأعلى، لا أجد غيرَ الصّراخ وسيلةً أقطع به جريان منطقك السّليم.. ما صراخي إلّا لأنّك تبحرُ في دمي. لأنّك تفوقني في كلّ شيء.. لأنّك سبقتني إلى حدود الحلم. لأنّك واضح ودقيق، لا تعرف المواربة مثلي والتّخفّي بشعارات جوفاء.

أغضب وأرميك بالسّذاجة، بغباء المواجهة في غابة تزأر وحوشُها موغلةً في دم الأبرياء. أصفُك بقصر النّظر بينما «آل حمّوري» أصدقاؤنا القدامى يحصدون المال من أفواه الجياع والمشرّدين. لم تغضب لنفسك ولم ترمني بالسّذاجة فقد كان لديكَ الأمل في صلاحي، وما ابتسامتك الدّائمة إلّا السّرير الذي أنام عليه متوجّعًا حين يحاصرني الألمُ ممّا تراه في أعماقي الدّفينة من صلاح خلافًا لما يطفو على لساني من استمراء المراوغة والهرب. أنتَ وأبي. أنا وأبوك. معادلة دقيقة تفرض التّوازن المطلوب. كفّتا ميزان ظلّتا في علوٍّ وهبوط إلى أن رجحت إحداهما بموتك.

كسبتَ أنت وأبي. خسرتُ أنا وأبوك. بل أنا وحدي الخاسر. فتحَ أبوك التّابوت بيد ثابتة. لثمَ وجهَك وموضعَ

الرّصاصة الغادرة بين عينيك. استقام وابتسامته بعرض الأفق. زغردت أمّك ونعَت على الجبناء جبنهم. لعلّها كانت تقصدُني وأنا أضع الوسادة تحت رأسك. وسادة الغبار الّذي نفضتَهُ عن ثيابك بعد كلّ عبور، تجمعُه وتخبّئه عندي إلى ميعاده الموقوت. نفّذتُ مشيئتكَ ولكن لم يغادرني الصّغار رغم زهوي بأنّي كاتم سرّك الكبير ومَن وضعَ الوسادة تحت رأسك، رغم زهوي بأنَّ أبي الّذي تبعك إلى بيروت هو من أراحك في التّابوت.

هو أبي وأنت صديقي فكيف لا يختلط شعور الصّغار بالزّهو؟! تمدّدَت قامتُك على اتّساع الفضاء الرّحب الضّيّق وطغى صوتُك على هديرِ الطّائرة.. أطفأتُ بحزني الأملَ في عيني «عامرة» بصداقة أو حبٍّ يمتدُّ إلى آخر العمر. لعلّها ذهبت بظن أنّنى معتوه، وما رغبتها في لقائي، وما عنوان بيتها الّذي دفعته إليّ إلّا لرغبة منها في دراستي وإيجاد حلّ لأزمتي الرّاهنة مِن حزني عليك. حرمني موتُك مِن أنسها وأنتَ تعرف كم أنا خائب مع النّساء سيما الجميلات. لا أدخل بحرَهن المائج إلّا حين أجد مَن تأخذ بيدي تغريني بالسّباحة والعوم. عندها فقط أظهر براعتي في فنون الغطس وأملأ جيوبي باللّؤلؤ

والمحار. كنتُ أحدّثك لدى كلّ لقاء أو عبر رسالة مُطوّلة عن مغامراتي مع الطّبيبة الدّميمة العانس «جليلة».

أحدّثك لأظهر أنّي أعيش حياتي بينما أنت تطبقُ بيديك على عنق الشّباب طائعًا. تهزّ رأسك وتبتلعُ الكلمة الرّهيبة المناسبة «مسكين» فقالها موتُك عنك. قالها أبوك وهو يلثمُ موضع الرّصاصة الغادرة. قالتها أمّك مزغردةً ومِن ثمّ وهي تنعى على الجبناء جبنَهم. قالها أبي حين اختار طريقَه ورحلَ بعدما نحرَ كلّ الخيارات بالبقاء. نعيك الجاهز لم أقله، والقصيدةُ الّتي كتبتُها عن فتى ضال أحرقتها ولم أكتب غيرها مترنّما بموتك.

موتُك أكبر من النّعي، من كلّ القصائد. لقد ختمتُ على لساني بالشّمع. فتحتُ مزاريب قلبي في وجهِ دم خالٍ من الفساد والعفن وها أنذا أستقلّ معكَ عربة الطّفولة وقطارَ الشّباب. ها أنذا أراجع دفاتري العتيقة لأرى كم لحق بي من خسارة وبوار.

بغدادُ أيلول كبغداد حزيران وتمّوز مرجلٌ يغلي بالحرّ. رغم أنّ النّهار في أوّله ما يزال للحرّ والقيظ ألفُ ينبوعٍ يفجّرُ العرقَ ميازيبَ ويحكم على الهواء بالموت. ليس هواءً بحال. إنّها بقايا مجزرة رهيبة استلقى الهواء

بعدها جثّة بلا حراك. الحرّ وصداعٌ خلّفَه الأرق إثرَ ليلةٍ مفزعة أقنعاني بضرورة البقاء في الفندق وإلغاء وعدي لعامرة بأن أزورها في البيت مُستغلًّا عطلة نهاية الأسبوع. عليها منذُ الغد أن تنتظمَ في الدّوام المدرسيّ قبل أن تفتحَ المدارس أبوابها، وعليّ أن أنتظمَ في النّدوة الّتي أقامتها وزارة الإعلام. هذه الجهة المُضيفة التقطَتني مِن بين ركام الإهمال الّذي حاق بي زمنًا وسطَ كثيرٍ من الفرصِ اقتنَصَها مَن يستحقّ ومَن لا يستحقّ في عالم الصّحافة والأدب.

أسدلتُ السّتائر في وجه الشّمس المُرسلَةِ صهدًا حارقًا. استلقيتُ على السّرير ثانيةً أتمطّى وأفرش ذراعي على طولها فلا تصلان طرفيه العريضين. يتّسعُ لاثنين وأنا واحدٌ فردٌ مُثقلٌ بالخواطر وأكثرُها مُحزنة. لأوّل مرّة أُطَلِّقُ عادة مزمنة تجبرُني على تناول الإفطارِ قبل أن أغسلَ وجهي حتّى لو اضطررت إلى الاستيقاظ قبل الفجر بساعات. ليس بي حاجة إلى الطّعام. غيّرَ سرحان تلك العادة وأوهمَني بالشّبع. هذه نقطةٌ تحسب له عليّ. نقطة يضيفُها إلى نقاط كثيرة تحصدُ له الغَلَبَة والفوز.

استعذبتُ المكوثَ في السّرير عاريًا إلّا من ملابسي الدّاخليّة. المنامة ظلّت في الحقيبة، والحقيبةُ ظلّت في

عمّان. هكذا قيلَ لي بعد ساعة مِن التّحديق في الشّريط الأسودِ يتخاطفُ عنه المسافرون معي حقائبَهم. لم تركب الحقيبة معي ولم ينفع انتظار اثنين أنا صاحبُها وعامرة الّتي ارتبطت معي منذ بداية الرّحلة برباط دقيق لم أجد تفسيرًا له بعد. أبدت زوجتي دهشتها من حملي ملابسي كلّها وكذا فعلت جليلة وهي ترافقني بسيّارتها إلى المطار. قالت متخوّفة:

- كأنّك لن تعود!

لم أجد ما أقوله لها وشيء مِن الرّغبة في السّفر الدّائم يحاصرني. المهم ألّا التفتَ خلفي. المهم أن أظلَّ سائرًا إلى الأمام. تشبّثَت جليلة بذراعي. قالت بعدما أجبرتني على الالتفات نحوها:

- مَن يدري؟ ربّما تجدني بجانبك ذات يوم.

صوتها الدّافيء طافَ على قلبي الكسير ولكن حين هززتُ رأسي موافقًا لم يكن في ذهني على الإطلاق أن تلحق بي حقًّا لتواصلَ عبثًا ما بدأناه مسعورًا. اصطادتني عيناها البارزتان:

- أخالُك غير متحمّس للفكرة؟!

نفيتُ حدسها وقد قفزَت زوجتي إلى خاطري وهي تودّعني مستلقية قبل أن تغفو وتشخرَ؛ إذ ترى في سفري هذه المرّة كسفري إلى بيروت قبل عامين فرصة ذهبيّة تتيح لها التهام ما أحرّمُ دخولَه البيت من الأطعمة ذات الرّائحة الكريهة، كالثّوم والبصل. سررتُ لأن تطرأ لجليلة هذه الفكرة وتمنّيت لو أنّها رافقتني.

جلتُ بعيني في أنحاء الحُجرة بَدءًا من السّرير العريض وانتهاءً بجهاز التّكييف الّذي اكتشفتُه لتوّي. وثبتُ كالغريق ولما أدرته هدرَ جنونا مرسلًا موجاتٍ صغيرة من الهواء البارد على صدري العاري فانتحرَت الرّغبة في البقاء. أزحتُ السّتارة فأرسلت إليّ الشّمس طلقةَ تحذير مِن قرصها المُلتهب. عدت إلى السّرير ثانيةً أعوم بين موجات الهواء البارد المُنعش، انطلقت إلى الحمام. تركتُ جسدي هدفًا للماء المندفع خيوطًا دقيقة أجدّلُها على صدري وظهري ثوبًا موشًى بالحرير فيما وجه عامرة يمرّ رويدًا من أمامي بشحوبه المُحبّب يشربُ منّي الوعي.

تشارك يداها نسجَ خيوط الماء على جسدي. ضحكتُها الباذخة ترسلُ العصافير من حولي أسرابًا تغمرني بالحبور. رغم ولعي بالصّمت فتحتُ صدري أنثر ما فيه على سرحان من حزن، من تأثّر، من إحساسي بالتّفاهة

والهوان. سرّت عنّي كما يجب. استدرجَت ابتسامتي مِن أغواري السّحيقة حتّى إذا شارفَت الطّائرة على الهبوط انطلقَت ضحكتي من إسارها وأنا أرى حزني وانقباضي يصعدان الذّرى بجناحي نسرٍ فتيّ.

لم يعرِفْ عامرة. قتلوه قبلَ أن أمطرَه برسائل الزّهو عن فتحي الجديد في دنيا النّساء. لم يعرفها ولن يعرف بسمةَ الحظّ تسوقُ لي فتاة جميلة، أجالسها، أحاورها، أحدّق إليها وأنا المفتون بالدّميمات، الخائبُ مع كلّ ذات حظّ وافر من الجمال. لذا ضاعت منّي نجاح لابن عمّها، لذا جذبتني جليلة رغم دمامتها زهرةً ترشحُ بالرّحيق.

ساعات قليلة مضت على التقائي عامرة، وكأنّي أعرفها منذ أمد طويل، تفرش لي ابتسامتها وعينيها الواسعتين بساطًا أخضر، تقنعُني بأنّ سرحان لم يمت. بأنّه ماثل بيننا. يجلس معنا في الطّائرة ويخترق الفضاءَ كالسّهم. تحدّثت عنه كأنّها تعرفه. لم أسالها كيف فحديثها عن أخ لها استشهد في حزيران على طريق القدس تكفّل بالجواب. أحدِثُ مقارنةً مُحكمةً بين اثنين سطّرا بالدّم دربَ العائدين إلى الوطن. ثقب الحزنُ خيمتَه السّوداء ومرَق مِن النّافذة ومضى مهرولًا مع نفث الدّخان في مؤخّرة الطّائرة. قالت عامرة الكثير. أزاحت عن صدري

صخرةً هائلة جثمَت هناك لأكثر من ثلاثة أيّام. تلك الأيّام الحاسمة في رحلة عمر ظللتُ فيها سفينةً جانحة يركلُها الموج وتدحرُها الزّوابع. «تذكّر أنّك حيّ، والحيّ أمامه الكثير ممّا يفعله. أمّا الحزن فلا يعيدُ الموتى ولا يبعثُ مَن في القبور» كلامٌ جميل يذيبُ الحزن حقًّا ولكن عليّ أن أقتنع أوّلًا بأنّني حيّ؛ وبأنْ ليس مَن مات أو قُتِل أفضل منّي بمراحل.

كابرتُ طويلًا في حياته فجاء الموت يعلّمُني قولَ الحق إلى جانب حقَائق كثيرة ظللتُ أسدلُ عليها السّتار كيلا أرى ذاتي في عُريها الكامل. طحنتني الوظيفةُ والصّحافة والأدب فرأيت السّراب جداولَ ماءٍ تجري أشربُ منها وأرتوي أو أقنع ذاتي بالارتواء. أعيبُ على سرحان تفانيه في حبّ الوطن وأنعى عليه تضحياته في عالم محكوم بالأنانيّة والغرائز الرّاقصة على عزف الذّات المُتورّمة. أسوقُ له نماذجَ عدّة من الأصدقاء أو ممّن كانوا أصدقاء لكلينا ذات يوم قبل أن تجلو الدّنيا أسنانها لهم. ممّن أتقنوا الرّقص على أكثر مِن حَبل. ممّن مشوا في أكثر من دهليز ملتوٍ فوصلوا إلى ما يبتغون وأكثر من مرمى أحلامهم زمنَ الجوع والعُريّ والنّوم على الطّوى.

أقول له: «انظر إلى آل حمّوري. عزيز حمّوري وأخيه عادل وابن عمّهما شريف. انظر إلى صلاح وهدان الّذي صار مهندسًا. انظر إلى هؤلاء أينَ كانوا وكيفَ صاروا! انظر جيّدًا وبعدها ناقشْني في ضرورةِ التّضحية والفداء. ناقشْني بعدها في الوطن علّني أفهمُك وأفهمُ العالم الّذي يشبهُ حبّة العدس بلا وجهٍ أو ظهر».

سرحان لا ينظر. يرى أنّ هذه تفاهات لا تستحقّ منه نظرةً أو التفاتة. يغيظُني تعاليه عن السّفاسف. «سراب. كلّ ما صنعوه وما يصنعون سراب». يغيظني التّحديق إلى كلّ ما يمسخُ وجهَ الحياة ويُحبّب ليَ الموت. أهيم على وجهي في الأزقّة والشّوارع وأعود إلى البيت مهدودًا. حال أفتحُ الباب يجبهُني غطيطُ زوجتي فأقسم أنَّ الموتَ خيرٌ مِن حياة تافهة أعيشها ولا أحياها.. لحظةَ أن أضع رأسي على الوسادة ينزّ منه سؤال رهيب. سؤال مركّب يُشرّع في لحمي أنيابه «مع من أنا حقًّا؟ أينَ موقعي؟» لم أفلح في أن أكون مع سرحان قلبًا وقالبًا ولا أن أكون مِن آل حمّوري ولو بهذا الاسم الوهّاج وقد شلحوا له أسماءَ آبائهم وتسربلوا به كما يليق بالثّراء وسهراتِ ما بعد منتصف اللّيل.

عزيز قاسم صار عزيز حمّوري. شريف يوسف غدا شريف حمّوري حتّى صلاح علي وهدان صار يغضب إن لم يُنادَ بحمّوري. وحمّوري هذا وافدٌ قديمٌ على الرّملة حمل ثراءَه الفاحش معه إلى عمّان في أيّار فلِمَ لا ينتسبون إليه وقد كان آباؤهم يحرثونَ أرضَه هناك بالقيراط؟!

«مع مَن أنا حقًّا؟» هؤلاء يمزّقني خريرُ المال في جيوبهم ونسيانُهم الأصل والفصل، وسرحان يجبهُني بمرآة مكبّرة أرى من خلالها ذاتي عاريًا حتّى مِن ورقة التّوت. أرى في خلوتي مع نفسي أكثر ممّا يتوقّع أن أرى في حديثه المنطقيّ الموزون يضربُ فيّ أغواري السّحيقة يؤرّقُني في الصّحو والنّوم. أردّدُ معه «سراب.. سراب». أفتح صدري ليلًا للقنابل والرّصاص. أعانقُ البندقيّة وأمضي مع الثّائرين أتعمّدُ في النّهر. يأتي النّهار فتذبحُني المدينة المتبرّجة اللّاهية توزّع الضّحكاتِ والنّكاتِ والفرحَ؛ تمارسُ فعل الحياة فيما أنا أمشي على رأسي، فيما سرحان هناك قابعٌ في أحد الكهوف ينتظر هبوطَ اللّيل أو غبشةَ الصّباح التّالي ليعزفَ على الرّشاش لحنَه المفضّل «سأعيشُ رغمَ الدّاء والأعداء». أتخيّله وأبكي تضحياتِه في سبيل مَن لا يستحقّون.

إنّه هناكَ في فم الموت وآل حمّوري وهؤلاء هنا يسرحون ويمرحون. أنزف له خواطري حين يعود فيضحك ضحكته المبتسرة المشفقة «مساكين.. وأنت يا صديقي مسكينٌ متوهّمٌ أنّهم يعيشون حياتهم. إنّهم موتى وتلك المنازل الباذخة قبور. الحياة الحقّة هناك خلف النّهر. أقول لك جرّب. جرّب ولو لمرّة واحدة وبعدها ادعُ لي أو عليّ». يضعُني أمام المرآة ويذهب أو أتركه أنا دافعًا من أمامي المرآة فأرى ذاتي عاريًا حتّى من ورقة التّوت.

سرحان يا صديقي! لماذا تركتَني ورحلت؟ حياتُك الطّيفُ الشّمسيّ كنتُ أرى من خلالها الحياة زاهية الألوان رغم أكداس الظّلمة والفحم. أراك ماثلًا أمامي سواء في عمّان أو بيروت فأوهم نفسي بأنّك تسدّدُ فواتيرَ ديونِ الوطن السّليب عليّ. أراك موجودًا فيقنعُني وجودُك بأنّك في الخندقِ العميقِ تقاتلُ الأعداء عنّي وعنك. ذهبتَ قبل أن أحدّد موقفي حقًّا ولكنّك أخذتَ معك كلّ الخيارات. خيارٌ واحد يتلبّسني الآن. في صفّك أنا.. في خندقك أنا. كنتَ دائمًا خندقي. كنتَ مظلّتي الواقية فكيف لم أعِ هذه الحقيقة مِن قبل؟ تحدّثتُ عنك لعامرة بعدما صمتُ عن الكلام أيّاما ثلاثة. أنا القليلُ الكلام في العادة تحدثتُ الكثير. ركبتُ لسانَك الثّريّ وأبحرتُ في سفينتك الباذخة. فردتُ جناحي

منطقِكَ الموزونِ على عرض الأفق فغادَرتني عامرة متوهّمة أنّني أنت. لعلّ هذا وليس حزني عليك ما أوصل بيننا تلك الخيوط الدّقيقة فأعطتني عنوانَ بيتها ليلةَ أمس لأوافيها اليوم. سأهرع إليها ولن يمنعني الحرّ ولا حتّى السّعير.

انطلقتُ مِن الحمّام إلى الهاتف أطلبُ السّائق المرافق لي من بيته. تخيّلتُ ابتسامتَه الّتي لقيني بها وهو يفتحُ لي الباب ليلةَ أمس في المطار على وجهه الآن وهو يقول بحماس:

- حاضر... مسافة الطّريق.

لم أدرِ كم يبعد بيتُه عن الفندق ولكنّي سارعت إلى ارتداء ملابسي؛ فلهجتهُ الحارةُ تعودُ لجنديّ استُدعيَ إلى الميدان على عَجل. لم تمضِ عشرُ دقائق حتّى أزّ جرس الهاتف حاملًا صوتَه الغليظ المُحبب يُخبرني بأنّه ينتظر في الصّالة. ندمت لحظتها على تسرّعي باستدعائه حين لم أستطع التّملّص من سؤالٍ يطاردني مذ فتحتُ عينيّ «كيف سيستقبلُني أبوها وليس هناك مِن معرفة سابقة بيننا؟ كيف لعجوزٍ طاعن في السّن أن يستقبل رجلًا غريبًا

دعته ابنته ولم يمض على تعارفهما غيرُ ساعات قليلة؟». كأنّما شعرَ بتردّدي فقال بأريحيّة مُطلقة:

- على راحتك يا أستاذ. تدلّل.

زادت أريحيتُه مِن تردّدي. جعلتُ أذرعُ الحُجرة باضطراب ولمّا قرّرتُ أخيرًا النّزول إلى الصّالة فعلتُ هذا خلاصًا من حالة الشّتات ليس إلّا. ولكي أحسم الأمرَ دفعت له عنوانَ عامرة وهتفتُ به:

- امضِ سريعًا.

ولمّا تحرّكت السّيّارة سألتهُ رغبةً بإثارة الحديث:

- هل سنهتدي إلى البيت يا ترى؟

رمقني بطرفِ عينه وقرقر بضحكة واثقة:

- أليس هو البيت الّذي أوصلنا إليه الآنسة ليلة أمس مِن المطار؟

لم ينتظر منّي ردًّا إذ أكملَ بثقة:

- مرّة واحدة أمرُّ بالمكان فلا أخطئهُ ثانيةً.

وضربَ على صدره زهوًا:

ـ أعرف مخابئ النّمل في بغداد.

ـ أحقًّا!

تساءلتُ بدهشةٍ حقيقيّة أثارت عندَه مزيدًا مِن الزّهو. أعادَ لي العنوان مؤكّدًا ذلك، وشرَعَ يُحصي السّنين الّتي قضاها في مسقط رأسه؛ فأثارت هذه الحظوةُ لديّ مزيدًا مِن الشّجن لمسقطِ رأسي الّذي غادرتُه وأنا ابن عامين لم أره إلّا من خلال عيني أبي وذكرياته الّتي لا تنقطعُ عن الرّملة وبيتنا الّذي تتقدّمه شجرةُ الزّنزَلَخت، لعبتُ تحتَها مع شريف حموري ذات مرّة فرماني بحجرٍ أدمى إصبعي وأفقدَها استقامتها.

ابتهل السّائق فرصةَ توقّفه عند إشارة ضوئيّة ليحدّق إلى ملابسي طويلًا وليخبرَني بعدها بأنّه عمل الواجب؛ واتّصل بالمطار سائلًا عن حقيبتي، الأمرُ الّذي لم أفطن أنا له. أبدى أسفه لما حدث وغبطَ لعامرة أنّها حملَت حقيبة صغيرة أبقتها تحت إبطها فضمِنت بقاءها، وإن اضطرّت بعدها للانتظار معي لأكثر من ساعة تحدّق مثلي إلى الشّريط الأسود لا يتمخّض عن ضالّتِنا. أبدى إعجابه بالفتاة ولحظتُ على وجهه كلامًا كثيرًا يودّ قولَه دون أن يرى المجالَ مُناسبًا لطرح الأسئلة: كيفَ التقينا؟ وكيفَ

تعارفنا؟ ومتى حدّدنا اللّقاء التّالي؟ لو فعل حقًّا لمَا وجدتُ أجوبةً جاهزة إضافة إلى ما تسبّبه لي الأسئلةُ من ضِيق. أنا ذاتي لا أصدّق ما حدث. أكاد أحيانًا أن أُرجِعَه إلى حلم جميلٍ رأيته ليلًا لولا هذه الورقة المكتوبة بخطِّ يدها فيها عنوان البيت، دفَعَتها إليّ ليلة أمس قبل أن تغادرَ السّيّارة.

حقائق دامغة ومع ذا لا أصدّق أن تنشأَ بيني وبين فتاة جميلة علاقة ما بمثل هذه السّرعة. لم يحدث هذا مِن قبل. حتّى جليلة العانس الدّميمة صلبتني مِن رموشي قبل أن أعرف إلى شفتيها الطّريق. ربّما لأنّها عانس، ربّما لأنّها دميمة. أمّا «نجاح» ابنة الحاج رضا فلم تتعدَّ علاقتي بها علاقة الأستاذ بتلميذته، فالحبُّ المضطرم ظلّ مستورًا إلى أن خطفها ابنُ عمّها منّي. جمالُها أربكني وأنا ضعيفٌ في حضرة الجميلات. لم يشفع أنّ والدها صديق والدي أيّام الشّباب. لولا هذا ما سعَت إلى حُجرتي أشرحُ لها النّصوص ونتجادلُ رغبةً في الجدل. لولا هذا ما تجرّأتُ أن أنطق باسمها مُجرّدًا.

كيف انتظرَت معي عامرة في صالة المطار؟ كيف جلسَت بجانبي في الطّائرة؟ كيف انتظرَت الحقيبةَ الضّائعة؟ كلّها أشياء لا تحدثُ لمثلي إلّا في الحلم لولا هذه الحقائق الدّامغة. هل هو حزني البادي على سرحان أم خوفي الّذي

ظنّته مِن الشّاويش؟ أم هو العرفان بالجميل لإعطائها دَوري أمام حُجرة الجوازاتِ ما جعلها تهفو إليّ بلا مراوغة؛ وهي الجميلة ذات الجسد الرّياضي المتناسق الّذي التهمَهُ الشّاويش بعينيه، كما أتعبَ أعناقَ المسافرين تلفّتًا وانبهارًا.

أرسلَت مروحةُ السّقف غدائر من الشّعر الفاحم على وجهي. أدركتُ أنَّ خلفي امرأة. تركتُ لها بحكم العادة مكاني. ضجّ الشّكر في عينيها الواسعتين. غمرني إحساس طاغٍ بالفرح طالما تلمّستُ إليه الطّريق عبثًا في مواقف كهذه فكانت أبدًا مسدودةً إليه. في محطّة الباصات كما في كلّ موقفٍ يتطلّبُ الانتظامَ في الدّور أتخلّى عن مكاني طائعًا أو مُكرهًا فلا أنالُ غيرَ خيبة الأمل والقهر. أريد شيئًا والنّاس يريدونَ شيئًا آخر. أمّا هذه الفتاة فقد صهلَ في عينيها الشّكر قبل أن تذهبَ بحقيبتها الجلديّة تحت إبطها تطاردُها عينا الشّاويش وتلحّانِ على نقطةٍ لم أتجرّأ على النّظر إليها لعلمي أنّها تحتَ الخصر بقراريط.

تمطّت ابتسامتُه في فمٍ أكرثْ ونزَّ من بين لثّتيهِ المتورّمتينِ لعابُ الشّهوة. رماني بنظرةٍ مُراوغة أعجزني في البَدءِ فهمُها إلى أن قال بصوت متخثّرٍ ربّما بفعل الصّمت أو التّدخين:

- لستَ شقيقَها بالطّبع ولا حتّى بينكما طرف قرابة!

تساءلتُ وأنا أدسُّ بين أصابعه المرتشعةِ جوازَ السّفر:

- مَن تَقصد؟

دون أن يرفعَ رأسَه أشار بإبهامه إلى الفتاة الواقفة عند باب الدّخول المفضي إلى صالة الانتظار. كانت تُعدّلُ مِن وضعِ حقيبتها تحتَ إبطها في حركةٍ لا تبدو مقصودةً لذاتها. لم أرَ غير حركتِها هذه وإلّا كنزتَها الخضراء، ساهمت مع شعرِها الفاحم المنثور على وجهي بفعلِ مروحة السّقف في تنبيهي إلى أنَّ هناك امرأةً خلفي عليّ أن أُخلي مكاني لها كما أخليته لكثيرين قبلها. عدتُ أنظرُ إلى الشّاويش مؤكّدًا فراسته بأنْ ليس بيني وبين الفتاة أيَّ قرابة ولا حتّى معرفة سابقة. اقتحمت جبينَه عبوسةُ قرف واشمئزاز. هدر صوتُه مخنوقًا حانقًا:

- ولمَ أخليتَ لها مكانَك إذن؟

فتحَ الجوازَ وضربَ بيدهِ على صورةٍ التُقِطَت لي قبل خمسةِ أعوام حين كنتُ بشاربٍ كث. جعل يُحدّق إلى الصّورة مرّة وإليّ مرّات، ثمّ أكملَ راسمًا على زاوية فمِه ابتسامة ساخرة:

- شهامةٌ أم حركةٌ دنيئة منك لاصطيادِها؟!

طوى الجواز يهزّه أمامَ وجهي بعنف:

- أعرفُ حركاتِكم جيّدًا أيّها الرّقعاء.

مرقَت إلى صدري سكينٌ حادة. رغمَ كلامه المُوجع كدتُ أن أنفجرَ ضاحكًا مِن ظنونِه. لو عرفَ حيائي الفطري وارتباكي أمام النّساء سيما الجميلات منهن لمَا كلّف نفسَه مشقّة الظّن. قلتُ في نفسي إنّ هذا الشّاويش ينظرُ بعينيه هو ويفتعلُ المواقفَ الحادة كي يُنفّسَ عن حرمان يعانيه أو لكي يمنعني مِن السّفر. ظللتُ صامتًا ووجهي نَهْبٌ لنظرةٍ شرسة تمضغني بلا أسنان. لم يشفع سكوتي وصمتي في تهدئةِ خاطرِه عمّا اعتبره دناءة منّي. توقّعتُ أن يصيحَ بشرطيٍّ يقفُ متأهّبًا عن قرب «اقبض عليه». زفرَ أخيرًا وتركَ الجواز نهبًا للهواء المُندفع مِن المروحة الكبيرة. فزَعَ إلى ملفٍّ سمين يعبثُ في أوراقه بعصبيّة ظاهرة لا تخلو مِن السّأم. تحسّستُ ذراعي القريبة من الشّرطي أحدّد النّقطة الّتي ستنغرسُ فيها أصابعُه عمّا قريب فيما لو انبسطَت أساريرُ الشّاويش وفتَحَ فمَه الأكرت مُطلقًا صيحةَ الظّفر «اقبض عليه». هناكَ رحلةٌ سابقة إليّ حيثُ سرحان في بيروت استغرقَت شهرين. سرحان وبيروت.

ليس الخوفُ بحال ما يشدُّ عيني في خطٍّ مستقيم إلى فم الشّاويش. إنّه ترقّبُ. بل رغبةٌ دفينة في أن يزجَّ بي في السّجن أو أن يحجزَ جوازَ السّفر على الأقل، أغادر بعدها المطار رافعَ الرّأس وأعود إلى سرحان في قبره أساله إن كان راضيًا عنّي الآن.

أيقظني ارتطامُ الجواز على الحاجز الرّخامي أمامي. التقطتُه ببرود فيما ارتطمَت عيناي بالوجه الصّارم وقد أساءه ألّا يجد شيئًا ضدّي يترجمُه عبرَ صيحةِ فرح إلى الشّرطي المُتحفّز عن قرب. أمرني حانقًا بالعبور فقد قطَعت رحلتُه السّعيدة عبرَ الملف. حين صارَ العبورُ ممكنًا اجتاحتني رغبةٌ في العودة إليه راجيًا بأن يبحث جيّدًا علّه يعثرُ على ما يردُّ لي اعتباري ويوهمني بأنّني شخصٌ مهم. انتهرني بقسوة على تلكّئي فمضيتُ إلى حيث الفتاةُ ما زالت واقفةً تُعدّل مِن وضعِ حقيبتها تحت إبطها. اختلستُ إليها نظرةً غائمة فملأ لونُ كنزتها الأخضرُ مجالَ الرّؤية وسرقَ منّي كلّ شيء عداه. حين حاذيتها شكرتني بصوت مرتفع غير حذر بالمرّة وكأنّما تعرفني منذ زمن. رددت عليها بأنّي لم أفعل غير الواجب. فتحت لها الباب الزّجاجي سبقتني إلى صالة الانتظار ثمّ استدارت نحوي قائلةً بحرص:

- تأخّرتَ أكثر من اللّازم هناك!

أشارت إلى حيث يقبعُ الشّاويش في غرفته الزّجاجيّة. حملت لهجتُها الاستغراب واللّهفة لمعرفة السّبب وتذكيرًا بالمدّة الّتي قضتها منتظرةً أمام الباب. لم أجد ما أردّ به عليها كما لم أستطع النّظر إليها مباشرة. استطردَت وهي تسير بجانبي عبر صفّين من المقاعد يحتلُّها المسافرون:

- لاحظتُ عليك الخوف.

ذات اللّهجة المستغربة نفيتُها بسرعة:

- الخوف! أبدًا. أبدًا. وممَّ أخاف؟!

لعلّها شعرَت بضيقي مِن هذه التّهمة فقالت بصوتها الرّخيم:

- معذرة إن كنت قد أسأتُ إلى مشاعرك.

طمَست نبرتُها الصّادقة آثارَ ضيقي. نفيتُ ظنونَها ملقيًا عليها نظرة مباشرة لأوّل مرّة. قطفتُ حسنَها البادي فحاصرتني الدّهشة من هذا الجمال الّذي انتظرَني وسارَ بجانبي من الباب إلى وسط صالة الانتظار. وجهٌ مستدير حليبي اللّون يتغلغلُ فيه شحوبٌ مُحبّب كلّما سقطَ عليه

الضّوء. عينان واسعتان بلونِ زيتونةٍ بلَّلها المطر. شعرٌ فاحم يتهدّل على الصّدر والكتفين ينحدرُ طويلًا حتّى يطوّق الخصرَ الضّامر يحرسُه نهدان شامخان، وينبثقُ من تحته ردفان مستديران يقومان على فخذين عظيمتين قدّرتُ أنّهما في مثلِ صلابة الإسفنج المضغوط. لو قُيّضَ لي أن أرسلَ إليهما أصابعي المرتعشة. أضغطُ بهما أرضيّة الكنَبة الملساء. قالت وهي تلقي بحقيبتها عند قدميها:

- لاحظت عليك الارتعاش وأنتَ تُرجِئ دورَك فكنتُ آخرَ مَن تخلّيتَ له عن مكانك.

لا تزال محكومةً بالدّهشة. إنّها الدّهشة وليس الفضول كما أوهمتني مِن قبل. نظرتُ إلى عينيها مباشرة فلم أستطع تكذيبها. ما دامت ترى أنّني كنتُ خائفًا فلا بدّ أنّ هذا قد حدث بالفعل. فتاة فوق التّكذيب. فوق الشّبهات. قلتُ وأنا أضع ساقًا على ساق فيما أغبطُ لنفسي هذه الرّحلة:

- كنتُ أظنّ أنّني حزين وحسب!

تفرّسَت بي تبحثُ عن مكامن الحزن. وشى صوتُها بصدقها وتأثّرها:

ـ حقًّا، يكادُ الحزنُ على وجهك يصرخ.

رغبتها الظّاهرة في المعرفة أجبرتني على تطليقِ صمتٍ ناخ عليّ منذ أيّام ثلاثة، لم أنطق خلالها بكلمةٍ ذات قيمة تذكر، أتمزّق حاجة لمن أبوحُ له ويسمعني، وحين تشتدُّ بي الرّغبة في البوح ترسو القرعةُ على هذا الجمال لألطّخه بهباب أيّامي وهو الجدير بالشّعر والغزل، القمينُ بأن تقام له التّماثيل في الشّوارع والسّاحات. كيف أشرِكُها في حزني المقيم وأحكي لها عن تفاهتي المزمنة ولم يمضِ على تعارفنا غيرُ دقائقَ معدودة ساقتها رياحُ الصّدفة البحتة؟! ماذا أقول لهذه الفتاة الّتي لا أعرف اسمها وأظنّني لن أعرف فيمتدّ خيطُ التّواصل بيننا في حديثٍ يتشعّبُ إلى شجونٍ كثيرة أوّلها هذا الحزن النّاطق على سرحان.. أوّلها سرحان.. آخرها سرحان.

أوّلها وآخرها ارتطامي بحقائق نبّهني إليها فأغمضتُ عيني طويلًا إلى أن جَبَهتني المرآةُ الكبيرةُ فسقطَت ورقةُ التّوت. سقطَت فانبعثتُ من قبرِ الوهم والمراوغة عاريًا أحملُ مصباحًا كاشفًا أجوسُ به زوايا العتمة في نفسي، وأحمي ذبالتَه من عَبثِ الرّياح. رياح الغربة والضّياع تجبرُها على الرّقص غير المنتظم، تتوزّع على أثره

الحقائق مشوّهةً تدوسُها خيلُ الوهم.. خيلُ الغربة والضّياع. أشياء ورثتُها عن أبي مقلوبة السّحنة.

لم أرث عنه الإصرارَ على العودة إلى الرّملة حيث بيتنا وشجرة الزّنزلخت الأم. لم أحمل مثله الزّنزلخت وأغرسهُ حيث حللت. لم أدخل مثله في أيّ مجابهة حقيقيّة مع الأعداء. لم تستبح جسدي شظايا القنابل ولم تخترق صدغي رصاصةٌ يهوديّة ما يزال أثرها باقيًا حتّى اليوم. لم أشد على يدِ سرحان ولم ألح عليه بأن يأخذني معه لنقطع النّهر سويّة، ولا أن أرحلَ معه إلى بيروت حين تعذّر البقاء. لم أفجّر مثله المواقفَ وأصنع الخِيارت لأرحلَ خلفه إلى حيثُ رحل. أخذتُ بالسّهل وتراخيتُ عن الصّعب عمّا يقودني إلى التّضحية في عالم تحكمه المصالح والـهواء.

دوّخني «آل حمّوري» وأغرتني الحياة. لم أعش حياتي كما يجب ولم أنتقل كما يشتهي سرحان ووالدي من زوايا العتمة إلى دائرة النّور. في لحظات الصّدام مع نفسي أُرجِعُ فشلي في الوظيفة واشتغالي بالصّحافة إلى انخراطي في الأدب؛ وإلى سكوتي حيث يجب الكلام وإلى الكلام حيثُ يَحسُنُ السّكوت. حتّى زوجتي رغم غبائها الفطري تلاحظ هذا. تنعى عليّ فشلي ومراوحتي نقطةً لا

أتجاوزها إلى ما يضمنُ لي الاستقرار والهدوء وراحة البال.

أرى كلّ من كان يدرُجُ خلفي في سلّم الوظيفة أو الصّحافة وحتّى في الأدب قد لحق بي وبتُّ أدرجُ خلفه لاهثًا. حتّى عيسى الضّامر صديقي ومن أتيتُ بهِ إلى الصّحيفة حيثُ أعمل، مَن نقلتُهُ مِن دائرة الشّعر الهُلامي إلى القصّة الجادَّة سبقني في الصّحافة والأدب على حدٍّ سواء. يحظى بثقةِ رئيسِ التّحرير ويقفزُ بينَ الوظائف بمهارة القطّ اللّبق. يطبعُ كتابَه الأوّل على نفقة الصّحيفة ويقدّمهُ له رئيسُ التّحرير بقلمهِ البغيض. أراوحُ مكاني، لم أفلح في أن أكونَ «حمّوري» أو «سرحاني». أغرتني الحياة اليوميّة. الحياة الطّافية على زبَد الحياة. مع هذا لم يجرِ المالُ إلى جيبي كآل حمّوري ولم أحدّد موقفي كما فعلَ سرحان بعد حزيران، ركلَ الشّهادة الجامعيّة وبصقَ على الوظيفة المُريحة ماضيًا في طريقِ النّضال والتّضحية والفداء.

لقد عرفَني أكثرَ ممّا عرفتُ نفسي. أطلقَ عليّ وصفًا بالغ الدّقة. «مُعلّق» كالمرأة المهجورة، لا هي في بيتِ الطّاعة مع زوجها ولا هي مُطلّقة تبحثُ لها عن زوج آخر، عن

حياة أخرى. لو أنا كشفت عن أورامي لتلكَ الفتاة لولّت هاربة.

- لم نتعارف حسبَ الأصول.

نبّهني صوتُها الرّخيم إلى أنّني تركتُها غارقةً في الصّمت في وقتٍ كنتُ غارقًا في الخواطر. تلفّتُّ نحوها فطالعتني عيناها المُشبعتان بالسّكينة والهدوء. قالت بصوتٍ مُرتفع النّبرة كأنّما لا يهمّها أن يسمع كلّ الموجودين اسمها:

- عامرة. وأنت؟

نبرتها السّاجية لم تعنِ التّعارف بقدر رغبتها الأكيدة بإخراجي من دائرة الحزن والصّمت.

هبّت نسمةٌ باردة بلون عينيها وأسنانها النّاصعة المرصوصة قلّمَت أظافرَ الحزن. مشى إليّ حضورها المدهش.

- متروك.

مددتُ يدي أصافحها فألقت فيها يدًا رخصة لها ملمس الورد. قالت وهي تتهيّأ لضحكة سعيدة:

- أهذا اسم أم حالة أم صفة؟

أطلقَت ضحكتَها من إسارها الأنيق. ليست ضحكة السّخرية والهزء بل خطوة مدروسة لتبديد صمتي المطبق. مفتاح صغير متناهٍ في الصّغر دسّته في أقفال تراني مولعًا بتركها مُقفلةً في وجه الشّمس والرّياح العابرة. شاركتُها الضّحك أشربُ الصّفاء من عينيها الواسعتين سرقتا لونَهما مِن شجرةِ زيتون بلّلها المطر. سرقة مشروعة ما دامت تصبُّ رفدها في بحر من الصّدق والصّراحة، في بحر من البراءة والحب.

يمكنني أن أضعَ رأسي على وسادتها النّاعمة وأنثرَ ما فيه بلا حرج، هذا ما أريده بالضّبط. هذا ما تريدُه. دسّت مفتاحَها الصّغير الأنيق في أقفالي، قفلًا، قفلًا فحدّثتها عن حزني. حدثتُها عن سرحان. سرحان صديقي. سرحان النّخلة كيف قصّوها وداسوا عذوقها والرّطب قبل أن يشمَّ عبيرَها الجياعُ من أطفال المخيّمات الموحلة؟ حدّثتها عن رحلة الطّفولة والشّباب إلى أن لاحقه الغادرون بالموت فظفروا به. حدّثتها عن نفسي. لأوّل مرّة أفعل هذا لغير سرحان. ولكنّه عرفني جيّدًا وظل يرجو أن تَصلُحَ حالي حين أكابر وأزيّف مشاعري ناسيًا أنّه أكثر مَن عرفني.

لم تعرفني عامرة مِن قبل وهذا ما دفعني إلى أن أضعَ الوطن السّليبَ فوق كلّ اعتبار؛ موهمًا إيّاها بأنّ شخصًا

مثلي لا يعرفُ الخوف والجبنَ في المواقف الصّعبة فما بالها بالموقف التّافهِ أمام شاويش الجوازات كما توهّمَت!

جعلت تهوّنُ الأمرَ عليّ بأنّ الحياة مستمرّة رغم كلّ شيء. ولكيلا أظنّ أنّ مَن في كفّه الجرح وحده الّذي يصرخُ ويتألّم أخبرتني عن شقيق لها فقدته في حرب حزيران. أصاب دبابتَه صاروخٌ من الجو وهو في طريقه إلى القدس الّتي سمع بها وأحبّها ولم يرها. لم أكن بحاجة إلى مزيد مِن الشّرح. لقد شاهدت بعينيّ الدّبابات المحترقةَ في وادي شعيب تلتهُمها نارٌ مسعورةٌ تفرش بالدّخان الأسود الطّريقَ الممتدّة مِن أريحا إلى عمّان. انتظمَت بيننا لغةٌ مشتركة صنعَ أبجديتها السّاحرةَ الاعترافُ وحالةُ الحزن الواحدة. سرحانُ وشقيقُها ومقتلُهُما في الموقع الخطأ. لم يعد للزّيف مكانٌ ولا للحزن الّذي تهشّمت أسنانُه بمطرقة سرّيّة يعزفُ رنينُها لحنًا شجيًّا نُصغي ونذوب وجدًا وانبهارًا.

صار من الممكن أن أنظر إليها، أن أحدّق بلا حرج. أحاورُها في أشياء صغيرة عابرة تثيرُ ضحكتَها الصّافية كانبجاس الماء مِن طبق فضي؛ لا أدري أيّهما يعطي الآخر لونَه وروعته. قلتُ لها صراحة أنْ ليسَ الخوف أو الجبن ما دفعني إلى أن أخلي مكاني لها، بل نزولًا عند

عادة مستفحلة بي في كلّ موقف يتطلّب النّظام والانتظام في طابور طويل. وإن لم أتخل عن مكاني طائعًا لامرأة أوعجوز هدّته السّنون تخلّيتُ مُكرهًا بدفعِ مَنكِبٍ أو مِرفقٍ شرسٍ يحاورني بغلظة؛ ويدحرني إلى المؤخرة مقهورًا أجترّ غيظي بصمت.

- صحراءُ هذه المدينةُ. صحراءُ وفي أحسن الأحوال أو أسوئها غابةٌ لا مكان فيها لمن يُلصِقُ ذراعيه بصدره؛ وينتظر أن يشملَه سقفُ المظلّة فلا تبتلُّ ثيابُه شتاءً، ولا ترسلُ إليه الشّمس ضربةً ماحقةً في الصّيف.

رفعت حاجبيها اعتراضًا وتغزّلت بجمال المدينةِ الّتي قضت فيها شهرين رائعين ضيفةً على شقيقها الأكبر؛ الّذي سُرِّحَ من الجيش وجاء مِن بغداد خصيصًا ليعمل سائسَ خيل. قناعتي المطلقة بعكس ما تقول طمَست حتّى الرّغبة في معارضتها. قلت وأنا أسافرُ في عينيها مُلملمًا غدائرَ شعرها الفاحم أحسّ به على كتفي منذ أن بعثته مروحةُ السّقف من هجعةِ السّكون.

- تصوّري أنّ ذلك الشّاويش فسّرَ نخوتي بأنّها حركة دنيئة منّي لاصطيادك! تصوّري!

أطلقت ضحكةً صاخبة رفعَت لها وجههَا عاليًا فبان جيدُها مُشرّعًا كالرّمح. قالت وتلك الضّحكة تسحبُ ذيلَها الفاخر على كلّ من حَظِيَ بسماعها في الصّالة الواسعة.

- اصطيادي!

عادت إلى الضّحك بانتشاء رافعةً وجهها ليفسحَ الطّريق أمام جيدها المُشرّع كالرّمح.

- فريسة! هذا كلّ ما ينظر به الرّجال إلى المرأة؟!

- ليس كلّ الرّجال بالطّبع.

ارتدّت ضحكتها ابتسامة خجلى وهي تنظرُ إلى عيني مباشرة ومِن ثمّ تنزلقُ إلى هناك. إلى أنفي الشّبيه بإبهامٍ متورّمة ألصِقَتْ في وجهي استكمالًا لخلق ناقص. نظراتُها الثّابتة الطّريّة وهي تستريحُ على وجهي بعد سفرٍ مُجهد لم تقنعني كما أتوهّم أحيانًا بأنّي وسيم. رغمَ هذا الأنف أعرف يقينًا أنّني أركبُ للوسامة مركبًا صعبًا في بحرٍ شرس الأمواج. لعلّ هذا السّبب في حيائي الفطري وارتباكي في حضرة النّساء لا سيما الجميلات منهن. لم يحدث أن بدأت أيّا منهن بالغزل، ومع هذا تبقى لي

فراستي الصّادقة باحتمال الاستجابة الفوريّة أو المؤجّلة إلى حين تنضجُ العاطفَة على نار هادئة.

أسميه حذرًا وحفاظًا على خط الرّجعة ويسميه سرحان جبنًا ومراوغة حين يجري مقارنةً شاملة بين مغامراتي الصّغيرة؛ وبين عالم الحقائق الثّابتة كما يحلو له أن يسمي إخلاصه وتفانيه في خدمة الوطن السّليب؛ قضيّته الأولى والأخيرة. حدّثتُه الكثيرَ عن الطّبيبة العانس الدّميمة «جليلة» كيفَ حرّكَت مياهي الرّاكدة، وكيف صبغَت رحلة الزّواج بألوان زاهية. رغم حرصه على انتقاء الكلمات غير الجارحة كان يصفني أحيانًا بالتّفاهة والمراوغة. لم تهمّني الصّفات ولم تجرحني. لم يهمّني أن تزيدَ علاقتي بجليلة من جبني ومراوغتي. ما يهمّني أن تكونَ لي علاقة حقيقيّة قائمة مع امرأة أيًا كانت بعدما وقعتُ في شَرك الزّواج مُبكرًا؛ وقد تكشّفَ لي قبل نهاية شهرِ العسل أنَّ هذه العلاقة الشّرعيّة تحرقُ سفنَ الحبّ الوالغ في الشّرايين.

كنتُ بحاجةٍ إلى مَن ترمّم جسوري المُهدّمة، وقد دخلَت جليلة شراييني وأبحرَت بغُلواء عانس تنتقمُ بي من جنس الرّجال. انتقامًا جميلًا خفّفَ مِن إحساسي بالغبن كلّما عدتُ إلى تلك المرأة الّتي تفهمُ الزّواج على أنّه إنجاب

ذريّة؛ كلّما زاد العددُ رفرفَت السّعادة في البيت وإن كان قميئًا في مخيم وذا سقف واطئ مِن الزّنك. عبرَت جليلة إلى حياتي في فترة حرجة تكدّست فيها إضافة إلى الغربة والضّياع أبعادٌ أخرى من الحرمان، مِن أنّي أعيش في جزيرة مهجورة. أحاديثُ الحبّ تُلقى من حولي أنّى ذهبتُ في الوظيفة، في الصّحيفة، في المقهى، مع الأدباء. تُلقى الأحاديث بعفويّة أشبه بغسل الوجه صباحًا. أيّ حرمان أعاني والحبّ كما أرى وأسمع أسهل من عبور شارع خالٍ من المَركَبات؟

جاءني عزيز حمّوري في هذه الفترة. اختار اللّحظة الحرجة. جاءَ حين كان صديقي، قبل أن يعرفَ سرّ انبثاقِ المال مِن صخرةٍ صمّاء. شكا لي كعادته من لواعج حبّه لابنة عمّه «خولة». ليسَ هذا جديدًا. هذا حديثه المفضّل كلّما التقاني وكلّما طرقَ باب بيتي بعد منتصف اللّيل. يشكو ويتذمّر من جفاء خولة ومن صلافةِ عمّه وتعيير زوجته إيّاه بأنّه بائعُ كعك وضيع. كلّ هذا أعرفه وليس جديدًا.. الجديد أن يتملّقني ويطري أسلوبي السّلس في الكتابة. استظهرَ لي بعضًا من قصصي وأشعاري وحتّى التّحقيقات الّتي أجريتها عن أزمة المجاري تغزّلَ بها طويلًا. أقنعني بهذه الحافظة وهذا الاهتمام بأنّني صاحب

أسلوب بديع. نفخَ فيَّ الغرورَ بكشفه قدرات فذّة لم أسعَ إلى اكتشافها من قبل حتّى إذا طلبَ منّي كتابة رسالة لخولة على لسانه رحّبتُ بالفكرة فورًا؛ وسقتُ بعدها مِن المبرّرات ما يقطعُ عليه خطّ الرّجعة عنها لو فكّر بالعدول. سارع يومها بالذّهاب على غير عادته زاعما أنّه إنّما يتركُني مع عبقريتي النّادرة كيلا يقطعَ وجهُه الدّميم عنّي طريقَ الوحي. كشفَت لي جملته الأخيرة أنّه يتملّقني عن وعي وأن وحدي المغفل أرقصُ لجملة عابرة. فإن كان هو دميمًا فماذا عساي أقول أنا كلّما طالعني وجهي صباحًا في المرآة لأحلقَ ذقني؟ أعجبُ مِن شكواه ومن صدودِ خولة وكيف لا تذيبُ وسامتُه الظّاهرة كلّ العقبات.

أعجبُ وحين أتذكّر فقرَه أعرفُ السّبب، أتأكّد عندها أنْ ليس لي حظٌّ بالمرّة مع النّساء. الفقر المزمن، الحياء الفطري، وهذا الأنف العلامة الفارقة، كلّها تتكاتفُ وتبني السّدودَ في وجه رغبتي المسعورة بإنشاء علاقةِ حبٍّ حقيقيّة.. تُقنعني بأن لم يكن زواجي المُبكّر إلّا محطّتي الأخيرة وغلطتي الفادحة أسدّدُ فواتيرَها حتّى آخر العمر. جاءت الفرصة على يد زوجتي ذاتها حين صحبتُها إلى عيـادة جليلة طبيبة التّوليد وأمراض النّساء. حبّبَت لي جليلة الحياة. أرتني وجوهًا عدّة لها غيرَ مظلمة. كان لا بد

أن نلتقي في منتصف الطّريق، هي بحقدها المُعلن على الرّجال، وأنا بإحساسي الماحق بالغبن والحرمان.

اقتحمتُ عالمَها المغلق المسدود اقتحامَ خبير، تقودني دمامتُها وتحريمُها العيادة على كلّ من قال أنا رجل. أكّد لي سلوكُها تجاهي أنّني نصفها الضّائع. لو لم أسعَ لإيقاظ قلبها لذوى كمدًا أو لالتَقَطَتني من عالمِ الرّجال الشّرس كما ظلّت تسميه، حتّى إذا انصرم عامٌ على لقائنا الأوّل أضحت تصفه بالعالم الرّائع. لجليلة أسبابها الخفيّة والمعلنة في احتوائي ولكن عامرة! ما الّذي يدفعُها إلى لقائي ثانيةً بعدما أشبعتُ فضولَها من أنّني لم أكن خائفًا ولا مذعورًا، بعدما أفضيتُ لها بمكامن حزني وأوجاعي؟

أشارت مأخوذةً إلى طفل يضعُ رأسَه على حِجر أمّه ويُلقي برجليه على كتفيها ورأسها:

- انظر ما أروعَه؟!

حدّقتُ إلى الطّفل أبحثُ عن الرّوعة في هيئتِهِ تلك كما شحنَ بها صوتَ عامرة؛ إذ فاجأتني وفجعتني حرارةُ الصّدق فيه. ظللتُ أجابهُ رغبةَ زوجتي في الإنجاب خمسَ سنين إلى أن طفحَ بها الكيل وأخبرتني ذات ليلة أنّها حامل. لو لم تحس بالألم ولو لم تكن بحاجة إلى طبيب ما

أخبرتني؛ ولوفّرت على نفسها وجبةً من الزّعيق هرعَ على أثره أبي يستطلعُ الأمرَ، ولمّا عرفَ أنّ هناك حفيدًا في الطّريق تمطّت ابتسامتُه وانضم إلى زوجتي في ضرورةِ حملها إلى طبيب حاذق؛ إن لم يكن حالًا ففي صباح الغد على أكثر تقدير.

أيّ روعة تراها عامرة في هذا الطّفل وفي أطفال أخيها الّذين جاءت إلى عمّان لأجلهم؟ أيّ روعة وأنا لم أستطع حتّى الآن هضمَ أن يكونَ لي ابن واحد حتّى بعدما تخرّمَ الموتُ ثلاثةً آخرين جاءوا قبله. حدّقتُ إلى الطّفل مرّة ثانية علّني أنظرُ إليه بعيني عامرة، فقطعَ عليّ تأمّلي انبعاثُ المسافرين في أرجاء الصّالة بعد أن انسابَ صوت المذيعة تهيبُ بالمسافرين إلى بغداد التّوجه إلى البوابة رقم «5».

انحشروا بجملتهم أمامَ البوّابة كلّ يريدُ أن يكون أوّل الدّاخلين. زفرتُ مغتاظًا مِن تهافتهم. سأكونُ الأخيرَ حتمًا في هذه المعمعة. سأكونُ الأخير. هذا ما يحدث لي دائما كلّما اقتضى الأمر النّظام. حتّى لو انطلقتُ أوّلَهم أكون الأخير. إن لم أجد مَن يدفعني بعيدًا ويأخذ مكاني أتخلّى عنه طائعًا لامرأة أو عجوز أحنَت ظهرَه السّنون. عادةٌ

استأثرت بي. لا أستطيع فكاكًا منها. أتلفّتُ حولي علّني أرى حمرةَ الخجل على وجوه مَن أكرمتُهم أو مَن استباحوا حقوقي.. الخجلُ إبرةٌ صدئة في كومة مِن الرّمل السّاخن العثورُ عليها صعبٌ أو مستحيل. التفتُّ إلى عامرة. فهِمَت قصدي فهزّت رأسَها متبرّمة. استراحت في جلستها أكثر كأنّما تقول: «وأنا مثلك أيضًا، ليس لي في هذه المعمعة نصيب». رنَت إليّ بعينيها الواسعتين وعلى ثغرِها المُنمنم طيفُ ابتسامة:

- لا خوفَ عليّ ما دمتُ معك. سأدخلُ قبلَك.

قلتُ وأنا أحذو حذوها وأسترخي:

- اطمئنّي. لو كانت هنا سلحفاة لسبقتني إلى الدّخول.

هنا كما في محطّة السّيّارات كما في كلّ موقف يتطلّبُ النّظام، أجدُني في مؤخّرة الصّفوف طائعًا أو مكرهًا. لطالما نفخَ شريف حمّوري في همّتي كي أفعلَ مثله. أزاحم وأصعدُ إلى الحافلة إن لم يكن من الباب فمن النّافذة. أخيّبُ رجاءه دائمًا فيضطر إلى تخطّي الجميعِ ويلوّح لي بيده فرحًا بأنّه سجّلَ نقطةً لصالحه. هذا في زمن الفقر، قبل أن يركبَ سيّارة خاصّةً به. قبل أن يتنكّر للصّداقة والعشرة والخبز والملح. سرحان أيضًا شهِدَ

بنفسه الكثير من مواقف اندحاري في محطّة السّيّارات وفي الوظيفةِ والصّحافة والأدب.

عقبَ كلّ فشل ذريع أُمنى به أسقِطُ اللّعناتِ على النّاس؛ على هذا العالم الموحش، وأعجبُ مِن انفراط عقد النّظام وتفشّي الأنانيّة وحبّ الذّات. وحين يحاصرني اليأسُ في الصّلاحِ أحلمُ بمعجزةٍ تُقيمُ أعمدةَ مدينةٍ فاضلةٍ أكون أوّلَ من يَحمل حَجَرًا في أساسها المتين. أنظرُ إلى سرحان علّه يشاركُني الحُلمَ أو يشدّ على يدي. أجده يحدّق إليّ مبتسمًا أو ذاهلًا يغتالُ زوابعَ الغيظ قبل أن تحصدَني. يقول وهو يهرب بعينيه إلى موضع قدميه أو إلى السّقف الواطئ إن كنّا في البيت، أو إلى الأفق البعيد إن كنّا في الشّارع.

- مصيبتُك لا في هذه الأحلام وحسب، بل في قناعتك المُطلقة بأنّ أحلامَك تمشي بيننا، وستتحقّق هكذا وأنتَ جالسٌ دون أن يَطرف لك جَفن. لا أقول إنَّ ما تريدُه مستحيل، بل هلّا سألتَ نفسَك ولو مرّة ماذا تراني فعلتُ ليحدثَ ما أريد؟

نبّهني صوتُ السّائق:

- ها قد وصلنا.

لم أشعر بالسّيارة وهي تترك شارعًا لتدخلَ في آخر، ولا بتوقّفها اللّينِ أمامَ بيتِ عامرة الأنيق. منعني الإرهاق واللّيلُ مِن رؤيته جيّدًا حين أوصلنا عامرة ليلة أمس. مع يقيني أنّه هوَ حاولتُ أن أشكّك السّائق علَّ الحديث والجدل يمتصّان اضطرابًا بدأ بالهرولةِ إلى موجات صغيرة حادّة. بسطَ يدَه على صدره قائلًا بثقةٍ قطعَت الطّريق على المماحكة:

- ولو يا أستاذ! أعرف مخابئ النّمل في بغداد.

ثمّ أردف وهو يحتضنُ المقود استعدادًا لغفوة طويلة.

- خذ راحتك.

قالها بلهجةٍ لم تؤكّد ظنوني بعدم ارتياحِه للقاء عامرة كما لم تنفِها. حدّقتُ إليهِ عسى أن اقرأَ الحسمَ في عينيه. كان ينظرُ إليّ بعينينِ نصف مغمضتين فهرعتُ إلى البوّابة أضغطُ الجرسَ قبل أن يفتحَهما فيجبهني سؤالٌ طرحته على نفسي مرارًا مِن قبل «كيف سيستقبلني أبوها؟» انفتحَ البابُ الدّاخلي قليلًا. ظهرت عامرة برأسها أوّلًا، وحال رأتني اندفعت خارجة تلملمُ روبها الأزرق على جسد أذهلَ المسافرين بالأمس كما سحبني إلى غبشةِ الأحلام. هتفت بي أن أدخلَ وحين أصبحت على بعد خطوتين منها

قالت بعتاب كأنّما تخاطبُ قطًّا مُدلّلًا غابَ عن البيت وتركَ مِن بعده وحشةً وانتظارًا.

- ماذا تنتظر؟ ادخل، ادخل.

ثمّ وهي تضع يدَها الرّخصة في يدي:

- خفتُ أن تحنثَ بوعدك ولا تأتي.

أحرقَت عفويتُها تردّدًا جاء معي. اندحرَ ما جُبِلتُ عليه من حياء يشطرُني في حضرة الجميلات ويطعمُ لحمي للارتباك وسوء التّصرّف ورداءة القول. أجدني في مواقف مماثلة أسيرَ لحظةٍ صوفيّة تَسحبني إلى داخلي أحملُ على كاهلي ذنوبَ الأرض. أنزوي هناك في ركنٍ قصي، أنتظرُ زوالَ الحالة. عندها يصهلُ في جسدي طوفان ليس مِن الرّغبات المحمومة وحدها بل يكون للغيظ فيه نصيب. الغيظُ مِن انشطاري على هذه الصّورة المُضحكة المبكية وتحوّلي مِن بعد إلى بؤرة منتنة يطغى فسادُها على كلّ ما حملتُه مِن قيم؛ وعلى ما رضعتُه من أبي وأمي وكلّ مَن بنى الشّيب في رأسه مناطقَ نفوذٍ واسعة.

حين عُيّنتُ مدرّسًا في بيت لحم وتوجّب عليّ الانتقال مِن عين السّلطان إلى مدينة غير أريحا حملتُ مع ملابسي ذخيرةً من وصايا أبي. وصاياه الطّارئة وتلك الّتي عشّشت في دمي يومًا بيوم ولحظةٍ بلحظة؛ حتّى بتُّ سجينًا في قفصٍ رهيب لا يرى غير قضبانه المتشابكة.. رغم قناعتي يومها بضرورة بدء حياة جديدة يفرضُها الانتقال مِن مرحلة التّلمذة إلى زحمة العمل؛ لم أغلق رأسي في وجه قناعات غيري وإن تكن خاطئة. ظلَّ العرقُ ينزّ من جبهتي حتّى اغتسلتُ به تمامًا وأنا أقف أمام متجرٍ للخردوات قال لي أبي إنَّ صاحبَه الحاج رضا ليس صديق الشّباب وحسب؛ بل وتجمعنا به قرابة بعيدة تمتدُّ جذورُها إلى الجَدّ الخامس مِن شجرة العائلة الّتي تساقطَ الكثيرُ مِن فروعها دون أن يسجلّها الدّهر في دفاتره. لم يفارقني الحرج والرّجل يؤكّد لي أنّه الحاج رضا بشحمه ولحمه. انكببتُ على يدِه ألثمُها مرّات عديدة بحكم العادة كلّما التقيت بامرأةٍ أو رَجُلٍ يكبرني بعشر سنين على الأكثر.

امتصّت ابتسامتُه العريضة ارتباكي ودحرَ تَرحابُه الزّائدُ فلولَ الحرج، حتّى إذا أشار إلى فتاة في الدّاخل ترتّبُ البضاعة على الرّفوف وقال إنّها نجاح ابنته؛ هرعَ

إليّ الارتباكُ ثانيةً وتمنّيت لو أنَّ الأرضَ تبتعلُني قبل أن تصلني الفتاة وتأخذ يدي بيدها تهزّها بحرارة أشعلَها قولُ الحاج وهو يرفع رأسي المتطامن خجلا:

- إنّها نجاح ألا تعرفها حقًّا؟

ألقى ذراعَه حول كتفي يعيدُ كلامًا قاله أبي أنْ كيف انتقلنا من الرّملة إلى بيت لحم؛ وكيف كنتُ ألعب مع نجاح وأضربها مستغلًّا أنّها تصغُرني بعامين. شحنني كلامه وأريحيته ببعض الثّقة. خطفتُ نظرةً إلى الفتاة. وجدتها تنظرُ إليّ بثبات تتوزّع في عينيها الخاليتين أشفارُهما مِن الرّموش ذكرياتُ أيّام خلت؛ ربّما تتذكّرها مثلي ضبابًا أو لا تتذكّرها بالمرّة، ولكنّها تعيشُها الآن ووالدها يربطُ الحاضرَ بالماضي في لهفة مَن يرغب حقًّا بإعادة عجلة الحياة إلى الوراء بلا أدنى خلل؛ كأنّما لا يزالُ يعيش في الرّملة ويخرجُ مع أبي إلى الجبالِ مقاتلًا عصابات اليهود.

اللّهفة لا الحسرةُ ما يستوطن عينيه وملامحَه السّعيدة؛ بعكس أبي الّذي كلّما أتى على ذكر تلكَ الأيّام ذابَ وتفتّت حسرةً ليمضي إلى شجرة الزّنزلخت يسألُها إن كانت حقًّا راضية، يمرّرُ يديهِ على أوراقها كأنّما يمسحُ عنها الدّموع.

أدركتُ من أحاديث الحاج رضا ومِن ابتسامته العريضة أنّه كما وصفه أبي؛ صاحبُ نكتة ومرح تظهر آثارهما على وجهه الخالي من الغضون رغم أنّه يكبر أبي بخمسة أعوام. وكأنّما قرأ خواطري فقال مشيرًا إلى زيارته خيمتنا في عين السّلطان مع ابنته حيث لعبتُ معها؛ وأخرجنا العقارب من جحورها بالماء:

- أما زالَ والدُك يضعُ الحزنَ في الجرّة؟

حمل صوتي العذاب مُركّزًا:

- وهل تعرف الخِيام المسرّات؟

طقطقَ بشفتيه أسفًا واعترض بلهجة قاطعة كالسّيف:

- أبوك إن حزنَ فهذا شأنه أمّا أنتَ، أمّا أنتم الشّباب فالحزنُ لا يليق بكم.

أردف وهو يهيب بنجاح أن تغلق المتجرَ ليصحبني إلى البيت:

- المستقبل مِن أمامكم ويجب أن تزرعوه بالتّفاؤل والفرح.

وظلَّ يعزف على هذا الوتر لمدّة عامٍ كامل قضيتُه في بيتِ لحم حين تنتظمُ السّهرات في بيته يجتمعُ لها رجال كثيرون، وفي النّهار تتولّى نجاح العزفَ على الوتر ذاته حين تأتي إلى حُجرتي لأشرح لها النّصوص. تأتي فنتحدّث في أمور شتّى؛ وفي مرّات قليلة حين أذوب بها وجدًا أقرأ عليها شعرًا أكتبُه في غيابها. تفتّحت في قلبي أحاديثُ الغزل المكنون لم أقلها كما يجب وظللتُ أحلم أن يضمّنا عشٌّ واحد صغير. ظللتُ أحلمُ حتّى خطفها ابنُ عمها منّي وارتميتُ أنا في أحضان تلك المرأة الّتي صارت زوجتي كردّة فعل فوريّة لما حدث. نجاح جميلة وأنا ضعيف في حضرة الجميلات.

لم أقل لها «أحبّك» والحبُّ يركبُ الهواء المعطّر، يحملُه البابُ المغلق والحُجرة الضّيقة المعزولة عن الأنس والجن. إنّه الخجل والحياء الفطري ما نحرَ الحلمَ وساق النّدم مِن بَعْدُ أرتالًا بعدما سقطَت في وهدَةِ الزّواج.

لاحظت عامرة ارتباكي. قالت وهي تدورُعلى نفسها في حُجرة الاستقبال:

- أبي خرج لتوّه إلى السّوق.

ثمّ استدركت وهي توليني صفحةَ وجهها الشّاحب لغيرِ مرض:

- ظلَّ في انتظارك ساعاتِ الصّبح والظّهر.

واجهتني بنظرةِ عتاب أجهزَت على ما أعانيه مِن حرج:

توقّعت في كلّ دقيقة أن يئزّ الجرسُ أو يُقرعَ البابُ ولكنّك تأخّرت.

هربتُ من عينيها الصّاخبتين بالموج إلى أرجاء الحُجرة أتملّى من أثاثها الفاخر. لم أهضم بقائي معها في حُجرة واحدة. قلت وأنا أنهض متّجهًا إلى الباب:

- ما رأيكِ لو جلسنا في الحديقة؟

فتحت عينيها الواسعتين أصلًا ورفعت وجهَها في ضحكة صافية تموَّجَ لها عنقُها الطّويل:

- وجهنّم الّتي تغلي في الخارج؟

صوَّبَت إليّ نظرة حُبلى بالدّهشة مِن خواطرَ في رأسي تقرؤُها ولا تقرّني عليها. قالت بلهجة واثقة:

- لا مبرّر للحرج.

جلست قريبة منّي واضعةً ساقًا على ساق كأنّنا في صالة المطار وسطَ حشد هائل مِن النّاس. رغم طمأنينتها الزّائدة رغبتُ أن أدلّل على أنّي رجلٌ مهذب. فزعتُ إلى النّافذة كي أنادي السّائق، ولمّا تذكرت بأنّي لا أعرف اسمَه اندفعتُ من الباب إلى الخارج. وجدتُه يتسلّى بالاستماع إلى أغنية شعبيّة محليّة وهو الّذي أوهمني بأنّه سيغفو في هذا الحرّ الفظيع. أخذته من يدِه إلى الدّاخل. صافحَ عامرة بحرارة حسدتُه عليها. قدّمَ لها نفسه كأنّما ليست هذه المرّة الثّانية الّتي يراها فيها:

- جاسم. محسوبك جاسم.

ونظرَ إليّ مليًّا كأنّما أنا المقصود بهذا التّعارف ويدعوني إلى أن أحفرَ هذا الاسم في ذاكرتي كما يحفظ هو شوارع بغداد وبيوتها ومخابئ النّمل فيها. اتّخذ مكانَه قبالتي وبات يتصرّف بانطلاق كأنّما هو في بيته فزال التّوتر وشاع المرح. خرجت عامرة وعادت بعد قليل بطبقٍ من الصّيني الملوّن فيه بضع حبّات من التّمر. بدأت بي فأقسمتُ على أن يمدَّ جاسم يدَه أوّلًا ففعل نزولًا عند أيماني الغلاظ. ولما جاء دوري انحنت عامرة بشكل مسرحي:

- أهلا بك في بغداد.

قالتها بلهجةِ المضيفة في الطّائرة وهي ترحّب بي على الخطوط الجويّة العراقيّة، ومن ثمّ تسألني إن كنتُ أرغب في الشّاي بعد الوجبة الخفيفة أو القهوة أو عصير الفاكهة. أدهشني وأنا أتملّى من سمرتها المحبّبة اندحار حيائي الفطري وهناك امرأةٌ جميلةٌ تقوم على خدمتي وسطَ حشدٍ من المسافرين. لم أدرِ أنّنى أطلتُ إليها النّظر أكثر من اللّازم إلّا بعد أن نبّهتني عامرة بلكزة خفيفة من مرفقها قائلةً بسرعة لتصرفَ المضيفة المنتظرة:

- شايًا لاثنين.

ثمّ تناولت الكوبين مِن الفتاة بحركةٍ أقرب إلى الخطف، وقالت بعد تحوّل المضيفة إلى مقعد آخر:

- هذه مهنتهنّ. إنّهن يلاطفنَ الجميع.

داهمني لغيرتها إحساسٌ بالنّشوة والتّفوق. ارتشفتُ من الكوب رشفاتٍ صغيرة متلاحقة تكرّس شوقي لهذه الأمور الصّغيرة العابرة؛ أقنعتني أكثر بأنّني موجودٌ وسابحٌ في فضاء بلا حدود. أنا موجود وهذا يكفي. لأوّلِ مرّة أقفُ في منطقة الحياد حين تُطرحُ مسألةُ الموت. الحياةُ رائعة وقد فات سرحان صديقي منها الكثير. هناك هو في ظاهر الوحدات وأنا هنا في الفضاء الفسيح أنزعُ عنّي قشورَ

الحزن، وأغبط نفسي لكوني حيًّا أُرزق. العالم كلّه ملكي وإلى أن أهبط إلى الارض يكون هناك حديثٌ آخر.

خطف جاسم انتباه عامرة بأحاديثه عن هموم المهنة وعمّا يصادفه من مفارقات يوميّة. أبدت رغبتها في سماع المزيد فيما تلهّيتُ بالنّظر إلى حبّات التّمر المتوهّجة في الطّبق. لم أكد ألتهمُ الحبّة الأولى حتّى مرَقَ من الباب رجلٌ قصير القامة نحيفها يرزح تحتَ ثقل كبير من الصّحف والمجلّات والكتب. دلَّ دخولُه المفاجئ السّريع على أنّه صاحب البيت. أكّدت ذلك عامرة بأن هرعَت إلى تخليصه منها فكشفَت عن رأسِه المشتعل شيبًا شعرًا غزيرًا مصفّفًا بعناية اختزل من وجهه وطأة السّنين. حال وقع بصرُه على جاسم انبسطت أساريره. تصافح الرّجلان بشوق وشى أن كلًّا منهما يعرف الآخر من قبل. طوّح بابتسامته إليّ وسبق عامرة إلى القول:

- هو الأستاذ الّذي رافقَك ليلة أمس؟!

لم ينتظر منها تأكيدًا. شدّ على يدي يهزّها بحرارة وحماسة عكستا ما يتمتّع به من قوّة ونشاط؛ رغم تخطّيه السّتين كما أخبرتني عامرة من قبل. قال وهو يضمّ يدي بين يديه، يربتُ عليها بحنان:

- حدّثتني عامرة عن استشهاد صديقك.

صمت قليلًا كأنّما يبحث عن كلمات مناسبة، ثمّ جلس بجانبي. وضع يدَه على ركبتي:

- لا أعزّيك. فأنتم العرب الفلسطينيون لا تحبّون التّعزية في مسائل الاستشهاد.

وأردفَ بصوتٍ خفيض يحدّث نفسه:

- هذا لأنَّ الموتَ يطاردُكم أنّى ذهبتم، ولأنَّ القضيّة المقدّسة أكبر من الأشخاص.

ولرغبته في تغيير الحديث بعدما أطلقتُ زفرةَ أسى نضحتُ بها ما أعانيه من حزن. قال مشيرًا إلى حملِه العزيز:

- المطالعة شيءٌ رائع. لم أعرف كم كنتُ محرومًا إلّا بعد أن أقنعتني عامرة بدخول مدرسة ليليّة. المطالعة شيءٌ رائع حقًّا.

كشأن عامرة معي، رفع الكلفة بيننا مِن اللّحظة الأولى وصارَ يناديني باسمي المجرّد. حين يلفظ «متروك»

يضيفُ إلى حروفِه المعدودة نغمًا محبّبًا فلم يعد هذا الاسم يعني لي المقت والرّكود والحظ النّحس.

نشر أمامي الصّحف يطلُعني على أسمائها. أكّدتُ له أنّي أطّلعُ عليها أوّلًا بأوّل بحكم اشتغالي في الصّحافة. هزّ رأسّه متفهّمًا. لم أفطن إلى أنّني حرمتُه من متعةِ الشّرح إلّا بعد أن ألقى بها بعيدًا كهمٍّ باتَ يرزحُ تحته. جاء على ذكرِ ابنه الّذي استشهدَ على طريق القدس قبل أن يبلغَها. ذكرَه بشكل موجز مسرورًا بالاستشهاد، مغتاظًا أن يمتصَّ دمَه رملُ الطّريق قبل أن يبلغَ أسوار القدس. راح يحكي عن ذكرياته في حرب أيّار واصفًا مدنَ فلسطين وقراها بدقّة. أطلقَ زفرةً حرّى لما حدث متمنّيًا لو يتاح له من جديد الاشتراك في معركة حقيقيّة لتحريرها بعدما عزّ ذلك في أيّار.

أثار كلامه المركّز في نفسي الشّجن. تذكّرتُ سرحان بشكل فاجع. تذكّرت أبي الّذي لم يقف عند حدود الأماني إذ طلّقَ الانتظار واعيًا ورحلَ إلى حيث سرحان بعدما فقد الخيار بالبقاء، بعدما صنعَ لنفسه الخيارات. أيقظني عند الفجر. أوصاني بشجرة الزّنزلخت وبابني وزوجتي ومضى تاركًا سؤالا معلّقًا: لمَ تركنا على هذه الصّورة المفاجئة بعد مقتلِ صلاح وهدان على يد أبيه؟ ظلّ

سرحان يراوغُه رحمةً بسنّه ولكن حينَ حملَ الرّشاش عاد شابًّا يأكل مثلَهم الصّوان. إنّها الذّكريات الحلوة والمرّة تتفجّرُ بي أنّى ذهبت. تطلّ بوردِها وشوكِها المُدبّب، تغوصُ في محاجري وتهتف: «أينَ أنت؟ أينَ موقعك بالضّبط؟» ويقول سرحان مُشفقًا: «متروك يا صديقي! إلى متى ستظلّ غارقًا في الأحلام والوهم؟». أشعرُ مثله بضغط الأحلام عليّ. أكابر. أجدُ مخرجًا لنزفي الدّاخلي بالنّظر حولي حيث الجراد البشري يستبيح الشّوارع والأزقّة المعتمة، يركض لرزق يومه والأيّام الآتية بحرصِ مَن تؤرّقُه فكرةُ الجوع والعري؛ لا حرص مَن تسلّطت الكماليات عليه. لست وحدي من يحلم بمدينة فاضلة ويتشدّق بالحلم. ولكنّي الأكثرُ التصاقًا بالحلم، لا أفارقُه إلّا دامعَ العينين شوقًا وابتهالا. هناك زملاء الصّحافة والأدب. خاصة زملاء الأدب، خاصة «عيسى الضّامر» يركب سيّارتَه ويبذر أطنانًا من الكلام عن الكادحين والشّغيلة ويروّجُ لأفكارٍ برّاقة، يزفّها بالقول ويدفنها في قبر معتمٍ بالفعل. وإن لم يكن هناك صراعٌ ظاهر يخترعُه ليعملَ مشرطُه فيه بحقد دفين. ينثرُ أحشاءه ويمسح فمَه متلمّظًا. لقد أكلَ وأطعمني كلامًا وعلينا أن نشبعَ لحدّ التّخمة. عيسى مؤشّري على الوسط الأدبي أقرأُ

من خلاله منسوبَ مياهه الرّاكدة باستمرار.. أعرفُ الفرقَ بين القول والفعل. أعرف استحالةَ العيش بوجه واحد، ومع هذا أظلّ منتسبًا لهذا الوسط تهبُّ عليّ رياحُه المنتنة، كما ويظلّ عيسى الضّامر صديقي القريب البعيد.

استغلّني مِن لحظة التّعارف. نقلتُه من برزخ الشّعر الوجداني الرّخيص إلى شارع القصّة فنقل معه فتاتَه «هنادي» إلى دائرة الضّوء في الصّحيفة والأدب. يطبّل لها ويدفعها لأن تنالَ منّي منشارًا يأكل من جسدي رائحًا غاديًا. يضحك عيسى لغيظي وينشد مترنمًا: «أعلّمه الرّماية كلّ يوم. ...» فلا أدري مَن علّم الآخر ومن ذا الّذي تُوجّه إليه السّهام؟ لم يقل لي ذلك صراحةً، كما ورحلت هنادي إلى عريسها في بغداد قبل أن تضع على الحروف نقاطها.

هي هنا وأنا هنا ولكن بيننا مسافةٌ كالّتي بين الأرض والسّماء. هي مثلُ الضّامر، من ذاك الوسط الّذي يصيبُني بالغثيان. أظلّ أقلَّ أفراده ادّعاءً وأكثرَهم فقرًا وأقربَهم إلى وجع الذّاكرة، أفرشُها سندانًا تهوي عليه الغربة والضّياع بمطرقة ثقيلة، تصنعُ منها رقائقَ لها حدّ الموسى وصلابة الفولاذ. لأولئك طقسٌ خاص في الادّعاء والزّيف لا يُضاهى. أتحاشى ما أمكن الدّخول في عالمهم فاقع

الصّفرة فيزحفُ إليّ على لسـان عيسى الضّامر. يتوشّح بصداقتي وحبّ الخير لي. أزحف إليه بدوري بطيبةٍ أقرب إلى السّذاجة والبَله. ما ينقصُني أن أظلَّ محسوبًا مِن هذا الوسط. ما ينقصُني صديقٌ صدوقٌ يملأ فراغًا تركَه سرحان برحيلة المُتخم بالذّكريات.

تركني لعيسى الضّامر يستغلّني ويصلبُني على جذع الصّداقة. أنقله مِن برزخ الشّعر الرّخيص، يركبُني إلى الصّحيفة، يكسبُ ثقةَ رئيس التّحرير. يطبع كتابَه الأوّل على حسابه. يكتبُ بخطِ يدهِ إهداء خبيثًا «إلى من أحبها». تذهبُ هنادي إلى بغداد ظانّة أنّه يعنيها. أخطأت كالأخريات بالظّن. وظلّ عيسى الضّامر وحده يضحكُ على الذّقون.

(2)

سألني جاسم بعدما أوصلني باب الفندق من قصر الثّقافة على ضفاف دجلة حيثُ تُعقدُ الاجتماعات؛ إن كنتُ أرغب في جولة حرّة بعد الظّهر. قلت وأنا أحرّك صحيفةً حملتها خصّيصًا لبعثِ الحركة في الهواء الرّاكد الجاف:

ـ في مثل هذا الحرّ؟ مستحيل.

أبدى استعداده بأن ينقلَني إلى أيّ مكان أرغب فيه دون أن أغادرَ السّيارة المكيّفة. ولأنّ ثقتي بالنّاس مهزوزة أصلًا فقد فسّرتُ إخلاصه وتفانيه في خدمتي بالطّمع في البقشيش ليس إلّا. مددتُ نحوه ورقةً من فئة العشرة دنانير. حدّق إليها مشدوهًا قبل أن يحرّك رأسَه أسفًا ويتطامن به قائلًا بتأثّر بالغ:

- إن غيّرت رأيكَ لأمرٍ ما فأنا في البيت.

داس على البنزين فجأة فزعقت العجلاتُ تنهبُ الشّارعَ رغم أرتال السّيارات المتهادية على الجانبين بفعل الزّحام.

سقط في قلبي غمٌّ ثقيلٌ ترجمته قدماي ارتعاشًا وأنا أصعد الدّرجات القليلة. ها أنذا أدفع من أعصابي ضريبةَ سوء الفهم وسحب انطباعاتي الخاطئة على كلّ شيء؛ وكلّ المواقف دونما تبصّر أو تحليلٍ للموقف الرّاهن.

دفعت البابَ الزّجاجي المفضي إلى ردهة الاستقبال. كان مديرُ الفندق بنفسه في ركن الاستعلامات يقومُ على خدمة الزّبائن. انتظرت حتّى أعطى سيّدةً شقراء مفتاح غرفتها، ومن ثمّ وهو يفزعُ إلى الهاتفِ يُسكِتُ رنينَه بيدٍ ماهرة وابتسامة يوزّعها على الدّاخل والخارج. حتّى مَن يقف على الطّرف الثّاني مِن الخطّ لهُ في ابتسامته المتحفزّة نصيب.

حينَ لحظني وسّعَ مِن ابتسامته تلك ورفع يدَه محيّيًا قبل أن يعطيني مفتاح غرفتي. قبل أن أستدير إلى المصعد أشار لي أن أنتظر كمن تذكّر شيئًا. سحبَ من تحت دليلِ الهاتف ورقةً صغيرة التقطتها منه متهيبًا. تبادر إلى ذهني لأوّل وهلة أنّها برقيّة من رئيس التّحرير يأمرُني بالعودة فورًا. شعور دائمٌ بأنّ هناك ما يدمّرُ خططي كلّما نهضتُ من عثاري واعتقدتُ أنَّ أموري تسيرُ على ما يرام. لقد فعلَها رئيس التّحرير من قبل حين انتدبني مراسلًا للصّحيفة في بيروت؛ ثمّ استدعاني قبل المدّة المقرّرة حين

أسقطتُ الحروفَ الغليظةَ من نصائحِه السّوداء بأن ألتزم الحياد في الحرب الدّائرة هناك.

رغم انشغال مدير الفندق بالمكالمة وبالزّبائن المنتظرين مفاتيح غرفهم. لم أنظر إلى الورقة إلّا وباب المصعد يغلق عليّ. ستّة أرقام فقط مكتوبة بخطّ رديء من يدٍ مُتسرّعة. استحال عليّ فهم مدلولها من غير أن أعودَ أدراجي إلى المدير أسأله معرّضًا نفسي للسّخرية. تذكّرت الرّسالة الّتي كتبتُها لجليلة أنثرُ فيها أشواقي وأخبرُها بمكان إقامتي موحيًا لها أنّني بانتظارها كما وعدَت بالمجيء. أعطيتها للرّجل. نظر إليها مليًّا ثمّ هزّ رأسَه مبتسمًا بمعنى «اطمئن».

عدتُ إلى حُجرتي دون أن أسألَه عن مدلول هذه الأرقام. بعد تفكيرٍ طويلٍ اهتديت إلى الفهم الصّحيح. رفعتُ سماعة الهاتف وطلبتُ الرّقم من البَدّالة. انتظرت لحظاتٍ كأنّها الدّهر قبل أن يأتيني صوتٌ أنثوي لم أعرف صاحبتَه إلى أن قالت بعد مراوغة:

- أحقًّا لم تعرفني؟؟ أنا عامرة.

عجبتُ مرّة أخرى من غبائي، فأنا لا أعرف امرأةً أخرى في هذه المدينة سوى هنادي، وهذه لا تعلمُ حتّى بقدومي،

وإن علِمَت فآخرُ ما تفكّرُ به أن تتّصلَ بي. لقد احتقرتُها وأهملتها طويلًا. لم أطبّل لها كما فعل عيسى الضّامر فأطلقَت سهامَ حقدها علي. رمتني بالتّفاهة والغرور وبعقدٍ نفسيّة أقلّها الحقد والحسد. بلبلتي أثارَت عامرة. أتت ثمارها حين قالت متشكّكةً لاعتذاري بأنّي لم أعرف صوتها:

- هذا لأنّك توقعتَ واحدة أخرى!

حدستُ أنّها إنّما تقصدُ المشاركات في النّدوة. أكَّدَتْ ظنّي بسؤالها عن مدى فعاليّة وحضور العنصر النّسائي. أكّدتُ لها أنّ هناك منهن القليل. قالت بما طمأنني على أنّها لم تكتشف بعد ضعف حيلتي في دنيا النّساء:

- ولكن هذا لا يمنعُ أنَّ هناك مَن أثارت اهتمامك حتّى نسيتَ صوتي بهذه السّرعة؟!

نفيتُ ظنَّها بلهجةٍ تسمحُ للظّنون بأن تفقسَ وتبيض. وضعتُ السّماعة بعدما اتّفقنا على أن تأتي مع الغروبِ لتصحبَني إلى دجلة. تساءلتُ: «ما الّذي أريدُه من هذه الفتاة؟ وما الّذي تريدُه منّي؟». تعارفنا صدفةً في مطار عمّان، وزرتُها في بيتها مرّةً ظانًّا بأنّها ستنساني أو أنّ من المفترضِ أن تنساني. أمّا أن أنساها فهذا ما سيحدثُ

لدى مغادرتي بغداد بعد عشرة أيّام إن سارت الأمورُ كما هو مقرّر لها أن تسير.

لو أنّنا تعارفنا في ظروفٍ أخرى لشغَلَت اهتمامي حتمًا واستولَت على وحدتي، ولكنّ البقاء هنا مستحيلٌ وقصّة اشتياقها لأبناء أخيها في عمّان لن تطبعَ لقاءنا بعلاقةٍ دائمة تطرّزُ الحياةَ بألوان زاهية. هذا ما حدث لي حين صحبتُ زوجتي إلى عيادة «جليلة» فلم أنقطع عن التّفكير بها. اختلقتُ أعذارًا واهية كيما أزورها ثانيةً وثالثة إلى أن توطّدت العلاقةُ بيننا وصار فراقنا مستحيلًا. هذا ما كان يحدثُ حين تأتي نجاح إلى حُجرتي في بيت لحم. أشرحُ لها النّصوص. ننخرطُ في الشّرح والمحاورة في أمور شتّى، وحين تذهب تطويني أعاصيرُ مدمّرة تظلّ حبيسةَ في صدري إلى أن يجمعنا لقاءٌ جديد. أحببتُها ولم أستطع البوح إلّا من خلال قصائد حبٍّ ركيكة أكتبها وأقرؤها عليها على أنّها من عيونِ الشّعر.

ظللت أراوحُ مكاني إلى أن خطفَها ابنُ عمّها منّي وتزوّجتُ أنا بدوري مِن امرأةٍ ترى في الزّواج فرصةً لإنجاب أكبر عددٍ ممكنٍ من الأولاد، امرأة علّمتني في الشّهر الأوّل أنّ النّدم لا ينفع أو يفيد. نجاح كعامرة، كلاهما مهيّأة للحب. ضيّعتُ الأولى بغبائي وتردّدي،

والثّانية ستضيعُ حين أحملُ ذاتي المنهكة عائدًا بالخيبةِ والفشل.

لا أدري كيف واتتني الجرأةُ فمددتُ جسوري إلى جليلة تمشي عليها وتتبختر. اختلقتُ الأعذار للقائها. شجّعتني. أضافَت إلى جسوري جسورًا أخرى. كان لديها الاستعدادُ لأن تذيبَ رجالَ العالم في كأس واحدة، تشربُها صارخةً «هل مِن مزيد؟». عبرتُ إلى عالمِها المدهش يدفعُني زواجٌ فاشل ورسالةٌ حارّة كتبتُها لخولةَ على لسانِ ابن عمّها «عزيز حمّوري»؛ حينَ كان بائعَ كعك يُمطرُه عمّه وزوجته بالشّتائم والسّباب.

شربنا كؤوسَ الهوى مترعةً دون أن تقولَ لي «أحبّك» ودونَ أن أغرقها في أحاديث مكرّرة عن الحب. لم تقل ما الّذي أثارَها في، ولم أقل لها إنَّ دمامتَها الصّارخة جذَبت فراشَ اللّهفة؛ تهافتَ على نورها الباهت، ينتحرُ طائعًا ويدعوها إلى الانتحار... لعلّ لجليلة أسبابها، فما الّذي أثارَ عامرة في غياب مظهري ومخبري؟ أمطرتُها بالحزن في عمّان وانتظرَت معي حقيبتي الضّائعة قبل أن أحملَ قلبي المكسور مرّتين وأذهب معها برفقةِ المستقبلين إلى باب بيتها الأنيق. ما الّذي أثارها فيّ؟ حاولتُ أن أرفض الخروج فقالت مستغربة:

- غريبٌ أمرك! أي إنسانٍ آخر يستغلّ كلّ ثانية ما دامت إقامته لا تتجاوز عدد أصابع اليدين.

معذورة فأنا لم أحدّثها عن انطوائي وحبّي العزلة والانفراد بنفسي أطول فترةٍ ممكنة. لم أحدّثها عمّا يثيرُ مقتي لنفسي، فهل لم تلاحظ هذا حقًّا أم لاحظت ببصيرةٍ ثاقبة وأرجعتهُ إلى حزني على سرحان؟

وقفتُ أمام المرآة أنظرُ إلى أنفي، هذه الإبهام المتورّمة. أنظر إلى عيني الضّيّقتين، وإلى شعري المُشعث، إلى قامتي المشدودة كالوتر ولكنّها بلا انسجام. أنظرُ وأرثي لعامرة إن كانت حقًّا تراهنُ عليّ. أرثي لها قبل أن أرثي لنفسي. فإن هي تجاوزت المظهر إلى المخبر، الشّكل إلى المضمون، فهذا أيضا لا يُغري رجلًا بمصادقتي، فكيف لامرأة أن تجترحَ مثل هذا الخطأ الفظيع؟ طالمَا عجبتُ لسرحان كيف ظلَّ حريصًا على صداقتي وما بيننا حربٌ في المشارب والأهواء غير معلنة؟!

حينَ أعجبُ لانفضاضِ «آل حمّوري» وصلاح وهدان عنّي، أعجبُ لعجبي. أنقمُ على عيسى الضّامر إذ يجاهر بصداقتي ويناديني: «صديقي». رغم استعداده الفطري لأن يكونَ انتهازيًّا، وصوليًّا، منافقًا يراني أعزّ الأصدقاء،

وهذا ما يثير حفيظتي عليه أحيانًا وما يثيرُ نقمتي على نفسي أكثر الأحيان. بينه وبينَ سرحان بونٌ شاسع فكيف جمعتُ بين صداقةِ الاثنين؟ كيف استعرتُ لسانَ عيسى الضّامر الرّشيق لأحكي عن سرحان لعامرة؟ استعرتُ ولعَه بالثّرثرة وافتعال الجدل وشهوة الإقناع.

حدّثتُها لأكثرِ من ساعةٍ وهي مصغية. لم تقاطعني. أدركتُ أنّني صندوقٌ مقفلٌ يُسبّحُ بحمدِ اليدِ الّتي فتحتهُ للرّيح والشّمس. أغراني أنّها لا تعرف ماضيَّ ووهمي بأنّنا سنفترقُ حالَ أن تحطَّ الطّائرة في مطار بغداد. حدّثتُها معجبًا بقدرتي الفذّة على البوح وأنا الصّامت بطبعي، أزعم هروبًا من الحوار بأنّني أُلقي على سامعي ما قلَّ ودل. سلبتُ لبَّها فتوهَّمَت أنَّ سرحان قد لمسني بسحرِه الأخّاذ وصفاته الفذّة.

ذهبَت واهمةً بأنّني أكثرُ من صاحب الرّسن لذاك الجواد الّذي ربحَ السّباق. مارستُ هذا من قبل على جليلة، ولكنّ هذه دأبت على أن تأخذَ أكثر ممّا تعطي. دأبت على أن يكون اللّقاء الأوّل بين الذّكر والأنثى هو الأخير. تأخذُ بيده، تعلّمُه السّباحة في بحر الرّغبات المجنونة.

ارتديتُ متأفّفًا ملابسي الّتي جئتُ بها وقد بدأ العرقُ يعلنُ عن نفسِه برائحة لم يُجدِ معها أنّني على غيرِ العادة أستحمُّ ثلاثَ مرّات في اليوم؛ كما يفعلُ عزيزُ حمّوري بعدما بنى قصره الجديد. رمقتُ الهاتف شزْرًا. ليتهُ يئزّ الآن ويأتيني صوتُ موظف الاستعلامات في المطار يخبرني بأنّ حقيبتي وصلت. هممتُ أن أرفعَ السّماعة لهذا الغرض. عدلت معلّلًا نفسي بأنّهم لا بد وأن يتّصلوا بي، فقد أخذوا منّي عنواني وقالوا: «سنتّصل إذا ما جدَّ جديد». سيتّصلون وعليّ أن أنتظرَ وأشعلَ فتائلَ الصّبر والاحتمال، ولا أقوم ببادرةٍ من جانبي فالانتظارُ أسهل.

وقفتُ أمام المرآة ثانية في محاولة يائسة لتطويع شعري فظل يقاومُ المشطَ بضراوة وعناد. تركتُه على هيئته المهوشة وانطرحتُ على السّرير أزفرُ مغتاظًا بانتظار أن يئزّ الهاتف؛ وتعلن عامرة عن وصولها وانتظارها في ردهة الاستقبال. حاصرتني الوحدةُ والإحساس بالضّياع. تمنّيتُ لو أنّ عامرة الآن بجانبي تملأ فراغ السّرير. نقمتُ على إدارة الفندق بوضعها على باب المصعد يافطةً تمنعُ الصّعود على غير النّزلاء منعًا باتًا.

مكتوبة بخط أنيق وصياغتها مهذّبة ولكنّها صارمة لا شكّ كالمدير الّذي يعرف حتمًا كيف يوارى ابتسامته عند اللّزوم، أو يبقى عليها ويشحنُها بالسّخرية من عبث العابثين. لم أرها إلّا بعد أن نبّهني إليها جاسم حين جاء أوّل مرّة وطلبت إليه أن يصعد. شرحَ لي في السّيارة عمّا كانت تمثّلهُ الفنادق من عبث مرخّص ومجون. ختم كلامه بفرح أقرب إلى الشّماتة من لذّات ومتعٍ لم يكن لمثله فيها نصيب.

- كلّ هذا انتهى بقرارٍ واحد، قرار حازم وصحيح.

لو لم يكن هذا المنع قائمًا لما فكّرت ربّما في تجاوزِه وتخطّي عامرة الصّديقة إلى كونها أنثى يغنّي هديلها وحدتي الصّارمة. تبدّدَ هذا الصّمت الموحش إلّا مِن قرقرة جهاز التّكييف، يجعلُ للصّمت طعمًا حريفًا، ويبعثُ في الوحدة والسّكون حركةً سريّة نشطة تلتقي بدبيب خواطر متوثّبة، تدورُ مِن حول عامرة، تمسّها مسًّا خفيفًا وتمضي موغلةً في المسافات البعيدة إلى حيث جليلة الآن في عيادتها؛ تخفي زوابعها المدمّرة خلف نظّارتها البيضاء السّميكة وقناعٍ من الفظاظة المصطنع.

ربّما تصرخُ الآن بالمراجعاتِ أن لماذا لم يجئنَ إليها قبل أن يستفحلَ الأمر. تهدرُ كالعادة ثمّ تصمت قليلا، تهزُّ رأسها: «لا بأس، سأرى ما يمكنني عمله». حين اصطحبتُ زوجتي إليها للمرّة الأولى والأخيرة صبّت جام غضبها عليها. سمعتُ صوتَها يهدرُ بالسّباب عبرَ الباب المُغلق دون أن أسمعَ لزوجتي الثّرثارة صوتًا. خرجَت من عندها بوجهٍ ممتقع رهبةً وخزيًا، وحين حدّثَتني عن سبب غضبة الطّبيبة عجبتُ من سكوتها وهي الّتي تفتعل الشّجار معي افتعالا، ولكي أبرهنَ لها أنَّ الأمرَ أخطر ممّا تتصوّر، ولكي أثبتَ أنّها مع رجل تتّهمُه بالسّكوت حين يجب الكلام؛ انطلقت كالزّوبعة إلى مكتب الطّبيبة غير عابئ برجاء السّكرتيرة ألّا أفعلَ كما تجاهلتُ من الأساس اعتراضها على دخولي العيادة؛ لأنَّ مخدومتها متزمّتة ولا تحب رؤية الرّجال.

حال رأتني دهشت أن كيفَ أقتحمُ عليها مكتبَها وأنالُ من هيبتها البادية على ارتجاف السّكرتيرة الحسناء. عبّرت عن دهشتها بخطف النّظارة وبسحب المنديل على رأسها والتّأكد من أن أكمام ثوبها الطّويل تغطّي يديها حتّى الرّسغين. وحين اطمأنت إلى أنّ عينيّ لن تنهبا ولو بوصة واحدة من لحمها، هبّت واقفة تزعق:

- من سمحَ لك بـدخـول العيـادة؟ من الّذي أدخلك مكتبي؟

تبخّر غيظي واحترقَ ما رصصتُهُ من كلام محفوظ أهيله على رأسها، ومِن ثمّ آخذ زوجتي وأخرج بلا رجعة. صار همّي الوحيد أن تصمتَ ولو برهة تتيحُ البحث عن سرّ غضبتها، وعن قول السّكرتيرة لدى دخولي العيادة بأنّها لا تحب رؤية الرّجال. لعلَّ تحديقي إليها بصمت وثبات هو ما جعلها تصمتُ فجأة وتعدل عن دفعي باتّجاه الباب، واستدعاء السّكرتيرة لتعنيفها على تهاونها في تطبيق أوامرها الصّارمة.

كانت لحظة متوتّرةً من الصّمت، حافظتُ على هدوئي واحتفظَتْ هي بفمها مفتوحًا على أداة النّداء أو النّدبة. لحظة قصيرة كانت ولكنّها كافية لأن أزيحَ المنديلَ عن رأسها بلا لمس، وأن أجرّدها من ثوبها الطّويل الفضفاض لأغوصَ إلى ما خلفَ هذا الوجه المستطيل العاطل من الجمال. أغوصُ إلى أسبابٍ تدفعها إلى الصّراخ بلا وجه حق، وإلى كرهها الرّجال هذا الكره القريب مِن الحقد والغضب، لا من الرّجال كرجال بل من فِعالهم المشينة في حقّها.

إنّه حقدٌ وغضب، وفي النّهاية عتاب، عتابٌ لأنّهم لم يروا أنّها قبل كلّ شيء وبعده امرأة لها رغائبها وحقوقها عليهم في الإطراء والمجاملة. لم يزيلوا عن الفاكهة قشرتها الغليظة فيشمّوا أريجَها الأخّاذ؛ لذا استحقّوا الكرهَ والحقد، استحقوا الطّرد. رفّت أجفانها القاحلة من الرّموش. عادت إلى مكتبها وجلسَت واضعةً وجهها بين يديها قائلةً بهدوء ما استطاعت:

- ماذا تريد؟

لحظتُ رغم ضيقها استعدادها لفتح حوار لا ينتهي بيننا. وجهها الدّميمُ صار نورًا وهّاجًا وأنا الفراشة تهفو إليه بلا حذر. إن كانت الجميلاتُ يصبنني بالارتباك والحرج فهذه تدلّني على وجودي الثّري وحضوري المدهش، تسوقُ إليّ الثّقة بالنّفس أرتالًا. نسيتُ زوجتي تمامًا. نسيتُها بكامل وعيي. أسقطتُها مِن حسابي وتمنّيت لو أنّها تحترق حتّى إذا خرجتُ لا أجدُها بانتظاري لتسألَني ماذا فعلت وهل رددتُ لها اعتبارها من الطّبيبة الشّرسة.

أوحى إليّ انتظارها بأنّني رجلٌ مهم فتذكّرتُ بأنّي صحفيّ لي مكانتي الّتي لم يشعر بها أحدٌ غيري بعد. أخرجتُ بطاقتي. قدّمتها إليها. نظرَت مليًّا، اعتقدتُ بأنّها ستصرخُ

مبتهجةً «صحفي؟» وتدعوني مِن ثمّ إلى الجلوس، ولكنّها حين حوّلت عينيها إليّ ونطقت كان صوتُها مشحونًا بلا مبالاة قاتلة:

- صحفي؟ تشرّفنا. وماذا بعد؟

لم تقتل لهجتُها السّاخرة روح المغامرة لديّ، على العكس شحنتني بمزيدٍ من الثّبات واستمراء الكذب. قلتُ وأنا أبادر إلى الجلوس مرتفقًا سطحَ المكتب وسطَ دهشة لم تتّخذ لديها صفة الاعتراض أو الرّفض:

- أنوي إجراء حوار معك حول مشاكل الحمل والولادة.

اختلستُ النّظر إلى وجه محاير لم تخدشه بادرة ارتياح أو قبول.

شعرتُ لأوّل مرّة بصعوبة ما أنا مقبل عليه. تناولتُ علبة سجائري أكسبُ فرصةً للتّفكير. مددتُها نحوها. تراجعت إلى الوراء بحركةٍ مفاجئة حلّت عقدةَ منديلها وألقته على الكتفين. سارعَت إلى حبكه من جديدٍ تُخفي شعرًا غزاه الشّيب فاحتلّ نصفَه أو يزيد. دسستُ في فمي لفافةً أشعلتُها ورحتُ أنفثُ الدّخان مُتلذّذًا. قلتُ مواصلًا الكذب:

- لقد سمعتُ عن مهارتك المميّزة، لذا رغبت منذ زمن بإجراء حوار معك.

مرقَ على وجهها سنا ارتياح أخفته بسرعة، ولكنّها حين نطقَت كانت لهجتها تدفعُني إلى المزيد من الإطراء والمدح.

- ولِمَ أنا بالذّات والمدينة متخمةٌ بالأطبّاء والطّبيبات ممّن يدّعون بأنّهم الأكثر مهارة وكفاءة؟

أهو التّحدي أنّ دمامتَها السّبب، الدّمامة الّتي تثيرُني، تدفُعني إلى مواصلة الكذب والتّحديق مباشرة إلى عينيها دون أن يطرفَ لي جفن؟

- ليست العبرةُ في الكثرة.

- العبرةُ فيم إذن؟

هي اللّهجة المتشكّكة الدّافعةُ إلى مزيد من الإطراء والمدح. لم تُعِد المنديل الّذي انزاح عن خصلة سطا عليها الشّيب تمامًا.

- في اليد الماهرة، الأصابع الرّشيقة والعقل النّير.

بدَرَتْ منها التفاتة مفاجئة إلى يديها. انحسرَت عنها الأكمام فأعلنت بشرتُها المحروقة عن ولعِها برؤية شمس الظّهيرة. ضمّت يديها إلى صدرها مُسبلةً أجفانها رقّةً ووداعة أنكرَتها على نفسها قبل لحظات.

- تحت أمرك.

جاءت لحظةُ الحسم بأسرع ممّا تصوّرت. ولمّا لم أكن مستعدًّا لحوار علميّ جاد قلت وأنا أنهضُ وبالكاد أضبطُ مفاصلي من الارتعاش؛ رغبةً في أن ألثمَ وجههَا وأطوّق صدرَها الّذي ربّما لم تمسسه يدٌ من قبل.

- اليوم للتّعارف وأخذ الموافقة وفي الغد الحوار.

هزّت رأسَها متفهّمة وإن لم يعجبها التّأجيل. همّت بالنّهوض لتوديعي حتّى الباب. شددتُ على يدِها بحرارة فسّرتها قطعًا خلاف ما قصدتُ ألّا ترى زوجتي فتكتشف اللّعبة قبل أن تبدأ فصولها. تركتُها وعلى ثغرها ابتسامة لم تطلقها كما يجب، ولكنّها لم تنسَ تذكيري بمواعيد فتح العيادة، المواعيد الّتي إن تقيّدتُ بها سأجدها في انتظاري لأجري معها الحوار اللّازم.

انزويتُ يومين كاملين أقرأ رحلةَ الجنين بدءًا من عمليّة الإخصاب وحتّى انزلاقه طفلًا؛ وإطلاقه الصّرخة الأولى احتجاجًا على مصيره الغامض كما يفسّرها المتشائمون، أو بفعل عمليّة الشّهيقِ كما تقول الكتب. أقرأُ وأرتّبُ في ذهني أسئلةً أقرب إلى المناورة والمماحكة منها إلى تحقيقٍ علميّ بحت. وحينَ اطمأننتُ إلى أنّه بات لديَّ حصيلة من المعلومات تظهرُني أمام جليلة بمظهر المثقّف العارف؛ ذهبتُ إلى عيادتها قبل الموعد بنصف ساعة كيما يمكنُني السّطو على أطول مدّة ممكنة من وقتها.

وجدت السّكرتيرةَ ترتّب الملفّات لمن أتينَ مبكّرات خلاصًا مِن الزّحام. بعكس ما توقّعت استقبلتني بترحابٍ وقادتني رأسًا إلى مكتب جليلة؛ مؤكّدةً بين الفينة والفينة بأنّها لن تتأخر. قالت بما يشبه التّذمّر:

- حين أظنّها تأخّرت أكتشفُ أنَّ الخللَ في ساعتي أنا.

أبدت قلقها واستياءها مِن تغيّبي يومين كاملين. حدستُ أنّها إنّما تترجمُ حالةً لمستها من جليلة. أكّدت لي ذلك بقولها مستغربة أنّ مخدومتَها كشفت غير متحفّظة عن استيائها، وأنّها سألت عنّي أكثر من مرّة، وكلّما نفت

حضوري أو اتّصالي بالهاتف صبّت عليها جامَ غضبها زيادةً عن حصّتها الدّائمة منه.

تذمّرتْ ممّا تلقاهُ من سوء معاملة، ولكنّه تذمّر لم يصل بها إلى حدود الحقد أو الغضب؛ وكأنّما تعرف يقينًا أنّ جمالَها وفتنتها هما السّبب فيما تلقاه من ذلّة وهوان. ربّما تعرف هذا فلا تسخط أو تحقد ولكنّها لا تعرفُ بالتّأكيد أنّ جليلةَ حين اختارتها هي بالذّات لتعمل معها فإنّما ليظلَّ الشّباب والجمال الغائبان عنها ماثلينِ أمامها؛ وتحت إمرتها تستطيعُ الانتقام منهما وقت تشاء.

لمستُ هذا مِن ذعرِ الفتاة حين جئتُ العيادة أوّلَ مرّة، لمستهُ حين كانت جليلة تناديها بين الفينة والفينة لتزعقَ فيها؛ فيسمع السّائرون في الشّارع أسفلَ العيادة ويعرفوا أنَّ هناك امرأة ذات سطوة وجبروت... كدت أخفّفُ عنها بترجمة خواطري هذه لولا مغبّة تفسيرها كلامي على أنّه إطراء لفتنتِها بقصد خبيث. إنّها جميلة، وأنا ضعيفٌ أمام الجميلات، ضعيفٌ لدرجة الجبن والخور سيما حين يسوقُني التّفكير بعيدًا عن حدود البراءة إلى منطقة الخطر المتربّص في دمي، وصلَ درجةَ الغليان منذ أن هبّت جليلة واقفةً تزعق بي أن كيف دخلت.

أظلُّ متماسكًا في العادة إلى أن تختفي المرأة وتحلّ محلّها الأنثى الرّاغبة المرغوبة، عندها أضطربُ وأرتبك، لا يخرج منّي الكلام إلّا بشق النّفس. عندها أختار الهرب طريقًا للسلامة والنّجاة، أمارس احتراقي الدّاخلي على مهل. لولا أريحيّة الفتاة وانشغالها بنهشِ مخدومتها بسذاجة ظاهرة، ما استطعتُ التّحديق إليها تحديقي إلى دمية تتحرّك آليًّا حركاتٍ محسوبة منتظمة.

نجاحُ لم تبلغ نصفَ هذا الجمال ومع هذا ظللتُ سنةً كاملة أدرّبُ نفسي على النّظر إليها مدّة تكفي لأن أحفرَ ملامحها في رأسي ولا أنساها. ظللتُ أتمرّن على كلام الحب أبدؤها به حين تهفو إلى حُجرتي. لم أفلح وظللتُ أحلم باحتوائها بين ذراعي حتّى خطفَها ابنُ عمها، كانت جاهزة لكلمة السّر كي تفتح لي بوّابةَ قلبها، ولكنّي تراخيتُ جبنًا ومرضًا بالحياء.

ضاعت فالتهمها ابنُ عمها ثمّرةً شهيّةً تموتُ بالرّغبة فيمن يقطفُها. التقيتُها بعد النّزوح في عمّان. كانت تحملُ ابنَها الصّغير والآخر يتعلّق بذيل فستانها يقلّب عينيه في الواجهات الزّجاجيّة. ألقَت يدها في يدي ببرود. كان أوّل سؤال لها: «أما زلتَ تكتبُ الشّعر؟» كشفَت لأوّل مرّة عن ذكائها وعن غبائي؛ إذ ظللتُ موقنًا أنّني أخدعُها بأشعار

أكتبُها وأقرؤُها على أنّها من عيون الشّعر. في صوتها عتابٌ مرّ ولكن غاب منه الأسف إذ لم تخسر شيئًا ذا قيمة. اشتعل وجهي خجلًا وصار همّي أن أتركها سريعًا فلم تشجّعني بدورها على البقاء فترةً أخرى. حين أستعيد شريط الذّكريات أتميّز من فرط الغيظ لجهالتي وجبني.

أعلنت جليلة عن مقدمها بالزّعيق:

- ازدهار! أينَ أنتِ أيّتها الملعونة الفاجرة؟

ساقت أمامها اللّعنات حتّى دخلت حُجرةَ المكتب ورأتني. وقفت فاغرة الفم على لعنة لم تكتمل. وثبتُ نحوها فاستقبَلت يدي الممدودة ببرود فيما كانت تسدّدُ نظرةً حارقة إلى ازدهار الّتي لدهشتي ظلّت واقفة تصطرعُ على وجهها رغبةٌ في التّحدي والهروب. انتهرتها جليلة برفق ما استطاعت:

- تتركين المراجعات في الخارج لتزعجي الأستاذ بثرثرتك الفارغة؟

انسحبت على غير عادتها في المشي السّريع الجاد متهادية. تسمّرت عينا جليلة على عجيزتها الممتلئة. زفرَت بغيظ فسّرتهُ بالقول مِن بين أسنانها النّافرة:

- تافهة، مغرورة.

تركتني واقفًا واتّجهت إلى مكتبها ترتّب أغراضَه المرتّبة أصلًا. قالت متحاشية النّظر إليّ:

- تتغيّبُ يومين كاملين ولا تكلّف نفسك حتّى بالاعتذار؟!

خطوتُ إلى الأمام خطوةً أوصلتني أمامها مباشرة:

- ها أنذا أعتذر.

وكأنّما ندمت على لهفتها وتسرّعها. خطفت إليّ نظرةً عجلى ثمّ قالت بسرعة بما يعني أنّها لا تودّ الوقوف طويلًا عند هذه الملاحظة العابرة:

- لا بأس، لا بأس.

أشارت عليّ بالجلوس فيما جلسَت هي قائلةً بذات اللّهجة المتسرّعة:

- هه! هل لديكَ أسئلة محدّدة؟

لم ترني وأنا أهزّ رأسي بمعنى نعم. كانت مشغولةً بِحَبْكِ المنديل على رأسها، وتفقّد فتحة الصّدر والأكمام للتّأكّد من أنْ ليس هناك ولو بوصة واحدة تظهرُ من لحمها

الشّبيه بالبنّ المحروق نصفَ حرق. ولكي أظهر لها أنّني مثقّف وسريعُ البديهة قلت:

- ما رأيكِ في حديثٍ مفتوح؟

أردفتُ بعدما تلقّيت نظرة متأنّية من عينيها البارزتين بغير جحوظ تدرسُني عن كثب:

- قد تأتي الأسئلةُ وحدها من خلال الحديث.

ألقت عليّ نظرةً أخرى مباشرة، أحسّستُ بها تغوصُ في لحمي وتمسّ العظم مسّا خفيفًا وتبقى هناك؛ نظرةً مجسّمة ولها أبعاد مذهلة. ألقيتُ القبضَ عليها. أسرتُها مدّة تكفي لأن تنسى الغرض الظّاهر لزيارتي، وتراني رجلًا، وترى ذاتَها رغم دمامتها امرأةً كاملة الأنوثة.

ما كان تخلّي خطيبها عنها لامرأةٍ أخرى لعيبٍ فيها بقدرِ ما هو خللٌ في موازينه. أخبرتني ازدهار عن أزمةِ مخدومتها منذ ثلاثة أعوام قضتها مغلقةً أبواب ذاتها يحزّها منشارُ الحقد على الرّجال، هذا الحقد العتاب. أيقنتُ لو أنّي مددتُ يدي لتنام على يدها فلن تسحبها أو تعترض. تحدّقُ إليّ وفي عينيها تلك الدّهشة من إصدار حكمها القاسي على الرّجال دونما تمييز بينهم.

جرى الحديث بيننا رخيًّا ليّنًا أثبتُّ خلالَه أنّ اعتزالي لمدّة يومين لم يكن عبثًا. سمحَت لنفسها بضحكة طويلة دحرَت بقايا الحذر لديّ، ضحكة طليقة رغم أنّها خنقتها بإخفاء أسنانها النّافرة ولثتها الزّاحفة بظاهر كفّها. قالت مبدية إعجابها بثقافتي وسعةِ اطّلاعي:

- يُخيّل إليّ أنّني أنا مَن تجري الحوارَ معك وليس العكس!

ثمّ أبدت استغرابها مِن أنّي لا أكتبُ ما قالته حول متاعب المهنة وهمومها، ولمّا قلتُ لها أنَّ حروفها محفورة في ذاكرتي هزّت رأسها مؤمنة. ولكي أضمن عودتي مرّة أخرى قطعتُ الحوار عند نقطةٍ حاسمة متعلّلًا بضيق وقتها؛ وبأنّي لم أحضر آلة تصويرٍ لتزيّنَ صورتُها التّحقيقَ المدهش.

رحّبت بعودتي من غير تحفّظ. رافقتني إلى الباب الخارجي وهي توصيني بضرورة المجيء في الوقت المحدّد لفتح العيادة كيلا أعرّض نفسي للإزعاج من قبل السّكرتيرة الثّرثارة. استدرتُ إلى الفتاة. كانت تختلسُ إلينا النّظر وهي ترتّبُ الملفّات وتتحدّث عن حلاوة الصّبر للنّساء اللّاتي فقدن صبرَهن ويرمقنني بشزر.

نفيتُ صفةَ الثّرثرة عنها وإلّا لأخبرت جليلة بأنّي متزوّج، وعندها لن يكون لمقدمي معنى ولا لنظرتها أبعادٌ مذهلةٌ تخترقُ اللّحم إلى العظم، تمسّه مسًّا خفيفًا وتبقى هناك حبات لؤلؤ متوهّجة.

عدتُ في اليوم التّالي قبل الموعد الّذي ارتأته جليلة مناسبًا لخلاصي من ازدهار. روّضتُ نفسي طيلةَ الوقت على أن أنقلَ الفتاة خارج حدود الظّرف الرّاهن بما يتطلّبهُ من أحاديث حرّة بريئة إلى دائرة المرأة الجميلة المشتهاة. أبعدتُها عن خيالي الفسيحِ وإلا لتلقّفَتني جليلة مضطربًا مرتعشًا تهتزّ مفاصلي السّائبة بريحِ الشّهوات... تلهّيتُ باستثارةِ شهيتها للحديث عن مخدومتها. تستولدُ من أسئلتي المثارة أسئلةً أخرى تتولّى الإجابة عنها باستفاضة واستمتاع مَن تزيل الوحل عن حذائها الأنيق.

أعادت عليّ حديثًا سبق عن فرارِ خطيب جليلة وأكّدت ظنوني بأنّ مخدومتها تحقد عليها بسبب جمالها الّذي يستلّ عيون الرّجال في الشّارع، بينما جليلة ما زالت تحيا على الهامش. قالت وهي تمطّ شفتيها المكتنزتين:

- والرّجل الوحيد الّذي عرفته هربَ بريشه في الوقت المناسب.

ظللتُ أحدّق إليها أقرأ مِن آيات جمالها. أحدّدُ سنّها بالضّبط. ولمّا وجَدتني أتفرّسُ فيها بانبهار لمعت عيناها نشوةً وسألتني دون مواربة عمّا أفكّرُ فيه، فقلتُ دون أن يطرفَ لي جفن:

- أتساءلُ كيفَ يتأتّى كلّ هذا الجمال لامرأة واحدة وهو يكفي لعشر نساء؟!

توقّعتُ أن يحمرّ وجهُها خجلًا وتسرعُ إلى الهرب مِن أمامي بيد أنّها مسحَت أنفَها بحركة عفويّة، ولم يبدُ عليها أنّني أتيتُ بجديد. أردفتُ ساحبًا ذيلَ الفشل برغبتي في إرباكها:

- الحقّ أنّي كنتُ أفكّر في كم تبلغينَ من العمر، سبعةَ عشر؟ ثمانية عشر؟

ضحكَت بانتشاء عن أسنان مرصوصة ناصعة. غدا وجهها أكثر حمرةً وفتنةً. قالت مفاخرة:

- بل في الثّانية والعشرين.

ثمّ رفعَت حاجبيها المُزجّجَين قائلةً بدلالِ مَن تعرف قبل غيرها أنّها جميلة:

ـ هل أبدو حقًّا أصغرَ مِن سنّـي؟

ولمّا أكّدتُ لها ذلك مطّت شفتيها قائلةً بلا مبالاة:

ـ أسمعُ مِن هذا الكثير.

وتركَت خصلةً من شعرها الضّارب إلى الصّفرة تغفو على جبينها الأبيض؛ موقنةً بأنّها إنّما تزيدُها جمالا كيقينها مِن أنَّ إهمالها الاعتناء بشعرها ولباسها لن ينتقصَ بحال من هذا الجمال. انشغلتُ بدراسة جمال فطريّ لو تعهَدَتهُ يدٌ خبيرة كما يجب لما ارتضى بأقلّ مِن عرشٍ وتاج وصولجان.

قالت وهي تقفزُ إلى الباب المفتوح لتتركه مواربًا:

ـ وكم في ظنّك تبلغُ الطّبيبة الشّرسة الدّميمة من العمر؟

لم أرتح للهجتها المتعالية ولا لما فعلته بالباب. حفَرت في صدري أخدودًا عميقًا لن يندمل. جرّدَتني من ثيابي أمام حشد هائل من النّاس. لم أدرِ بالضّبط هل هي جليلة مَن استشرَت في دمي لدرجة أنّي أغضبُ لها؟ أم أنّ هذه اللّهجة المتعالية المستهترة هي الّتي مسّتني في الصّميم؛ وأظهرتني نسرًا عجوزًا يسعى إلى جيفة منتنة بعدما تركتها الجوارح الفتيّة؟ لم تلحظ تبرّمي وضيقي.

أوضحَت وهي تتّخذُ جلستها قبالتي تمامًا واضعة ساقًا على ساق:

ـ لقد تخطّت الثّلاثين. وعيني قد تخطت الثّلاثين.

نطقت عيناها بالرّغبة في لفافةٍ كتلك الّتي دسستُها في فمي أنفث بها غيظي. مددتُ نحوها العلبة. تناولَت واحدة أخذَت تقلّبُها بين أصابعها الرّشيقة قبل أن يتوهّج نورُ الولاعة على بشرةٍ في لون البرونز. سعلَت من النّفس الأول حتّى دمعت عيناها، ولكنّها استمرت بعنادِ طفلة تكتشفُ أمومتَها المبكّرة في دمية عروس.

مدّت جذعَها نحوي وتساءلت كم أبلغ من العمر. سرّت عنّي لهجتُها الطّفوليّة بقدرِ ما فتحَت عيني على حقيقة أنّ هذه الفتاة من السّذاجة؛ بحيث لم تدرك الغرض الحقيقي مِن تردّدي على العيادة. قلت وقد بدأت رغبتي في الحديث تتخذ شكل المماحكة الصّرفة:

ـ احزري.

انحنت بجذعها إلى الأمام أكثر فأفسحت فتحةُ صدرها الطّريق لمنابت نهديها أن تظهرَ كرتينِ من العاج تنقصُهما

الاستدارة ليكتملَ السّحر والدّوار. ارتفقَت ركبتيها تنقرُ بسبّابتها على ثناياها العلويّة.

- ثلاثون.

لم يصدمني قولُها، على العكس فقد أضافت خمس سنين في الوقت الّذي يضيفُ كلّ من يراني عشرًا. تخدعُه عبوسةٌ شبه دائمة على الجبين وغضونٌ نبتت على الوجه قبل الأوان.

أقف في العادة قليلًا عند مسألة الزّمن وما فات من عمر ولكنّي لحظتها حرنتُ عند هذه المسالة كبغل. أقلّبها في خاطري ظهرًا لبطن وأسال عن جدوى السّنين تمرُّ بوجهٍ واحد بغيض دون أن تكون فيها نقطةٌ واحدة مضيئة؛ يهفو إليها الفراش الملوّن أو حتّى الذّباب الأسود القبيح. أتساءلُ عن عمرٍ أتذكّره في خمسِ دقائقَ مركّزة تنزُّ من جرحٍ مفتوح، والعمر الحقيقيّ غائبٌ في رحم الغيب.

لقد عاش آل حموري حياتهم وأحصوا عمرهم بالثّواني. كذا فعلَ صلاح وهدان قبلَ أن يقتلَه أبوه. حتّى عيسى الضّامر يعيشُ حياته. يقول إنّ الحياة جميلة وسرّ التّعاسة كامن في تقلّب الأهواء وتفشّي الطّمع. لم يحسب عمره مرّة إلّا وأتى على ذكر مَن عرفَهن مِن نساء غير هنادي،

ويتبجّح كلّما قال «المرأة هي الأصل، المرأة هي الحياة»، ويخلطُ بين عالم المرأة الرّائع وبين الحاجة إلى العدالة الاجتماعيّة كي ينتصرَ الحبّ ويمتدَّ العمر إلى ما بعد الموت والقبر.

تنهّدتُ حسرةً وكلّ ما أراه على قبضة يدي سراب يزيدُ الظّمأ. لم تلاحظ ازدهار احتراقي، كانت تعبثُ بآلة التّصوير وتسألُ باندهاش حقيقيٍّ كيف تعمل. لم يخلّصني من الشّرح إلّا صوتُ جليلة في الرّدهة تعلن عن مقدمها بشتائمَ تصبّها على سكرتيرتها المهملة. دفعت إليّ الآلة ملقيةً عليّ نظرةَ لوم تحمّلني وزرَ نسيانها الوقت.

لم تكن نظرات جليلة خالية مِن الاتّهام وهي تنظرُ إليّ مرّة وإلى الباب الّذي كان مواربًا مرّات. تنظرُ ويتلوّن وجهُها باستياء لم تجاهر به. هزّت رأسها أخيرًا وهي تمضي إلى مكتبها:

- هل عادت تلك الفتاة إلى إزعاجك بثرثرتها الفارغة؟

أطفاتُ حماسة ظنّها بالنّفي. جابهتني بنظرةٍ رادعة فسارعتُ إلى القول:

- إنّها في غاية الإزعاج.

انبسطت أساريرُها وارتاحت في جلستها مبديةً استعدادها لبدء الحوار إن شئت أو إلغاء الفكرة من أساسِها إن كان عندي البديل الأفضل. وشَت بهذا نظراتُها المكشوفة وكحلٌ خضَّبَ الجفون مِن يدٍ غير مدرّبة، ولمّةٌ اختفى منها البياض لتتوهّجَ بصبغةٍ سوداء بلون الكحل؛ كلّما اهتزَّ المنديلُ عن رأسها مُتراجعًا إلى الخلف فتعطيه عن وعيٍ حريّة الحركة، حريّة طالما نادى بها فزجرته.

غدت نظراتُها أكثرَ جرأة واقتدارًا على أن تنقلَها من امرأة محصّنة غافلة عن نهب اللّذات إلى أنثى تنتظرُ اليد الخبيرة كي تنزعَ السّدّادة الفولاذيّة عن زجاجة مترعة بالشّهوات لتنفجرَ مدمّرَةً كلّ شيء. هيئتُها المتحفّزة للّحاق بي أنّى ذهبت أقنعتني بالمراوغة في تكملة الحديث. استعذبتُ المراوغة فاستلقى الكلام جثّثًا بلا حراك. قلت وأنا أشرع آلة التّصوير:

- هيّا لنبدأ العمل.

حدّقت إليّ بدهشة أقرب إلى البله، فأوضحتُ بيدي كأنّما أخاطبُ امرأةً بكماء:

- صورٌ. صورٌ. سألتقط لك بعض الصّور.

نامت في عينيها نظرةٌ محايدة ما لبثت أن ومضَت بالرّضى.

قالت وهي تقفزُ إلى الباب:

ـ انتظر.

انحنَت في فراغ الباب مدّة تكفي لأن تُلقي على ازدهار أوامرَها الصّارمة بعدم إزعاجها لأيّ سببٍ كان. أغلقَت الباب جيّدًا وحين استدارت إليّ ركضَت وعلى وجهها غبطةٌ وتحدٍّ لأنّها أغلقته؛ في حين تركته ازدهار مواربًا. وشت حركاتُها مِن بعد بالرّضى والزّهو، فقد أتت أمرًا ظلَّ في عداد المستحيلات. لم أعد بحاجةٍ لمن يُخبرني بأنّها تحقدُ على ازدهار وتغارُ منها، وأنّها باتت تنظر إليّ كغنيمة دسمة لن يشاركها فيها أحد. أبهجتني خواطري. تهيّأتُ لأن أثبَ خطوةً واسعة لا سبيل بعدها إلى التّراجع والنّدم. وقفتُها في وسط الحُجرة، سكونُها النّشط ونظراتُها المُشبعةُ بالفضول كلّها استصرختني لا أن أبدأ بالتقاط الصّور، بل بما داعبَ خيالي مِن رغباتٍ منذ لقائي الأوّل بها.

امتدَّ خطٌّ مستقيم مشتعلٌ بين عيني وعينيها، بين عيني وصدرها المضطرب بفعل تنفّس غير منتظم. شعرتُ

بجريانِ دمائها في شرايين ضاقت بها لسرعتها وتدفّقها الغزير. تقدّمتُ منها بخطى ثابتة، بوعي كامل لما أفعله ولما قرّرت فعله. حملتُ عليها بنظراتٍ ثابتة أقتحم بها قشرتَها اليابسة إلى عالم يضجّ بالرّغبات. أمسكتُ بكتفيها. ارتعشَ لحمُها البارد تحت أصابعي واهتز. اقتنعتُ أكثر بإمكانيّة السّفر في عالمها المدهش دونما عراقيل.

دفعتُها فتدافعَت تغريني باختصار المسافة إلى الزّاوية القريبة من الباب المُغلق. أجلستُها على كنبة صغيرة هناك. جلست مشلولةَ الإرادة تتسلّقُني عيناها من منتصف الحزام الجلدي إلى الشّفتين والعينين ثمّ إلى الشّفتين تستقرّان هناك، تحفرانِ لهما حفرة تسكبُ فيها الرّغبات قطرةً، قطرة. تركتُها ساكنةً تنتظرُ الخطوة التّالية بصبر فارغ. تراجعتُ إلى الوراء خطوتين. رفعتُ آلة التّصوير ثمّ أطلقتُها فارتطمت بصدري تتأرجحُ تسرقُ من جليلة بقايا الوعي. اقتربتُ منها ثانية أتسمّعُ إلى زفيرها عاليًا غيرَ منتظم.

مددتُ يدي برفقٍ إلى منديلها ألتقطتُه بحركة محسوبة حتّى إذا اعترضت جاء اعتراضها بعدما فات الأوان. اعتراضٌ فاتر كاد يطيحُ بخططي المتأنّية كيما أحفرُ هذه اللّحظات في رأسي إلى الأبد. تحررَت غدائرُ شعرها المصبوغ

وسالت على الكتفين ظلالا سوداء لشمس غاربة. ألقيتُ المنديلَ على حجرها غصنًا ميتًا. استنامت لعبث أصابعي في شعرها أوزّعُه خصلاتٍ صغيرة ثمّ ألمّها وأبعثرُها من جديد. تغمضُ عينيها وتفتحهما لحركة أصابعي في هبوطها وارتفاعها.

باتت منوّمة تصدرُ آهاتٍ مكتومة تنذرُ بالصّراخ. انزلقت أصابعي إلى ذقنها المُدبّبة. رفعتُها فصار وجهُها هدفًا لأنفاسي الملتهبة كما صار وجهي هدفًا لمثلِ هذه الأنفاس. انزلقَت يدي إلى أسفل، إلى ثوبها أفكّ أزراره. أمسكت بيدي. ضغطَت عليها بقوّة. خرج صوتُها متهدجًا:

- ماذا تفعل؟

ورمقَت الباب بنظرة جريح خشية أن يفتحَ في أيّ لحظة بيد ازدهار. لم يعد للكلام معنى لذا قلتُ خلافًا للقصد:

- إنّني أصوّرك.

أشرتُ لها بحركةٍ متبرّمة أن تخلعَ ثوبها. صوّبت إليّ نظرة حبلى بالدّهشة. ليست دهشةَ الرّفض والاعتراض بقدر ما هي انزعاجٌ من وجودنا في العيادة. ترجمَت خواطرَها هذه بالتفاتة مفاجئة نحو الباب، ترمقُه شزرًا

وحين عادت بوجهٍ مرتعشٍ انقضضتُ على فمها المتأهّب سلفًا لقبلةٍ تأخّرت؛ فأزهر فرعُها بزهرةٍ مشتعلة جائعة.

سكنت ذراعاها للحظةٍ ثمّ أنشبتا في عنقي بضراوة. ضايقتني في البدء حتّى إذا استقمتُ واقفًا وجدتُها تنهض معي تسحقُ شفتيها على شفتي وتضغط صدري بصدر صلبٍ لم تعبث به يدٌ أو فم من قبل. إنّه الجوع. إنّه الانتقام مِن زمنٍ فرضَ عليها الحرمان فرضًا. وأنا لدهشتي أراقبُها بوعيٍ ومتعةِ مَن ظفرَ أخيرًا بمبتغاه، يشدّني الظّفر عن المبتغى ذاته.

لم أرِدْ أن تشبعَ أو أشبعَ من وجبة واحدة. تحرّرتُ منها برفق، وقفَت تنظرُ إليّ لاهثة، ولمّا أدركت ما حدثَ طأطأت برأسها لا خجلًا واستنكارًا لما حدث؛ بل لإعطاء نفسها مهلة للتّفكير إن كان هذا قد حدث فعلا وكيف حدث! وحين نظرتْ إليّ أخيرًا فارق عينيها ذاك الصّلفُ والمكابرة. ناب عنهما خضوع الأنثى. ترى كمالها بالالتحام حتّى التّلاشي. قالت وهي تولِيني صفحة وجهها:

- ماذا تريد بعد؟

- أن أصوّرك.

قلتها بلهجة تلخّصُ بدايةَ ما حدث ونهايته. رشقتني بنظرةٍ جانبيّة مغرية وقالت بدلال:

- أكثر من هذا؟

ومضَت بما يشبه الوثب إلى الكنبة الصّغيرة، حطّت عليها عصفورًا استقبلَ لتوِّه الفضاءَ بعد رحلةٍ طويلةٍ مِن الحُلم بالطّيران. ألقَت برأسها إلى الوراء فانتثرَ شعرُها غابةً كثيفةً مجدولةَ الفروع. قلتُ بلا مواربة:

- اخلعي ثوبَك.

أردفتُ بعدما تلقّيتُ منها نظرةً متوعّدة.

- لغاية التّصوير ليس إلّا.

ضربتني على يدي ودفعتني بعيدًا:

- صوّرني هكذا ولا تتخابث.

عزفَت لهجتُها المريبةُ على وترٍ سرّيٍّ مشدودٍ عالي الذّبذبة. انبعثَت في الجو رائحةٌ حريفة تحملُ المشاعرَ الوثّابة بعيدًا ليحلّ مكانها نوعٌ من الخَدر ونشوةُ الفوز باقتحامِ حصون هذه المرأة العنيدة المشاكسة؛ وهدمِ حواجز واهية تلقيها تباعًا في وجه رغبتي بأن تخلعَ ثوبها

الفضفاض الطّويل. صار همّي أن تخلَعَه. رفضُها النّاعم الطّري يعني أنّها تحبّذُ المحاصرة على الاقتحام الفوري، وتراجعي يعني الزّحف إلى الوراء في علاقةٍ ناشئة أرغب لها أن تطول.

ركبني العنادُ، همستُ لها أمرًا أن تخلعَه، فلمّا مدّت أصابعَها إلى الأزرارِ أشرتُ لها أنْ لا. اعترفَت بسطوتي عليها والظّرف الرّاهن لم يحتمل أكثر من اعترافها بالسّطوة.

ليس كجليلة مَن استطاعت أن تدلّني على رجولتي وثقتي الضّائعة المهزوزة بنفسي. حين أسافر فيها أزدادُ قناعةً بأنّ ما ينقصني هو العثور على مَن يفهمُني جيّدًا كي أعطي الكثيرَ؛ وأتخلّصَ من انطوائي وعزلتي القاتلة. لم أفهم سرحان وهو يقول: «والفرص؟ نحن مَن يصنعُ الفرص المواتية». لم أفهمه. كدتُ أُلحِقُه بزمرةِ المتشدّقين بالكلام لولا أنّه يزرعُ صدره بالرّصاص، ويغيب غيباتٍ تطولُ أو تقصر حتّى إذا ما عاد حملَ على وجهه سيماءَ الظّفر، وفي ثيابه غبارَ أرضٍ طردتُ منها وأحلم بالعودة إليها ولو على جناحي ذبابة.

يجمعُ الغبارَ في صندوقٍ خشبي ويوصيني جادًّا: «إذا ما استشهدتُ ضعْه في وسادةٍ تحت رأسي». ينتابني شعورٌ بالصّغار والزّهو. الصّغار لأنّه تخطّى حدودَ الحلمِ إلى الفعل، والزّهو لهذه الثّقة بما يعني أنّه لم يقطع الأملَ في صلاحي رغم ما كان يجاهرُ به أبي مِن أنّني مزرعةٌ خصبةٌ للميوعة والعفن في وقتٍ يتربّصُ دودُ الأرض لكلّ مَن قال: «أنا فلسطيني».

في الوقت الّذي كنتُ أفرشُ الرّمل الوردي تحتَ جليلة في عيادتها؛ كان سرحان هناك غربي النّهر يرفعُ العلم الفلسطيني على الخالصة. حدّثتُه مزهوًّا كيفَ اقتحمتُ جليلة. حدّثتُه عن أحلامي الصّغيرة فحدّثني عمّا صنعَ للواقعِ الكبير. صعّرتُ خدّي. زرعتُ المكابرةَ شوكًا في عينيه الخضراوين؛ وحين مضى إلى بيروت ألقى في صدري سكّينا تهتزُّ دامية كلّما هاجمني الشّعور بالذّنب وإحساسي اليقظُ بأنّي أعيش على الهامش.

انتشلني من خواطري أزيزُ الهاتف. انسحَبت جليلة وتلاشى وجهُ سرحان رويدًا رويدًا؛ وعامرة تسكبُ في أذني صوتَها الرّخيم. لقد جاءت وها هي تنتظرُ أسفلَ في ردهة الاستقبال. هناك امرأةٌ تنتظرُ وأنا هنا يقتلني

الشّوق لصدرٍ أضعُ رأسي عليه، وألفظُ أنفاسي المحمومة بين نهدين شامخين. لماذا غرسوا تلك اليافطة اللّعينة على باب المصعد وبتروا نشوةً محقّقة؟ جاءت عامرة في وقت كانت جليلة تضربُ مجاديفُها دمي، وتستبيحني بجسدٍ لا يشبع. ليتني شجّعتها على المجيء معي، ليتها تحقّقُ وعدَها بالمجيء.

حال لمحتني عامرة أغادرُ المصعد ألقت الجريدةَ من يدها وهبّت واقفة. عادت والتقطَتها وهرعَت نحوي بجسدها الملتف. ألقت يدَها الرّخصة في يدي، ونشرت الجريدة أمامي على الصّفحة الثّانية. أشارت بإصبعها إلى خبرٍ صغير يذكرُ اسمي ضمن المشاركين في النّدوة المخصصة لبحث دور الإعلام العربي في مواجهة التّحديات.

قرأتهُ بسرعة متظاهرًا بلا مبالاة ندمَت عامرة إثرها على حماسها. ألقيتُ مفتاحَ حُجرتي في يدِ المدير الّذي يستمتعُ كما يبدو بخدمة الزّبائن ورفع ابتسامته على سارية عالية. اختلس إلى عامرة نظرة بريئة وقال:

- مع ألف سلامة.

خرجَت منه حارّةً يغمرُها الصّدق، ولكنّها لم تقنعني بإمكانيّةِ ألّا يتحوّلَ إلى نمِرٍ شرسٍ لو بدرت منّي بادرةٌ لاستدراجِ عامرة إلى حُجرتي نزرعُ فراغَها بزهر الحب.

وضعتُ يدي على ظهرها أدفعُها برفق مِن الباب الزّجاجي إلى الخارج. استدارَت نحوي على بسطةِ الدّرج ظبيةً أبطرَها المرعى والشّبع. قالت ضاحكة:

- أهذا بحكمِ العادة أم لكوني امرأة؟

- لأنّك فاتنة.

ضحكت رافعةً وجههَا كالعادة تُخلي الطّريق أمامَ جيدها السّمق يستعرضُ طولَه واستدارتَه؛ ولونَه الحليبيّ المُطعّمَ بالشّحوب راكبًا صهوةَ كتفين مستقيمتين ظلّت إحداهما ملاصقةً كتفي في الطّائرة؛ تقلّمُ أظافرَ الحزن مشيعةً البهجة والسّرور مِن هذه الرّفقة الجميلة السّاحرة. جليلة ما زالت مجاديفها تضربُ دمي برعونة، تحرمُني من بهجة اللّقاء والتّفريق بين الصّداقة وبينَ الحبّ كما علمتني سطورُه الأولى نارًا واختراقًا.

لم يمنعني الشّارع ولا السّيارات مِن رؤية عامرة بجانبي أنثى مكانها السّرير، هناكَ في الحُجرة المغلقة، نطلقُ

للمكيّفِ العنان. نتعرّى على هديره، يلتقي صداه بنوابضَ تُطلقُ مِن تختنا صريرًا أرعن.

أوقفَت عامرة سيارة أجرة ورمت بصوتها الرّخيم إلى السّائق ذي الرّأس الكبير:

- إلى دجلة، شارع «أبو نُواس» .

التفتَت إليّ مترقّبةً إن كان يعني الاسم شيئًا لديّ. ولما ظللتُ أنظرُ إليها ببلهٍ أوضحَت بصوتٍ عال كرهتُ أن يسمعَه السّائق:

- دجلة الحقيقي في هذا الشّارع وفي منطقة المسبح. لن ترى دجلة الحقيقي في غير هذين الموضعين.

طفقَت تشرحُ لي بإسهاب عن سبب التّسمية، وعن أسماء كثير من الشّوارع والسّاحات. تشرحُ محافظةً على أصول مهنتها كمدرّسة، هذه المهنة طلّقتُها غيرَ آسفٍ لدى عودتي من بيروت، إذ خيّرني رئيسُ التّحرير بين الصّحافة والوظيفة؛ فاخترتُ الصّحافة لا لأنّها الأفضل بل لأنّه كان لا بد لي أن أختار عكسَ ما راهن عليه، فجاء اختياري ردّةَ فعل اعتبرتُها ولا أزالُ فتحًا جديدًا يسحبُني من الرّتابة والرّكود.

ظللتُ أهزّ رأسي بانتظام وأنا أطوّقُها بعيني في نظرة شاملة تمتصّ مِن مساماتِها النّسغ الثّري. تساءلَت دون أن أدري إلى أينَ وصلَ بها الحديث والشّرح:

- أم ترى يعني لديك أبو نُواس غير ذلك؟

همهمتُ مستوضحًا فأردَفت:

- خواطر مربكة مريبة، خمر وليلٌ ونساء؟

بدلًا مِن أن أدفعَ هذه التّهمة عنّي أو أقرّها تساءلتُ ماذا عساه يقول عيسى الضّامر لو أنّه مكاني الآن. قلتُ وأنا أستعيرُ لسانه وفذلكةً يتباهى بها في حضرةِ النّساء:

- وهل كان أبو نُواس يحبُّ النّساء حقًّا؟

فاجأها السّؤالُ الحامل إجابةً صارخةً لم تستعد لها. تسمّرت عيناها في عيني. لم أرَ في عينيها المُشرعتين ولا في صفحة وجهها القريبة إلا أنّها أيقونةٌ تستحق اللّثمّ حتّى غَبَشةِ الإغماء. تلفّتُّ حولي فاصطدمت عيناي برأس السّائق الضّخم. تذكّرتُ جاسم وندمتُ على أنّي لم أستدعه. تذكّرتُ حقدَه وتشفّيه بما كانت تمثّلُه الفنادق مِن قبل؛ فأيقنتُ أنّي لن أحصدَ مِن هذه الرّحلة غير السّراب. هربتُ إلى النّافذة ومنها إلى الأفق الغربي.

كانت الشّمسُ تتلصّصُ مِن بين العمارات الإسمنتيّة الشّاهقة، وكلّما اصطدَمت عيناي بحزمةٍ من ضيائها المشتعل أغمضتهما مكرهًا ولعنتُ هذا الحرّ الفظيع الّذي جعلني أصفُ بغداد على أثرِه لكلّ مَن التقيه بأنّها مرجلٌ يغلي. أبدأ الكلّ بحديثٍ عن الحر وأنتهي به. أحملُ معي دائمًا صحيفةً أو نشرةً إعلاميّة، أحرّكُها أمامَ وجهي متأفّفًا فيتولّى الطّقسُ الملتهبُ ملءَ فراغِ حديثٍ متقطّعٍ ضحل.

حالةٌ مِن التّشتّتِ مررتُ بها صغيرًا حين انتقلنا من بيتِ لحم إلى أريحا. حملنا أبي هربًا من زمهريرِ الشّتاء، افترسَنا بلا هوادة في غيابِ الملابس وأغطية الصّوف والغذاء الدّسم. ندمَ بعدها على هروبه مِن الدّلفِ إلى الميزاب، ولكنّ أمّي أقنعتهُ بأنَّ الحرَّ أسلمُ للعريِّ مِن البرد القارس. أبدى اقتناعَه بأن حفرَ لنبتة الزّنزلخت حفرة، غرسَها قبلَ أن ينصبَ الخيمة. قال وهو يصبُّ الماءَ في التّربة البيضاء العطشى:

- حقًّا هنا خيمة وهناك خيمة ولكن ربّما ينمو الزّنزلخت هنا أفضل.

كان يفاخر بأنّه حملَ الزّنزلخت مِن الرّملة. يؤكّد على أنّه سيعود يومًا إلى الشّجرة الأم تنتصبُ باذخةَ الفروع أمام

البيتِ بحُجرته الوحيدةِ؛ تقومُ على ثلاثةِ أقواس وتتّسعُ للعائلة الصّغيرة، وللبغل والحمار القبرصي ولعشرة رؤوسٍ من الماعز تحلبُها أمّي كلّ صباحٍ؛ فيشربُ من حليبها السّاخن قبل أن يمضي إلى الحقل. وما البديلُ عن كلّ هذا؟ جحيمٌ وخيمةٌ وصدقاتُ وكالةِ الغوث وحرٌّ يبعثُ العقارب من جحورها سوداءَ وصفراءَ تتحرّكُ مندهشةً من أناسٍ عكّروا صفوها؛ ونصبوا الخيام في منطقة كانت لها منذ مئات السّنين.

لم أنسَ في حضرة عامرة أن ألعنَ الحرَّ وقتَ بدأَ العرقُ ينضحُ من وجهي؛ ومن أجزاء متفرّقة من جسدي. كان وجهُها غايَة الصّفاء. لعلّها مثلي تظنُّ بأنّنا سنحصدُ من هذه الرّحلة مسرّاتٍ تكفي لعمر كامل. هل هو الحبُّ ما يستوطنُها أم أنّها صداقةٌ أفسرّها حبًّا نزولًا عندَ هذه الرّغبات الجامحة؟

انبثق صوتُها مِن فجوةِ الصّمت تأمرُ السّائق بالوقوف. حاولتُ نقدَه الأجرة. ألقَت يدَها على يدي، ضغطَت عليها وأبقتها داخل جيبي. في عينيها لومٌ لهذا التّصرّف المُشين. ظلّت على يدي حتّى بعد أن ذهبَت السّيارة، ولفّتنا منها زوبعةٌ ربّما أطلقَها السّائق الضّخم عن قصد.

شعرتُ بأصابعها الطّريّة تغوصً في جلدي الخشن. تحركَت أصابعي بلا إرادةٍ لتشتبكَ معها في لمس ناطق. انقدتُ لها عبر أشجارِ الورد العملاقة وأرض فسيحة مفروشةٍ ببِساطٍ من العشب الأخضر حتّى ضفاف النّهر. أذهلني منظرُه وهو يمشي بوقارٍ وهيبةِ مَن يعرف عنفوانَ الكبير إذا ما ثارَ واندفع. سرق منّي عامرة. غابَت عن وعيي تمامًا. ولم يبق في خاطري غير النّهر الجليل، كيف يسحبُ عباءتَه الرّماديّة وينزو فُقاعاتٍ صغيرة تمازحُه بلعبةِ مَرح فيزجرُها لتمضي إلى الضّفاف الموحلةِ؛ تمارسُ اللّعب هناك للحظةٍ ثمّ تنتحرُ برؤوسِ الخوص المدبّبةِ كالرّماح.

تنبّهتُ إلى عامرة تجلسُ القرفصاءَ مثلي، تنظرُ لا إلى النّهر بل إليّ. تنظرُ وعلى ثغرها ابتسامةٌ تتحفّزُ للانفجار ضحكةً سعيدةً ترفعُ لها وجهَها كعادتها عند القيام بذلك. قالت وهي تتناولُ مِن حقيبتها مرآةً صغيرة وتضعها أمام وجهي:

- انظر. انظر إلى وجهك الطّفولي السّعيد.

وأردَفَت وهي تودُّ لو تجمعُ النّهرَ والنّخيل والأفق الممتدّ بين ذراعيها:

- الانبهار والفرح والفضول.

ثمّ وضعَت يدَها على يدي قائلةً بصدقٍ وحرارة:

- أتمنّى مِن كلّ قلبي أن تكونَ سعيدًا بالفعل.

سألتْ بصوتٍ خفيض مسَّ أوتارَ قلبي وتردَّدَ صداه في الأعماق:

- هل أنتَ سعيدٌ حقًّا؟

أخذتُ يدَها بين يديَّ أدلّكُ ظاهرَها برفق وأناة. حملتُ حقائبي وسافرتُ في عينيها، ورموشُها أشرعةٌ يقبّلُها النّسيمُ طوعًا ويسقطُ عند إقدامنا مغمًى عليه. ماذا تعني السّعادة غير الشّعور بالانعتاق وانفصال الزّمان والمكان عن أثقالٍ بغيضةٍ تشدّهما إلى قرار مُوحلٍ تتمرّغُ فيه الصّراصير والدّيدان؟ هذه السّعادة الحقّة وروعتُها في ومضِها الخاطف بعدَ أن تركبَ قطارَ العمر، ولا تترجّل مرتابة من اختزالِ حلاوة اللّحظة وروعتها.

قلتُ ضاغطًا على مخارج الحروف:

- في غايةِ السّعادة. سعيدٌ لكونِنا معًا.

أغمضَت عينيها تخبّئُ دفقَ المشاعر السّابحة في غيم وردي. تغلقُ عليها بحرص، تُلقي القبضَ عليها إلى أن تطلقَ سراحَها في مناسبات عزيزة تستدعي منها إطلاقَ كلّ شيء في فضاء رحبٍ فسيح. تولّت بكلتا يديها الضّغط على يدي. مالَ رأسُها بحركة عفويّة، كانَ في طريقه للاستراحةِ على كتفي حين تنبّهت إلى أنّنا في مكان عام يخدشُ سكونَه المتنزّهون، يمشون فرادى وجماعات أو اثنين .

عدّلت من جلستِها تطلقُ سراحَ تنهّدةٍ اعترضَ طريقَها إحساسٌ فائق بالنّشوة والخدر. نقمتُ على الرّواد وضقتُ بالمكان. لو أنّنا الآن في حُجرتي لاستقبلَ صدري شعرَها الفاحم تاركًا هناك آثارًا لا تمحى مع كرّ السّنين. أمشّطُه برفق وأهتف من أعماقي: «مِن هنا عبرت امرأةٌ رائعة وصحبتني إلى عالم سحريٍّ يدفُق بالحنان».

منذ زمنٍ موغلٍ في البُعد ظللتُ أتمنّى أن أقبضَ على مثلَ هذه اللّحظةِ بين أصابعي، بين أسناني، كانت نجاح جاهزة لكلمةِ السّر، ولكنّي ضيّعتُها حياءً وغباءً. كانت أقربَ إليّ من ضلوعي ولكنّي ضيّعتُها. تزوّجَت هي وتزوّجتُ أنا لأحصدَ شوكًا زرعتُه بيديَّ عنادًا ومكابرةً إلى أن التقيت جليلة.

عندها فقط صار للحياةِ طعمٌ آخر، ومع هذا لم يكن خالص الحلاوة. هناك إحساسٌ دائم ينتابُني بأنَّ العلاقة بيننا غير متكافئة، بأنَّ جليلة تنظرُ إليّ كفحلٍ ستضربُه على قفاه إن رفعَ راية التّسليمِ ذاتَ يوم وقال: «إنّني مُتعب». مثل هذه اللّحظة لم تلمسني بعصاها فأطفو إثرها على بحر فضّيٍّ يغنّي له البدرُ المكتملُ لحنَ الخلود؛ مستميحًا الشّمس الغاربة العذرَ إن هو أتى قبلَ موعده بساعات.

نهضَت عامرة متبرّمةً مثلي بزحمة المكان:

- لنمشِ أفضل.

تشابكَت يدانا بعفويّة. رحنا ندوسُ على العشبِ فتختلطُ خشخشتُه النّاعمة بدبيبِ خواطرَ متوثّبةٍ تطعنُ صمتَنا النّشط. هذا الصّمت أبلغُ مِن الكلام ونحنُ نتوقّف أو نأتي الحركةَ ذاتَها بتلفّتنا إلى أشجار النّخيل في ثنايا الكرخ، أو في توقّفنا لمراقبةِ الماء الهارب مِن مقدّمة قاربٍ مسرع، وحتّى في هبوطنا معًا نتابعُ سربًا من النّمل يعودُ إلى جُحرِه بأوراق شجر بعدما فتّتَها قطعًا صغيرةً بأفواه كالمناشير.

نطلقُ في أحيان ضحكاتٍ نشوى لا لهدف إلّا تعبيرًا عن الرّخاء النّفسي المُستتر بزغبِه الطّويل، وإذا ما تحدّثنا

كانت الجملُ قصيرةً مركّزة، تندفعُ ثمّ تتوارى خجلى كأنّما تحسُّ مثلنَا بأنّها جاءت في غير أوانها... إنّني قليلُ الكلامِ في العادة. مرارًا حمَلت زوجتي على صمتي حملاتٍ مسعورة. ألعنُها وفي الوقت ذاتِه أحقدُ على نفسي، وأعتبرُ أنَّ قلّة الكلام لها ضلعٌ فيما يصادفُني مِن فشل في حين وصلَ عيسى الضّامر بثرثرتهِ إلى أكثر ممّا يستحق؛ وكذا شأن شريف حمّوري الّذي كان صديقي ذات يوم قبل أن يشلحَ عنه اسمَ أبيه وينتسبَ إلى مَن حمَلَ سطوتَه ونفوذَه مِن الرّملة إلى عمّان.

الآن أستعذبُ الصّمت. أرى فيه عالمي الجميل. إنّه صمتٌ منظّم لا تفرضُه حالاتُ الضّجر والإعياء والقرف. عرفتُ عامرة متحدّثة لبقَة، تُدخِل سنّارتَها في أمور شتّى بتركيزٍ مُدهش، تنتزعُ عنها قشرتَها بتلذّذ واستمتاع، ولكنّها الآن غارقةٌ مثلي في صمت بليغ. لم تسألني إن كنتُ متزوّجًا كما لم تناور بدهاء لتعرفَ سببَ خلوِّ إصبعي مِن المحبس. أشعرُ هذه اللّحظة برغبةٍ ماحقة لإخبارها. جليلة الّتي لم تعطني نصفَ هذا الشّعور أخبرتُها طائعًا بأنّني متزوج ولي ابن لم أحبّه أو أهذّبْه كما يجب. ضحكَت من شدقِها الشّبيه بالقمع. لم أدرك أنّها إنّما تضحك من غبائي إلّا بعدما أخبرتني بأنّها كانت تعرفُ منذ زمن، بل

وتعرفُ أنّني اصطحبتُ إليها زوجتي في ذاك اليوم الّذي ادّعيتُ أنّني جئتُ صحفيًّا أحملُ بطاقتي الصّغيرة وغروري الكبير. شعشعَت رغبتي بإخبارِ عامرة تأثّرًا بهذه اللّحظة الغارقة في الانعتاق والطّهر. عامرة الغائبة عن الوعي الآن ستسمعُ منّي نكتة تضحكُ لطرافتها. ستمطّ شفتيها قائلةً بلا مبالاة «متزوج؟ وماذا يعني؟». ولمّا كانَ ما توقّعت ألقَت عليّ نظرةً ساهمةً ثمّ أشارَت إلى عصفورين يتطارحان الغرام على نخلةٍ طفلة:

- انظر. انظر.

الفرحةُ ذاتُها انطلقَت مِن حَنجرتِها الصّافية وهي تشير إلى الطّفل في قاعة المطار. استجبتُ فورًا إلى توقّفها وانشدادها إلى أعلى. امتدّت ذراعي تطوّقُ خصرَها الملتفّ جذعًا لنخلة سامقة. شعرتُ بتثنيةٍ تحت يدي قبل أن تروغَ مني هاربة باتجاه النّهر؛ فتلقّفتها شجرةُ توت التفت أغصانُها وتشابَكت بيدِ الطّبيعة أو بيدِ عاشقين دأَبا على التّخفّي عن العيون. نسجَا هذا العشّ الصّغيرِ يطلُّ على النّهر ويديرُ ظهرَه للمدينة والشّارع العريض. أدهشني التّجويفُ مِن الدّاخل. إنّه عشٌّ حقيقيٌّ لطائرين أليفين جدّلا خيوطَه باللّمس الثّري وأحاديث الغزل.

ترجمتُ خواطري بصوتٍ مسموع. أطلقَت عامرة ضحكةً صاخبة أرجعَت حرارةَ اللّحظة إلى درجة الصّفر. نظرتُ إليها مليًّا. وجدتُها تنقلُ عينيها بيني وبين التّجويف تبدي دهشتَها مثلي سواء بسواء؛ بما يعني أنّها اكتشفتهُ لتوّها ولم يكن دخولُها فيه عن قصد. سكنَت حركتُها تمامًا مشدودةً بجملتها إلى شيء لم أستطع تحديدَه. هممتُ باحتوائها بين ذراعي... رغم خلوّ المكان وانعدامِ الرّقباء خلا النّهر الجاري يودّعُ معنا الشّمس الغاربة بلا أسف، لم أستطع. إنّها مشدودة إلى شيء آخر ليسَ أنا بالتّحديد.

حالةٌ كهذه طحنتني مرارًا مِن قبل حين كانت نجاح تأتي بمفردها إلى حُجرتي. تضمّنا حُجرةٌ واحدة وبابٌ موارب أو مغلق حسب حالة الطّقس. أشتهيها في غيابها وحين تأتي يصيبني العجز عن قولِ جملةِ غزلٍ واحدة ألخّصُ بها حبّي المشتعل. يسرقُني الوقت ودهشتُها مِن غزارة علمي في شرح النّصوص وتفتيتها إلى معانٍ طواها الشّاعر في بطنه، وحين ينتهي الواجب يتفرّع الحديثُ بين رجل متّزنٍ وطالبة أكبر مِن سنّها تهاجمُ نظرةَ الرّجال إلى المرأة؛ على أنّها غرضٌ من أغراض البيت وآلة لإنجاب الأولاد.

ترمي بكلامها الموزون وتمضي موقدةً في جسدي نارًا يطفئُها لقاءٌ جديد. إن تجرّأتُ كثيرًا ألقي عليها مِن شعرٍ كتبتُه على أنّه مِن عيون الشّعر. ظننتُ أنَّ هذه الحيلة انطلَت عليها إلى أن التقيتها في عمّان. سخرَت منّي وكشفَت عورتي أمامَ ابنٍ تحملُه، وآخر مشدودٍ إلى الواجهات الزّجاجيّة.

(3)

استيقظتُ بعد ليلةٍ لم أنم فيها أكثرَ من ساعتين. لو أحصيتُ ما مضى مِن العمر لاحتلّت ليالٍ مشابهة مساحةً كبيرة منه. المرارةُ، الضّياع، الغربة، الإحساسُ بفراغ هائل يطبقُ بفكّيه، يمضغُني ويلفُظني نواةً صلبةً عسيرةَ الهضم. ليس هذا جديدًا. الجديد أن تتوزّعَ بين هذا كلّه لحظاتٌ مشتهاة تسرقُها أحلامُ اليقظة؛ تومض طويلًا قبل أن تنطفئ وتتلاشى في ظلمة الغيب.

تعاورَتني طوال اللّيل مشاعرُ شتّى وخواطرُ تدبُّ نحوي بشكل حلزوني. تغوصُ برأسها المُدبّب وتحفرُ أثلامًا غير منتظمة مخالفة شكلها الأنيق. أبدأ من لحظةِ تَفتّحِ عيني على الخيمة الشّبيهة بعرنوس الذّرة، وأنتهي عند يد عامرة تلوّح لي من نافذة السّيارة بعدما تركتني أمامَ الفندق طائرًا فقد أحد جناحيه، يرفرفُ مهيضَ الجناح عاجزًا عن اللّحاق بأليفِه الموغل في البعد ساحبًا خلفه الطّمأنينة والرّاحة والأمان.

أبدأ مِن رحلة الحياة الّتي انتهَت قبل أن تبدأ، وأنتهي عند يدِ عامرة الرّخصة تركتني غريقًا على شاطئ مهجور. تحوّلَ الفندقُ الفخم إلى سجن كبير عليَّ أن أدخلَه مكرهًا أو أضربَ في الشّوارع على غير هدى. استمرئُ طعمَ تلك اللّحظات الّتي قضيتها وعامرة على شاطئ دجلة، وفي الفجوة الحادثة صدفة من يد الطّبيعة أو بيدِ عاشقين تخفّيا عن الرّقباء. لحظات قصيرة حقًّا بيد أنّها غيومٌ ورديّة تمطرُ شهدًا في سمائي الدّاكنة. أتخيّل كيف لو لم تكن مثل هذه المسرّات الصّغيرة العابرة. يمرضُني التّخيّل وواقعٌ مسنونُ الشّفرة بيدِ حقود تُلقي بالورد في دروب الخطايا، وتزرعُ الحنظل في دربِ مَن يطلب الأمان وستر الحال... تُلقي بهذا على الهامش وتدفع إلى الصّدارة مَن يتقنُ الرّقص على الجبال والسّير في الأزقّة المعتمة الملتوية.

أدهشتني في البدء ولا زالت مجموعة من الخصالِ الحميدة أصلّي في محرابها المقدّس. أفتحُ صدري لطيبةٍ أشبهُ بالبلادة والبَلَه. تفجعُني الحقائق وواقعٌ بغيض. تفجعُني وأكفرُ بالمبادئ ولكن على غير جدوى، فقد ارتحلتُ بالوهم بعيدًا وشارفت على قعر البئر. يعجزُني الصّعود والاستلقاءُ تحت الشّمس لأرى مَن كنت أسبقهم

بمراحل تخطّوني وصارَ من المستحيل أن ألحقَ بهم. سبقني عزيز حمّوري وأخوه عادل. سبقني شريف حمّوري وصلاح وهدان. حتّى عيسى الضّامر مَن نقلتُه مِن برزخ الشّعر الرّخيص إلى القصة، مَن نقلتُه إلى الصّحيفة يكاد يسبقني.

تركَ زاويةَ التّصحيح راكبًا ثقةَ رئيسِ التّحرير إلى ما يعجبُه من الأعمال السّهلة. سبقتُه إلى الصّحافة والأدب. سبقني إلى ثقةِ رئيس التّحرير. أرى الأيّام تفرُّ من بين أصابعي. عبثًا أتشبّثُ بها وأمسكُ بذيلها المراوغ. تفرُّ هاربة. أتراجع إلى زاوية الإهمال، أجترُّ رحيقَ خصالٍ بائدة وأقنع النّفس بأنَّ الاستقامة والشّرف هما الفائز في سباق المسافات الطّويلة؛ وأنَّ العبرة بمن يصل خط النّهاية أولًا.

هذه المقولة وحدها، أطلقَها سرحان ووافقتُه عليها بلا مكابرة أو عناد. رغم اختلافِ القصد عن القصد وافقتُه. هو لم يعنِ غير الحياة العريضة كما يفهمُها على أنّها صراعٌ بين قوى الخير والشّر، وأنا عزفتُ على وتر الحياة اليوميّة المعاشة: الوظيفة، الصّحافة، الأدب، المال، الغنى والفقر. هو يدخل يدَه إلى التّنّور ليصنعَ الخبز للجميع، وأنا أوافقه على أن تظلَّ يدي خلف ظهري بينما

ألعن الجوع والفقر... هو يعبرُ النّهر ويقاتلُ وأنا أحلمُ بالعودة إلى وطنٍ شردتُ منه صغيرًا، أسقي شجرة الزّنزلخت كأنّما العودةُ فرسٌ بانتظار أن أضعَ على ظهرها السّرج؛ وفي فمها اللّجام وأمضي بها إلى الغرب خببًا تاركًا خلفي المخيّم ووكالة الغوث؛ والوقوف ساعات طويلة لاستلام بضعة أرطال من الطّحين الأبيض.

لا شيء غير الحلم يختارُني أو أختـارُه منجًى من الاصطدام بصخرة الواقع المُشرعة. هكذا كان اختياري التّدريس وظيفةً والزّواج استقرارًا، والصّحافة حرفةً، والأدب هوايةً، والتّردّد سلوكًا. أحلم دون أن أغادر إلى ممارسة فعل حقيقي، ويبقى الوهمُ عنوانَ حياتي الضّخم. سرحان لحرصه على ألّا يخدشَ مشاعري قالها لي مواربة: «الحلمُ والوهمُ جنّتك الموعودة». أمّا آل حمّوري ومنهم صلاح وهدان فقالوها صراحةً في مناسبات عدّة يقودُهم الحقد والتّشفّي. جبَهوني كلٌّ حسبَ طريقته ولكنّها المجابهة السّافرة والتّشفّي اللّعين، يجتاحُني إثره الخواء من الخارج والدّاخل. أصعدُ بالونًا في فضاء ساخن مُلتهب أرقبُ موعدَ انفجاري لحظةً بلحظة، تغيبُ الأشياء عن رؤيةٍ ضبابيّة فلا تعود واضحةً كما هي في الأصل.

جابهني عزيزُ حمّوري بما كان يخفيه على مضض. ألقيتُ عليه محاضرةً طويلة عريضةً وهو يُطلعني على حُجرات قصره المبني بالحجر الأحمر. حدّثته كثيرًا عن غربة الفلسطيني حيثما حلّ وارتحل. حدّثته عن ضرورة ادّخار المال للمجهود الحربي، وعدم إضاعته في البناء على أرض غير الوطن. هزَّ رأسَه متفهّمًا. لهُ قدرةٌ عجيبة على المجاملة وإيهامي بأنَّ كلامي دررٌ تستحقُّ الفهم والإصغاء. سألني ببرود:

- لم تظنّ أنّي اخترتُ هذا المكان بالذّات؟

سفّهتُ رأيه سلَفًا مُندهشًا من جرأتي أنا المُعدم وهو الّذي تجري إليه النّقود رُزمًا بالآلاف. كتمَ زفرةَ استياء حَبلَ بها صدرُه العريض. أمسكَ بيدي ورجاني أن أسيرَ معه. أوقفني أمامَ نافذةٍ تفتح غربًا. أشار بيده إلى بعيد بفرح:

- انظر.

نظرتُ إلى حيث يشيرُ فلم أرَ غير أفقٍ داكن تبذرُ عليه شمسُ الغروب أشعّةً نحاسيّة، يمتصّها ويعيدها إليها رمادًا محترقًا. التفت إليه متعجّبًا مِن حماسته فأوضح:

- هناك القدس. ألا ترى القدس؟ لو جئتَ ليلًا سترى أنوارَها من هنا متلألئة.

أولاني ظهره قائلًا بصوت متهدّج:

- أنوارٌ تشدّني وتفطر قلبي.

- أقنعني تمثيلُه المتقن بأنّ رؤيةَ القدس عن بعد هي الهدف القريب لهدفٍ أبعد. استكثرتُ عليه هذا الشّعور. طوّقتُه بالحسد لأنّه لم يخط خطواتٍ واسعة في سبيل الثّراء وحسب، بل وساعده ثراؤه على تحقيق جزء ممّا ظللتُ أحلمُ به دهرًا دون مفارقة الحلم. ولأنّي أدركُ مصيبتي وذاك السّؤال الرّهيب الّذي يخبّئه للحظة مواتية: «ماذا فعلت أنت؟» لأنّني أدرك هذا وأخشاه سارعتُ إلى هزّ رأسي متفهّمًا وباركتُ له القصرَ وذوقه في اختيار الموقع. ولكنّي لم أستطع الصّبر. ظل الضّيقُ ينخرُ عظمي وهو يواصلُ إطلاعي على حُجراتِ المنزل ومنافعه، حتّى إذا وصلنا إلى الحمام الثّالث قلتُ وأنا أتحسّس رخامه الأبيض الصّقيل:

- هذه الحمّامات للجسد. أعني لإزالةِ الأوساخ عن الجلد فأينَ تلكَ المعنيّة بغسلِ النّفس وتطهيرها مِن الآفات والأدران؟

تهدّلت شفتُه السّفلى بيده. أطلقَ عليّ مِن عينيه نارًا سرّيّة وشَت بأنّه على وشك أن يجبهني بذاك السّؤال الرّهيب. قال بلطف ما استطاع:

- لم أفهم.

أيقنتُ أنّه يفهم جيّدًا ومع هذا اعتبرتُها منّي مداورةً طالما سحرَتهُ منّي أيّام الفقر. أوضحتُ وأنا كاره المباشرة والقول الصّريح:

- هذه تغريك بالاستحمام مرّتين أو ثلاثًا في اليوم الواحد، تدلّك جسدك وتفركه بالماء السّاخن والصّابون المعطّر، فهلّا التفت إلى نفسك من الدّاخل ولو مرّة واحدة في الشّهر؟

كتمَ زفرة أخرى حَبلَ بها صدره العريض. كتم سخطَه فطفت على وجهه حمرةٌ صارخة. لم أدرِ أنّه خبّأ الانتقام إلى ميعاده الموقوت إلّا حينَ ذهبتُ إليه في مكتبهِ أستدينُ أجرةَ إقامة زوجتي في المستشفى لدى وضعها ابني «نجى». سدّدَ إليّ نظرةً ظاهرها البراءة وباطنها السّم النّقيع:

- أنت تأمر.

أخرج من إحدى جيوبه رزمةً ضخمة عبثَ بها على مرأى منّي ثمّ غيّبها في جيبه، ليستلَّ رزمةً أخرى من جيب آخر فعل بها كتلك. أعرفُ طريقته في حفظ النّقود ممّا يسميه خططًا ذكيّة لإرباك اللّصوص. يعرفُ أنّني أعرفُ مضيفًا معنى آخر: استعراضُ السّائب من ثروته وربّما مصروفه اليوميّ. انتهى إلى أصغر جيوبه. دسَّ فيه إصبعين ودفعَ إليّ زيادةً عن المبلغ الّذي طلبتُ وقد تحوّلَت نظرتُه إلى سيفٍ مرهف النّصل:

- ولو! أنتَ تأمر.

غطست الأوراقُ في عرقٍ يبلّلُ يدي. قدّم إليّ لفافة وأشعلَ لنفسه واحدة. قال وهو ينفث الدّخان إلى السّقف ويحدّقُ في لهب الولاعة المطعّمة بالذّهب:

- لمَ جئتَ إليّ بالذّات من دون الآخرين؟ شريف ابن عمّي وصديقنا المهندس صلاح وهدان أو صلاح حمّوري كما يحبّ أن نسميه؟ لماذا؟

أربكني السّؤال وأوراقي الّتي كشفها أمامي بخبث. لم أدرِ بماذا أجيب فأردفَ بلهجة باردة كالصّقيع:

- أنا أقول لك هذا لأنّك تدركُ في قرارك بأنّي نظيف مِن الدّاخل ولست بحاجةٍ إلى حمّام أضيفه إلى منزلي كي أطهّرَ نفسي مِن الأدران.

دبّت نيرانُ صوته الواثق في هشيم الصّبر واحتمالي مهانة السّعي إليه. ألقيتُ بالنّقود على المكتب ونهضت. سارع إلى الإمساك بيدي. دسّ فيها النّقود ورجاني أن أجلس:

- ليس قصدي أن أعيّرك ولكنّي أريدك، أقصد أرجو أن تميزَ بين النّاس وألّا تصدرَ أحكامًا جائرة دون تبّصر. أرجو أن تطلّقَ أوهامك ومثاليّتك كي تعيش في الواقع ولو للحظةٍ؛ تدركُ معها أنّ السّير في الحياة على وتيرةٍ واحدة أشبه بحركة دودة القزّ على شجرة بلوط.

وضحكَ بأريحيّة:

- اعذرني إن أنا استخدمتُ أحد التّعابير الواردة في قصصك.

سحبَ من لفافته نفسًا عميقًا نفثهُ فانتشر الدّخان على وجهه المحمر صحّة وعافية.

- كما ترى فأنا مواظبٌ على متابعة نتاجك، أعني أنّني كنتُ مواظبًا قبل أن تُلقي إليّ الحياة بأسرارها، ومع هذا

ما زلت أفهم أنَّ حركةَ الدّودة تلك يائسة من حيث إنّها أخطأت الطّريق إلى شجرةِ توتٍ وارفة.

أغاظني حضورُ بديهته وتحيّنُه فرصة عوزي للانقضاض عليَّ؛ وردّ الكرة إلى مرماي النّظيف بالمثاليّة والاستقامة كما كان يردّدُ قبل أن تُلقي الحياة بأسرارها إليه، قبل أن يشلحَ اسم أبيه. وللتّقليل من إحساسي بالمهانة تذكّرت لنفسي ما كانَ يردّده كلّما التقينا من شعورِه بالنّقص لرسوبهِ المتكرّر ثلاثَ مرّات في فحص الشّهادة الثّانويّة؛ وكيف أنَّ هذا الرّسوب يلاحقُه في اليقظة والنّوم.

تذكّرتُ هذا فقلتُ إنّه يتعالمُ الآن ويتحذلق ليعوّض نقصًا ما زال محفورًا في أغوار نفسه. لذا يجب أن أشفق عليه، وهو وإن تصيّدَني فسيظلّ في نظري ذاك الّذي اغتنى من بيعه الماء القراح للمسافرين عبر النّهر. استغلَّ ظرفَهم وحاجتَهم ليضعَ القرشَ على القرش والدّينار على الدّينار؛ حتّى ضاق عنه اسم أبيه فدخلَ المضارباتِ والمقاولات وأعمال البناء يصلصلُ بمفاتيحِ أسرارٍ ألقتها الحياة بين يديه.

إن جابهني عزيز بما ظلَّ يخفيه فقد تأخّر زمنًا. سبقه إلى ذلك شقيقه الأكبر عادل وابن عمّه شريف. طعناني في

الصّميم. أحسّستُ بالتّدمير الكامل وهما يرميانني صراحةً بالتّفاهة والغرور الكاذب لمجرّد أنّي أكتبُ كلامًا فارغًا. ولما سألتُ (عادل) كيف توصّلَ إلى هذه النّتيجة وهو شبْهُ الأُمّي؛ رفع أنفَه الضّخم عاليًا وحمدَ الله على أنّه لا يقرأ أو يكتب جيّدًا وإلّا لأصابه من تفاهتي الكثير.

ظننتُ أنّي حين أذكّره بجهله سيحمرُّ وجهُه ويتلعثم، ولكنّه قال ما قال مفاخرًا، وطبطبَ على محفظته المنتفخة استعراضًا خبيثًا كشأنه حين يدسّ بين أسنانه سيجارًا كبيرًا؛ أو يمرّ عنّي بسيّارته الكاديلاك يطلقُ النّفير ويلوّحُ بيده لأرى جيّدًا ما حقّقه الجهل، لأرى وأنفجر. أفزعُ إلى ماضيه قبل أن يَثرى، حين كان موظّفًا في مصلحة التّموين، يحمل منها ما يستطيع حمله ويفرضُ أتاواتٍ شهريّة على التّجار المخالفين، يطلقُهم حيتانًا جائعة في بحر الأنانيّة والاستغلال والجشع.

ظلَّ منشارًا إلى أن اكتُشفَ أمره. طوى القضيّة بدهاء وأحالَ نفسه على التّقاعد، والتقى بشقيقه العائد من الجسر وفي جعبته مالٌ وأسرارُ صنعةٍ تطعمه الشّهد. التقيا وأغريا "شريف" بالانضمامِ إليهما، أو أنّه هو الّذي اندفع مساقًا بذكاء فطري وأنفٍ حسّاس يشمّ رائحةَ المال وإن تخفّى بجبال من الثّلج. أقام الثّلاثة شركةً كبيرة للمقاولات؛

عادل بانتسابه للمال أبًا وأمًّا، شريفُ بانتهازيّته، وعزيز بإتقانه المناورة والانقضاض على الفريسة في اللّحظة المناسبة.

عادل جحشُ الرّجادة يتبعُهما، يسلّم قيادَه لهما وهو عارفٌ أنّهما كمّاشة تطبقُ على الأخضر واليابس. يعرفُ أنّ أحدَهما رأسُ الأفعى والآخرَ نابُها يقطرُ موتًا زؤامًا. يتبعُهما معصوبَ العينين ولو إلى الجحيم. ثلاثة يكمّل أحدهم الآخر، ويغلق طاقةً فتحت سهوًا لخصلةٍ حميدة تكبحُ جماحَ الاستغلال والجشع. ثالوث رهيب دار في فلكِه صلاح وهدان إلى أن وضعَ أبوه حدًّا للتّفاهة والعقوق والسّخرية مِن رجل أخرق تجاوزَ حدّه المرسوم حين قال «هذا ابني».

طعنني آل حمّوري في الصّميم بتنكّرهم للصّداقة والعشرة، بانعطافِهم الحاد مِن الفقر المُدقع إلى الغنى الفاحش. بتمثيلهم دور الذّئاب مِن حقّها الافتراس، والنّاس ماشية غافلة أو تحملقُ بعيونها في ظلام سرمدي. يمضون إلى هدف رسموه سلفًا وأنا ما زلت منصوبًا خيالَ مآتة في حقلٍ مُجدب تبولُ عليه العصافير، تنقرُ عينيه وتمضي ساخرة. لقد سبقني كلّ من كان يلهثُ خلفي. عيسى الضّامر، صلاح وهدان، عزيز، عادل، وشريف.

أعرفُ هذا الأخيرَ معرفةً وثيقة. رافقتُه ورافقني منذ الصّغر على مقاعد الدّرس، في أزقة المخيم، في المقهى المنزوي خلفَ سوقِ الخضار نقضي فيه النّهار نلعبُ الورقَ والنّرد، ندخّن ونشرب الشّاي ونطلقُ اللّعنات. درستُه عن قرب. فككتُ أجزاءه بعنايةٍ فائقة أخذَتْ منّي الجهد والوقت. تسلبُني الرّاحة والطّمأنّينة إذ أرى أمامي نموذجًا حيًّا للانتهازيّة والجشع واقتناصِ الفرص، يساعدهُ ذكاءٌ فطريّ ونفسٌ حقود تستعذبُ الإيقاعَ بالغير، وترى في المداورة والخداع مكمّلًا للذّكاء بل ومؤشّرًا عليه.

ألقى الماضي مِن خلف ظهره وانطلقَ بسرعة البرق مدمّرًا كلّ شيء، الصّداقة والوفاء والحب الخالص وكلّ ما يؤخّر نومَه حين يضع رأسه على الوسادة. «الأخلاقُ؟ كلمة متعفّنة يردّدُها الضّعفاء ومَن لا حيلة له. المجدُ للقرش من أينَ يجيءُ وكيف يكون. الأغنياءُ مواطنو شرف حيثما ارتحلوا وحلّوا. الحلال؟ كلمةٌ جوفاء. الحرام؟ كلمةٌ جوفاء. ها هي النّقود في جيبي، دلّني بفراستك على أيٍّ منها حلال أو حرام». هذا دستوره مذ عرفتُه معدَمًا، وحين استوعبَ سرّ المهنة رفعَ أقوالَه تلك على سارية كتبها بالبنط العريض. يضيفُ إليها شعارات

جديدة تعزّز تمجيدَه القرشِ وتسوقُ إليه النّوم أسيرًا؛ حين يضعُ رأسَه على الوسادة حتّى الظّهر.

ما بين فقره وغناه وثبةُ نمر جائع أشبهُ بغمضةِ عين وانتباهتها. كما كنّا معًا طالبينِ على مقاعد الدّرس انتظمنا معلّمينِ في مدرسةٍ واحدة. لم يقنع أبدًا بالوظيفة وما تعنيه من وجعٍ في الرّأسِ وراتبٍ زهيد. جمع إلى الوظيفة عملًا آخر باشتغاله في أحدِ الفنادق ليلًا. لم يسمّه عملًا، بل بقرة حلوبًا تهيلُ إلى جيبه النّقود بلا حساب ضاربًا أكثر من عصفور بحجرٍ واحد. دخلٌ شهري، سكنٌ بالمجّان، دخولاتُ الزّبائن يحشرُهم في الغرف الصّغيرة بتعرفةٍ أقل من اللّائحة دون أن يثبّت أسماءهم في السّجلّات. يخدعُ صاحبَ الفندق العجوز ويغوي ابنته الحسناء المراهقة مبرّرًا أفعالَه بأنّه إنّما يأخذ حقّه من مُرابٍ عفن وبرجوازي حقير.

خدعَ العجوز لمدّة عامين كما سطا على قلب ابنته يقودُه لسانٌ ذرب ومنطقٌ مراوغ؛ يقنعُ الضّحيّة بأنَّ الذّبح لصالحها، فلم يصل العجوز إلى المقارنة الصّحيحة بين قدرة هذا المستخدم اللّيلي على استدراج الزّبائن وبين ضآلة المردود. حتّى المرّات القليلة الّتي خامرَه الشّك تصدّت له ابنتُه ولوّح شريف باستقالته، أو أرسلَ على

العجوز لسانَه ومنطقَه كما طوى ابنتَه من قبل بوسامةٍ؛ لا يرقى إليها الشّك في أنّها تخفي طوفانًا من الشّهوات والحقد على كلّ من يسبقُه في الحياة بخطوة واحدة؛ سيما في مجال المال الّذي يراهُ مفتاحَ كلّ قفلٍ مغلق. «لا شيء يستعصي على المال. حتّى الجنّة الّتي يقالُ إنّ الله وعدَ بها المتّقين من عبادِه... لها عند المال أفضـل الحلول. يسهّلُ على صاحبِه دخولَها عن طريق الزّكاة أو بصدقةٍ جارية. حتّى الموت يطأطئ رأسَه أمام المال خزيًا. فأيٌّ مِن أصحاب الثّراء يمكنُه أن يفدي نفسَه أو عياله بالمال حائلًا دونه وخوض غمار حرب ناشبة أو موت محتوم».

كان يومها يجلس قبالتي في المقهى نلعبُ النّرد. أمامي تجلسُ الأنانيّة والانتهازيّة والجشع. تُعطي مؤشّرًا على أن إحدى كفّتي الميزان ترجحُ بلا وجه حق. ويردّد بحماس: «الأخلاق؟ كلمة متعفّنة يردّدُها الضّعفاء ومَن لا حيلةَ له». يقولُها عن قناعة مُطلقة إذ يرى كفّة الأخلاق فارغة إلّا من ضغط الهواء الرّاكد، وإلّا مِن مراوحة الغيظ في صدورٍ تسعى إلى النّقاء ولكنّها تظلُّ محكومةً بالضّعف، لأنّها تظلُّ في بياتٍ شتوي دون أن تمارسَ فعل التّغيير.

هاجمتُه بضراوة، كانَ في البَدء يسمعُني ويضحكُ من مثاليتي. يصفُني بالمسكين أطعِمُ رغيفي الوحيد لكلبٍ

أجرب أثارَ شفقتي لأظلَّ أنا أتضوّر جوعًا. يقولُ بإشفاق كأنّما يحبّ لي الخير:

ـ أتحسبُ أنّك بمثاليّتك هذه ستغيّر الكون؟ ستغيّر ما هو قائم؟ هراء.

قالها بإشفاق كأنّما يحبُّ لي الخير ولكن حين اضطّر إلى تركِ الفندق والتقى بعزيز العائد من الجسر، صارَ برمًا بالجلوس معي وسماع ما يسمّيه جنوني المقيم؛ بعدما كان يصغي إليّ ويستفزّني ليشبعَ شهوة الجدل لديه، ومضغ ما أهيله عليه من شتائم... صارَ يتحاشى لقائي، يرميني بالعجز ويأسفُ على أنّه عرفَني ذات يوم. قالَ بلا مراوغة حين ذهبت إلى عزيز حمّوري في مكتبه لإجراء تحقيقٍ معه حول أعمال الشّركة. شركة آل حمّوري للمقاولات:

ـ كفاك ادّعاءً بمثاليّة لا تُشبع أو تروي. يا رجل اصحُ مِن نومك وانظر حولَك جيّدًا لترى أنّك ما زلتَ تعيشُ في العصر الحَجري.

قالَها بحقدٍ حزَّ عنقي وأردفَ مكشّرًا عن أنياب صفراء هي نقطة الضّعف الوحيدة في وسامةٍ لا يرقى إليها الشّك.

- مهما كان تظاهرُك بالأخلاق فأنتَ لا تعدو كونكَ لجوجًا، حقودًا، حسودًا.

أشعلَت هذه المواجهة السّافرة فتائلَ صبري. هذه صفاتُه النّاطقة بألفِ لغةٍ يرميني بها دون حياء أو خجل. قبل أن أردَّ عليه، طقطقَ عزيز بشفتيه أسفًا مِن أن يتحوّل النّقاش بيننا إلى مواجهة مكشوفة. سارع إلى القول:

- أنتَ مخطئ يا شريف. مخطئ حقًّا. متروك أبعدُ النّاس عن الحقد والحسد. أمّا إن كنتَ تُرجِع انتقاداتِه المتكرّرة إلى اللّجاجة فقد يكون الحق معك.

سكت برهةً، قدّم لي خلالها لفافةً رفضتُها بحزم استنكارًا لوضعه السّم في الدّسم. أكمل ضاغطًا على الحروف كيما يشعرني بالذّنب ليس إلّا:

- ولكنّها لجاجةٌ من أجل الصّالح العام. أنا أفهم هذا وأقدّره.

أراحني هذا الرّد لولا يقيني بأنَّ أحدَهما رأسُ الأفعى والآخر نابها يقطر سمًّا زعافًا. لولا استحالة المعرفة متى يكون عزيز جادًّا أو هازلًا؛ حتّى في المرّات الّتي يشعرني بنقائِه وصدق طويّته يتملكُني إحساسٌ بأنّه إنّما

يرثي لي ويشفق عليّ؛ كإشفاقه على متسوّلٍ طرقَ بابه، أو كإنفاقِه كمَا زعم على بعض العائلات المستورة يمدُّ يدَه إليها سرًّا في نهاية كلّ شهر. وإن لم يعد هذا سرًّا بالنّسبة لي فلأنّني أهاجمُه وأعيبُ عليه إنفاقه المالَ في وجوه غير مشروعة.

زعمَ أنّه يخبرُني والألمُ يحزُّ في نفسه كيلا أظلَّ في وهمي بأنّه يتنكّر لأيّام الحاجة والفقر. يقنعُني أحيانًا بصدق مزاعمه، أشعرُ معها بأنَّ داخلَه بذرةٌ طيّبة تتلمسُ طريقها للظهور بعكسِ ابن عمّه شريف؛ يفاخرُ جهرًا بأنّه لو استطاعَ استغلالَ نفسِه لفعلَ مرتاحَ الضّمير. يرسمُ للقرش طريقَه لا يطلقُ سراحَه إلّا إذا ضمِنَ عودتَه مضاعفًا، أمّا المعدة الّتي جاعت طويلًا لها عنده الصّدارة، يفتحُ لها جيبَه على مصراعيه ينفقُ عليها بلا حساب.

حين أدقّقُ جيّدًا أرى الاختلافَ واضحًا بين الاثنين بيد أنّي لا أجد مسوّغًا لهذا الاختلاف وهُمَا فكّا الكمّاشة ورأسُ الأفعى ونابُها، يمارسان لعبةَ شدّ الحبل ومعهما عادل وصلاح وهدان قبل أن يفرغَ أبوه في صدره الرّصاص. هؤلاء أعرفُهم أمّا غيرُهم فكثيرون، أعرفُ أعدادَهم الهائلة مِن ثقلِ الحبل ومرورِه الحاد على أعناق مَن يشابهُنا أنا وابني وزوجتي. هذه الزّوجة رغم بلادتِها

الفطريّة تشكو من رقّة الحال. تُعيّرني بالفقر. ألعنُها وأذكّرها بأنّني أشتغلُ ليلَ نهار. أصفُ نفسي ببغلِ السّاقية دائبِ الحركة. تقول بلا مداورة:

- حقًّا فأنتَ بغل ولكنّ الفرق بينكما أنَّ ذاك وجدَ من يربطُه ويحدّد مسارَه، أمّا أنت فقد ربطت نفسك بنفسك. أنتَ حددتَ حرَكتَك وترفضُ أن تتّسعَ الدّائرة مِن حولِك.

ألقي بكلامها كما ألقي بها على الهامش، ولكن حين يقع نظري على ابني ينتابني الصّرع. لا يعيشُ طفولتَه ولن يعيشها. ليس ابنًا لمن ينامون حتّى الظّهر. ليسَ من أطفالِ الأراجيح تدورُ بهم في الحدائق العامة والخاصة، يطلقونَ ضحكات نشوى، ينسجونَ في رؤوسهم الصّغيرة أحلامًا أكبر بكثير مِن تلك الرّؤوس. لقد أجريت أكثر من تحقيقٍ صحفي عن تلك الحدائق، عن تلك الأحلام، زرعتُها على الورق ولكنّي عجزت عن زرعِها في رأس ابني إلّا مِن زعيق أمّه وصوتها الغليظ.

ناءَ كاهلي بحمل هذه المشاعر الواخزة. لم أجد غيرَ سرحان أفرغها بين يديه رسائلَ ملتهبةً أعكّر بها وجهَ بيروت الكَدِر. قبل أن يرحلَ إلى هناك مكرهًا، كنتُ أنتظر عودتَه من غربي النّهر بفارغ الصّبر كي ألقي بين

يديه أحمالي الثّقيلة. لم يكن آل حمّوري قد عرفوا بعد سرّ انبثاق المال من الصّخر، ولكنّهم كانوا بعد يتأهّبون للوثب. يسخرونَ من الكفاح وسيلةً لاسترجاع الأرض. وإن ظلَّ عزيز حريصًا على أن يزن كلامه فقد تولّى شريف ابن عمه ترجمةَ ما يقلقُهم آنذاك. «المجدُ للقرش. والأثرياء مواطنو شرف حيثها ارتحلوا وحلّوا. ليس الوطنُ مسقطَ رأس الآباء والأجداد، بل حيث تضمن أن تجلس في الصّدارة ويناديك الكبير والصّغير بسيّدي». كانوا بعد فقراء ولكنّ عمّان فرشَت خيمتَها على سبعةِ جبالٍ القليل منها ينامُ أصحابُها حتّى الظّهر. أنتظرُ سرحان وأعيب عليه تضحياته. قلت له ونحن نضرب في شوارع الوحدات الضّيقة المُوحلة:

- النّهار قد قارب على الانتصاف الآن، ولكنّي أراهُنك إذا ما دخلت الأحياء والجبال الرّاقية لن تجدَ في شوارعها المغسولة بالعطر ولو واحدًا. كلّهم الآن في الأسرّة بين ريش النّعام وشذى الورد، أمّا إذا دقّ النّفيرُ فيهرعون إلى لندن وباريس حاملين الذّهب والفضة، ومَن يبقَ منهم يظل مغامرًا في السّوق السّوداء يتاجرُ بأرزاق النّاس، بجوع النّاس، يتاجر برزقي ورزقك، بجوعي وجوعك.

أطرقَ مليًّا ثمّ رفعَ رأسَه، حدّق إليّ يتراقصُ في عينيه احمرارٌ غريب. خشيتُ أنَّ لحظة انفجارِ غيظِه منّي قد دنت، وهو الّذي صبرَ كثيرًا على تزييفي الحقائق، ألعنُ الغربةَ والضّياع وأعزفُ مثلَ شريف حمّوري على وترِ المال الّذي يجعلُ مِن صاحبِه مواطنَ شرفٍ حيثما حلَّ وارتحل.

قال بهدوء كعادته حين يشتدّ بي الضّيق من واقع مغلوط:

- ينامون؟ فليناموا. إنّه نومُ السّكارى بلا راحةٍ أو اطمئنان. فليناموا وحين يستيقظون سيفوتُهم قطارُ العمر، العمر الحقيقي الّذي ظلّوا عنه غافلين.

فركَ عينيه يطردُ منهما الشّرر قبل أن يصيبني منه ما يؤذي مشاعري. أردف بصوتٍ لم تفارقه نغمةُ الإشفاق عليّ خاصة، وعلى هؤلاء وأضرابهم بشكل عام:

- المالُ عنصرٌ أساسيٌّ في الحياة. هذا حقّ، ولكن لا لذاتِه وإنّما لأغراضٍ يحقّقُها. وبقدرِ ما يكونُ الغرضُ جليلًا وعظيمًا يكسب المال متاعًا وحلاوة.

زعقتُ بصوتٍ عالٍ كشأني كلّما أحسستُ بالعجز:

- الفصلُ بينَ المال وصاحبه جنونٌ وابتعادٌ عن جوهر المأساة. الأغنياء ذئاب والمالُ طريقُهم المشروعةُ لامتصاص الدّم.

عاد يطرق برأسه يغالبُ الانفجار:

- ما ذكرتَه مِن صفات هؤلاء حقّ وواقع ولكن هلّا سألتَ نفسَك ولو مرّة ما هو دوري في تغيير هذا الواقع المشوّه؟

ألقى بيده على كتفي متابعًا:

- أنتَ تكذبُ على نفسك إذ توهمني بأنّك تسعى لأن تكونَ واحدًا من هؤلاء. أنتَ بما فُطِرت عليه من إحساس مرهف ونفس صافية نقيّة وضمير حيّ تمقتُ الاستغلال والأنانيّة والاحتكار. تمقتُ كلّ ما يحوّلُ الإنسانَ إلى غولٍ نهمٍ يسعى إلى التّدمير أكثر من رغبته في الاكتفاء والشّبع.

هممتُ أن أقاطعَه. رفع يدَه راجيًا أن أصمت. لقد صمتَ طويلًا وجاءت الفرصة ليردَّ على قناعاتي الزّائفة؛ على شعاراتِ شريف حمّوري الّتي أنقلُها إليه أوّلًا بأول. أنقلُها بقناعة ظاهرة تخفي غيظًا دفينًا حين أوازنُ بين كفّتي

الميزان الرّاجحة إحداهُما دومًا لصالحِ النّفاق والاستغلال والجشع.

- الأغنياء على شاكلتهم ليسوا مواطني شرف حيثما حلّوا وارتحلوا. ليسوا مواطنين على الإطلاق... الوطن هو مسقطُ رأس الآباء والأجداد، مَن يقول غيرَ هذا فجاهلٌ موتور. هذا أقلّ ما يمكن أن أصفَ به شريف يوسف. أعرفُه منذ أيّام الدّراسة، يرى ذاته المتضخّمة نقطةَ الارتكاز يدورُ من حولِها الآخرون. الغني أو الأصحّ الثّري الّذي يفدي نفسه أو عيالَه بالمال إذا ما دقّ النّفير لا يفارقُ نظرتَه القاصرة للأمور حين يوازن بين سلامة الأرض؛ وبين التّخلّي عن جزء يسير من ماله؛ قاصرٌ تجب الوصاية عليه إلى أن يبلغ رشدَه، الرّشد الوطني، فيدرِك أنّ الأرض والوطن أغلى بكثير مما يتوّهم، وأنّها أمورٌ فوق العادة لا تخضع لمقياس العرض والطّلب. تعيشُ في الدّم، تسيل معه وتبقى فيه حتّى إلى ما بعد أن يتخثّر ويوغلُ فيه الدّود. إن لم يدرك هذه الحقيقة يظلّ قاصرًا، يظلّ كالعدو الّذي اغتصبَ الأرضَ وشرّدَ أهلَها سواء بسواء. يظلُّ هذا مع العدو في خندقٍ واحد، فكلاهما اغتصب ويغتصبُ حقوقًا ليست له. هنا تجبُ الوصاية عليه. مِن هنا يجبُ ردعُه والضّرب على يده.

جذبني إليه وهزّني برفق:

- ومَن ذا الّذي يردعُه غيري وغيرك ممّن يرونَ في المال والثّراء وسيلةً لا غاية؟ مَن غيري وغيرُك يصحّح الخطأ والمسارات الملتوية؟

رغثُ من يده الحانية وصحت:

- أيُّ حياةٍ هذه الّتي أقضي ساعاتِها القليلة في صراع محكومٍ عليه بالفشل؟ أرفض حياةً كهذه، أرفضُها رفضًا قاطعًا... لا أريدها.

أطلقَ زفرةً كثيفة قبل أن يقول بأسى:

- مصيبتُك في أنّك ترى ظواهر الأمور. تراوحُ عندها ولا تغادرها إلى الجوهر، وهذا ما يؤرّقك ويتعبُك. عليك بالجوهر، افحصه جيّدًا وضَعْ إصبعك على مواطنِ الزّيف. عالجها إن استطعت أو أدر لها ظهرك متربّصًا بانتظارِ ساعة الصّفر الّتي لا بد آتية.

توقّفَ هنيهةً يستشرفُ الأفقَ المغسول بأشعة الشّمس الموشكة على الغروب:

ـ مشكلتك ومشكلة الكثرة الكاثرة أنّكم تبنـون أحلامَكم العريضة على أساس واهٍ من الوهم والظّواهر الخادعة ناسين المشكلة الحقيقيّة؛ أنّنا شعبٌ بلا وطن، بلا أرض، بلا انتماء حقيقي يدفعُ أحدَكم لأن يصنعَ من جسده جسرًا تعبر عليه المحاريث والمعاول والأقدام العارية الّتي تصنع الغد المشرق العزيز. ما ينقصك حقًّا وينقصُ الآخرين ذاك الإحساسُ المدهش بالمواطنة، الإحساسُ بنبض التّراب من تحت قدميك.

سارَ بجانبي صامتًا. كدت لفرط التّواصل بيننا أسمعُ دبيبَ خواطرِه شلّالًا غيّر مجراه قسرًا. واجهني مشرعَ اليدين:

ـ أخشى على الأجيال الّتي تعلّمها إن كنتَ حقًّا تغالط نفسك هكذا باستمرار. أخشى على ابنك مِن مغبّة نظرتك هذه للأمور مكابرةً وعنادًا. ابنك ـ وأقولُها على لسانِه ـ لا تنقصُه أحلامُك وأوهامُك تلك، لأنّها ببساطة لا تعشّش في رأسه. هذه حقيقة عليك أن تدركَها وتستغلَّها قبل فوات الأوان، قبل أن تزرعَ فيه أسافينك المعوجّة بوعيٍ مريض.

قطعَ حديثه فجأة مندهشًا مثلي من هذهِ المكاشفة الّتي أطلقها مدمّرة بعدما ضاق صدره. احمرّ وجهُه خجلًا،

ابتسمَ وربتَ على كتفي مهوّنًا في الوقت الّذي تمنّيتُ لو يصفعني ويبصقُ عليّ. كلّ ما أجابهُه به في العادة لا يجد صدى أو قبولًا في نفسي بدليل أنّي أعيبُ على شريف حمّوري انتهازيته ونظرتَه القاصرة للأمور، أعيب عليه أنانيّة متفشّية وشعارات مغلوطة يطلقُها بزهو.

أحملُ غيظي وأنتظرُ سرحان لأفرّغ أحمالي بين يديه اتّهامًا أرمي به تضحياته في عالم يعجُّ بالذّئاب. أشعرُ في غيابه أنّني مشطورٌ إلى شطرين أحدهما قابعٌ كدودةِ قزٍّ على شجرة بلوط، والآخر خلفَ النّهر يقارعُ الأعداء. أشعر بهذا ولكن حين ألتقيه أحمّلُه خطأ رجحانِ كفَّة الأخلاق الفاسدة.

مسح وجهَه بكفّيه واستطردَ بصوتٍ لم يفارقه التّأثر:

- ما ينقصُ ابنك حقيقة هو ما ينقصُك وينقصُ زوجتك الّتي تعيّرُك بالفقر، الإحساسُ العميقُ بأنّكم في الغربة إنّما تقفونَ على حبالٍ واهية، ترقصونَ رقصَ القرود على شجرة الجوز في الغابة بفارقِ أنَّ تلكَ تتقنُ الرّقص؛ وتشعر بالانتماء إلى أرض أطلقَت فيها صيحَتَها الأولى.

قبضَ على كتفي يهزّني برفق وقد عاد إلى صوتِه ذلك الإشفاق على غريق ينزلقُ بما يشبه الانتحار إلى غوارب الموج:

- لو جرّبتَ مرّة أن تعبرَ النّهرَ إلى الوطن لأدركت حقًّا أيّ دور جليل ينتظرُك وأيّ دور عظيم تمارسه. عندها تتعرّف على إحساس الوليد المشوّه حين يُجبل ويعادُ خلقُه من جديد. إنّه إحساسٌ فائقٌ بالانعتاق والوجود أتمنّى أن تجربه. تجحدُ حقّ نفسك عليك إن لم تجربه عاجلًا فتخلي من رأسِك هذه السّفاسف، وتحرّرها من الأوهام والضّجر من واقع مغلوط يستحقّ أن تضعَه على المشرحة، توغلُ فيه بمشرطِك تجتثُّ أدرانَه ومفاسدَه؛ لا أن تقفَ مبهورًا أمام تلك الأورام والمفاسد. إنّك تهدرُ أحلى ساعاتِ العمر بوقوفكَ على الموج مع الواقفين تاركًا الأرض الخلاء عاريةً بعدما انتزعتَ عن جلدها قدميك.

رفع إحدى يديه عن كتفي مبقيًا على الأخرى مجدافًا يضربُ الماء بعنف كي أغادرَ نفقي المظلم:

- أعرفُ أنّك تشعرُ بالاضطهاد والظّلم ولكن هلّا حاولتَ مرّة أن تغادرَ دائرةَ الأماني إلى واقعٍ تصنعُه بيديك؟ هل حاولتَ مرّة أن تزيحَ حواجزَ يقيمُها المغرضونَ في

طريق العائدين إلى الوطن بدلًا من أن تقفَ أمام هذه الحواجز مندهشًا من متانتِها وإطرادها في الارتفاع إلى ما تسمّيه أنتَ قمّة؟

خلّى عني يدَه الثانيةَ وصاح:

- إنّها قمّة في المهازل، قمّة في السّقوط، قمّة في قصر النّظر.

لم أجد كلمة واحدة أردّ بها عليه. لو فعلت فإنّما أطرحُ على نفسي أسئلةً سافرة تحملُ في طيّاتها أجوبةً صارخة بالرّفض لكلّ قناعاتي الواهية. سرحان نضحَ ما نفسي ونثرَه تحت الشّمس. قال إنّه يعرفني وهذا حق ولكنّ ضغط الظّروف ورجحان الكفّة الفاسدة تصبّني في وجهةٍ لا أريدها. تظلُّ لديّ الرّغبة فيما يعجزني تحقيقه وبعدها أختار الطّريق الّذي يعجبني؛ ويتّفق مع فطرتي السّليمة ونفسي الصّافية وضميري النّقي، يتيحُ لي النّوم بمجرّد ملامسة رأسي الوسادة كما يفعل شريف حمّوري وأضرابُه؛ ممّن يرون الحياة معاركَ قصيرة يحسمونها لصالحهم بمختلف السّبل وإن تكن منحطّة، المهم أن يظلّوا ذئابًا وأن يظلَّ الآخرون ماشية تبحلق في العتمة.

أحسُّ بهذه الممارساتِ تنهشُ لحمي وتبحرُ في دمي، تجبرُه على الهجرة القسريّة. لقد ذهب سرحان إلى بيروت قبل أن يرى أحلام آل حمّوري وصلاح وهدان في الثّراء تتحقّق. حملَتْ إليه رسائلي المتكرّرة واقعًا بغيضًا يقطرُ دمًا يعكّر وجهَ بيروت الكدر. نعيتُ تضحياتِه. نفيتُ عنّي صفةَ الجبن والخور. أكّدت له أنّني إنّما أكره الموت بالغريزة، وأكرهه أكثر حين يكونُ بالمجان. أموتُ أنا ليبقى آل حمّوري وصلاح وهدان وأضرابهم ينعمون بالحياة ويشدّون الحبلَ على الرّقاب؟! من ذا الّذي يضمنُ لي حين أموتُ على درب الوطن ألّا يمرَّ هؤلاء على جثّتي إلى أرض جديدة، إلى سوق سوداء جديدة يمثّلون على أناسها دورَ الحمَام الوادع؟ يبصقون عليّ ويضحكون طويلًا: «انظروا إلى هذا المغفل! ماذا جنى؟ ليته ينهض ليرى مَن الّذي يجني ويحصدُ ما زرع».

إنّهم قمينون بفعل هذا وأكثر منه. ليسَ الجشعُ وحده ما يستوطنهم. هناك الرّغبة في التّدمير وتخريب كلّ شيء قائم ما داموا سيبنون سعادتهم على الأنقاض. عزيز حمّوري استغل ظمأَ العابرين على الجسر ليبيعَهم الماء القرَاح. عادل أخوه نهبَ أرزاقَ النّاس وفرضَ أتاوات شهريّة على التّجار المخالفين، أطلقَ أيديهم في الجشع

والاستغلال، وحين اكتُشِفَ أمرُه طوى القضيّة وأحالَ نفسه على التّقاعد براتب شهري.

شريف ابن عمّهما خانَ الأمانة وبرّر التّزويرَ بأنّه يأخذ حقّه المشروع من مرآب عفنٍ وبرجوازيٍّ حقير. نهبَه وسطا على قلب ابنته الوحيدة «سأذلّه... حين يفتحُ عينيه جيّدًا سيكون غارقًا في المهانة والذّل. أكون قد قطعتُ عليه خطّ الرّجعة. شيءٌ مدهش حين ينظر إليّ كأفعى وفي الوقت ذاته يجد نفسه مجبرًا على معاشرتِها يربتُ عليها بحنان. سأجعلُ منه حاويًا رغم أنفِه دونَ أن أمكّنه مِن اقتلاعِ نابي».

المدهشُ لا فيما سمعت منه بل أن تتحقّق نبوءتُه وإن هي جاءت على غير ما يشتهي. حين ضبطَه صاحبُ الفندق بالجرمِ المشهود كان قد حفظ لنفسه خط الرّجعة. سطا على عفاف ابنتِه. ظلَّ يراوغُ في الزّواج منها وإن أدخلَ الزّواج في خططه لا حبًّا بها؛ وإنّما لأنّها الوارثة الوحيدة لثريٍّ عجوز "رجلُه والقبر". ظلَّ علقةً تمتصُّ دمَه بضراوة، ظل أفعى والعجوز حاويًا رغم أنفه إلى أن أنهى الحظّ النّحس أو الحظّ الطّيب هذه الرّحلة الجميلة بإخفائه مجرمًا اقتحمَ أحدَ المنازل سارقًا مجوهرات سيّدة بعدما قتلها طعنا بسكين.

سرقَ وقتلَ ثمّ وجدَ مَن يؤمّن له الملجأً عن عيون الشّرطة ولكن إلى حين. زجّ بشريف في السّجن مدّة أسبوع وحرم من مزاولة المهنة أبدًا، ولكنّه لم يحرم من الإقامة في شقّة فخمة مع زوجته الوارثة ينتظرُ موتَ العجوز؛ وتنتظرُ هي عودة الزّوج الوسيم. الزّوج الحاذق الّذي يلعب بالنّار دون أن يحترق.

إذا كان شريف يمثّل الجشع والدّونيّة ويتربّعُ على هرم آل حمّوري بعدما خلعوا عنهم أسماء آبائهم؛ فهناك من يشاركُه بل ويطغى عليه وإن كان قد شلحَ عنه اسمَ أبيه متأخرًا. هناك صلاح، أسقطَ عنه علي وهدان اسمًا ولقبًا، يغضبُ إن لم يتبع المنادي شهادةَ الهندسة بصلاح حمّوري. ألقى بالماضي خلفَ ظهره ونسيَ ما استنزفَه من عرق والدِه الذي كان يدور كالنّملة ليلَ نهار، يحمل حبلَه الغليظ وكيسَه الجلدي. يتسلّقُ الشّاحنات يفرّغُ حمولتها من السّكر والأرز. يضعُ القرش على القرش، يرسلُه إلى ابنه في الجامعة. وكلّما أرهقَه التّعب وجرّدته السّن المتقدّمة مِن رغبة الاستمرار؛ قاومَ بضراوةٍ مستعينًا بالحلم في أن يغدو ابنه مهندسًا، إن لم يرحه من عناء العمل المرهق فليس أقل من أن يشيرَ إليه مفاخرًا:

«هذا الرّجل أبي. هذا مَن كان وراءَ كلّ هذا المجد والجاه. قوموا له احترامًا أيّها الأصدقاء».

ظلّ يكدّ مُوسعًا ظهرَه للحبل الغليظ والبرذعة، يمدُّ يدَه لعزيز حمّوري مستدينًا ليسدَّ فمَ ابنِه وأفواه مَن حوله زاعمًا أنَّ والدَه صاحبُ شركة كبرى للاستيراد والتّصدير، فماذا يفعلُ بعدها غيرَ أن يعيشَ أميرًا يلتفّ حوله المنتفعون؟ كذبَ كثيرا حتّى صدّق نفسه. أدارَ ظهرَه للعلم فتأخّر عن المقرّر ثلاث سنين. لم يرسل إلى والده رسالةَ اشتياق ولم يزره إلّا شهرًا في كلّ سنة يقضي معظمَه في بيتي يأكلُ ويشربُ وينام؛ حتّى عاد أخيرًا بالشّهادة.

ذبحَ وهدان الخراف ودعا الأقارب والمعارف يستقبلُهم بابتسامةٍ عرضُها نهارٌ مشمس. جلسَ القرفصاء أمام المهندس العائد يمزّق اللّحم وينثرُ الثّريد ويهيبُ به أن يأكل غير متنبه إلى عيني ابنه تحدقّان شزرًا إلى يديه الخشنتين؛ يكاد من فرط غيظه وتقززه أن يصرخ: «كفاك أيّها المخبول».

كنتُ حاضرًا يومها وكذا أبي ووالد سرحان وآل حمّوري. سرحان وحده لم يكن حاضرًا. تذكّرته بشكل فاجع في هذا

الجمع غير المتجانس. اكتشفتُ مِن اللّحظة الأولى أنَّ صلاح يخلع عنه صداقتي، يُلقي بها في وجهي خرقةً باليةً. في حين انعطفَ إلى آل حمّوري يتودّد لهم بعدما كان يرميهم بالسّخف والجهل تحت سقفِ غرفتي الواطئة. وكأفعى أحسّتْ بالدّفء لم يجد غيري من يغرس فيه نابه المسموم.

- أما زلتَ مدرّسًا؟

قالها بلهجةٍ ساخرةٍ تغاضيتُ عنها إكرامًا ورأفةً بوهدان السّعيد. أومأتُ برأسي أن نعم. تابع باللّهجة ذاتها:

- وتكتبُ الشّعر والقصة و... و... إلى آخره؟

كان وجهه مغريًا بالصّفع. تمالكتُ نفسي احترامًا لوهدان الطّيب يوزّع الفرح على الحاضرين بلا حساب. اختلستُ نظرةً إلى أبي وجدتُه يتململُ في جلسته يمنعُ نفسَه من الوثوب على صلاح؛ وفي الوقت ذاته يحدجني شزرًا لسكوتي على المهانة. استراحَ صلاح في جلسته. لفّ الحاضرين بنظرة استعلاء:

- والصّحافة؟ ما أخبارك معها وما أخبارها معك؟

نزّت ابتسامة خبيثة من شدقه وأردف:

- أما زلت تجري تحقيقات كتلك الّتي قرأتُها في عطلة الصّيف الماضي عن المجاري؟

كانَ شريف أوّل الضّاحكين وآخر من أنهى ضحكةً كقرقرةِ دجاجة قبلَ أن ترقدَ على البيض، لم يطق أبي هذا، سدّد إلى صلاح نظرةً حبلى بالغضب ثمّ طوى حطّته المُرقّطة على عنقه وخرجَ كالزّوبعة. حتّى وهدان الطّيب لم يعن لديه خروج أبي على هذا النّحو شيئًا. في حين اعتبرها آل حمّوري نكتة أخرى تستدعي الضّحك. قال شريف وهو يضرب صلاح على كتفه بلطف:

- أخبارك قديمة. اليوم يجري تحقيقات مع طبيبات النّساء وعن أعمال الحفر والمقاولات. أشار إلى عزيز مكملًا:

- اسأل عزيز ابن عمّي.

بالكاد استطاع هذا أن يردعَ ضحكة صاخبة يتقنُها في مثل هذه الحالات. ربّما منعه ما درّب نفسَه عليه من الظّهور بمظهر الرّجل المتزن؛ لينفي ما عُرِفَ عنه قبل أن يغتني بأنّه صبيٌّ مراهقٌ في ثياب رجل طويل عريض. صبي يدسّ إصبعه في أنفه ويدسُّ أنفَه فيما لا يعنيه.

أمرضتني السّخرية. كلّ ما يمكن أن يقالَ في مثل هذا الظّرف ضاع منّي دفعةً واحدة فقلتُ كردّة فعل لا أكثر:

- وهل نجحتَ حقًّا أم أنّها كذبة أخرى تضيفُها إلى تاريخك المتخم بالتّزوير والكذب؟

لم أستمتع برؤيةِ وجههِ يحمرّ خجلًا فقد حدجَني أبوه بنظرةٍ معاتبةٍ ذبتُ منها إشفاقًا عليه:

- ابصق مِن فمك يا رجل.

قالها وهدان وفزعَ إلى حقائب ابنه ليأتي بالشّهادة ويضعَها أمام عيني لولا أن صرخَ به صلاح بهستيريّة:

- ماذا تفعل أنت؟

ران صمتٌ ثقيل. وقفَ الأبُ مدهوشًا ثمّ انسحب إلى مكانه عند العتبة يغذّي وجهه الشّاحب بابتسامة سعيدة؛ كيلا ينسى للحظة أنّه والد هذا المُحتفى به. لم يفطن لهذا وهو يرميه بنظرات حارقة، تجرّده من ثيابه الرّثة، تلفُّ الحبلَ على عنقه، تتمنّى لو تزهق روحه في التّو والسّاعة. تلاشى ما أصابني من سخرية في غمضة عين. عوّدني آل حمّوري أن أفزعَ إلى ماضيهم كلّما رموني بجارح الكلام. صلاح سرقَ منّي الغضب بتعاليه الفارغ حتّى

على أبيه الّذي قطعَ اللّقمة عن فمه؛ ليعيش هو أميرًا وسطَ رتل من المنتفعين. كيف أغضب ممّن تنكّر للصّداقة القديمة واختـارَ صداقاتٍ توافق انطلاقته الوشيكة إلى عالم الثّراء؟

حالةُ وهدان البائسة ورقصُه رقصَ ديكٍ ذبيحٍ أغاظني فنهضتُ وغادرتُ المكان بلا استئذان. لو كان سرحان موجودًا لغادرنا معًا، بل لكان أسرع منّي إلى المغادرة تمنعُه دماثتُه من مواجهةٍ سافرة قد تنقلبُ إلى عراك بالأيدي؛ وهو القادرُ على مواجهة خمسة رجال معًا. لو كان موجودًا لغادرنا وأنا أسبُّ وألعنُ الوجودَ وهو صامتٌ كعادته يهضم الأشياءَ على مهل ثمّ يلخّص رأيَه بجملة واحدة: «منتهى الخسّة والنّذالة. منتهى العقوق».

لم يكن موجودًا. ذهبَ مع الذّاهبين إلى بيروت يقارعُ هناك أعداءً شتّى يستكثرونَ عليه أن يرفعَ رأسَه، يستكثرونَ عليه الحياة. ذهبَ وتركني، بل أنا الّذي تركتُه ناعيًا تضحياتِه الجسام. أحسّست بعدَه كالعادة أنّني مشطورٌ إلى شطرين أحدُهما يضعُ يدَه في التّنّور ليصنعَ الخبز للجياع والمشرّدين، والآخر يقتلُه الجوع ويقطعُ الوقتَ حالمًا بالشّبع، يعيشُ دودةَ قزّ على شجرةِ بلوط.

زاد آل حمّوري مِن انشطاري وفتّتَني صلاح وهدان إلى قطع صغيرة يعجزُ عن التقاطها دوريٌّ نَهِم. أفرغتُ أوجاعي في رسائلَ دفعتُها إلى سرحان. كتبتُها بالدّم. كيفَ تنكّر صلاح للصّداقة القديمة مختارًا صداقاتٍ توافقُ انطلاقتَه السّريعة إلى عالم الثّراء والمتع. كيف التقى بآل حمّوري. شلحَ عنه اسم أبيه مثلَهم. نفضَ عن ثيابِه غبار الماضي وارتدى ما يليقُ بسهراتِ ما بعد منتصف اللّيل. حلّى أصابَعه بالخواتم تتكسّرُ عليها أنوارُ النّيون والزّئبق، يشرِبُها زبدَ الخمرِ في الكؤوس الفضيّة المترعة.

لم تتجاوز نظرةُ صلاح لأبيه نظرة السّيد إلى عبد عليهِ أن يقدّم ظهرَه للسّياط بلا احتجاج أو صراخ. عليه أن يباركَ انتقالَه من الوحدات إلى أحد الجبال المغسولة بالعطر، يجمعُ من حوله الخدم والحشم. يعيشُ ويترك والده في الطّين، في الأسواق لحبله الغليظ. يتركُه في المطبخ إذا ما زارَه كيلا تقع عيونُ أصدقائه النّظيفة على رجل أمّي خرِف يضحكُ بلا سبب، يضحكُ زاعمًا بأنّه سعيد. إن تجرأ على الصّعود حيث الجمعُ المتجانس، يتصدّى له ابنُه، يأمره أن يعودَ إلى المطبخ أو إلى الجحيم.

لم يحمل وهدان هذا محملَ الجد. ظلَّ يبتسم. حاولَ إقناعه بأنّه ترك الحبلَ في البيت ولبِسَ أحسنَ ما عنده، وأنَّ كلّ

ما يشتهيه أن يراه ماثلًا أمامه، ليرى إن كان يطابقُ الصّورة الّتي رسمها في خياله لأكثر من عشرين سنة يشقى ويجد ويستدين؛ ليرى حلمه العزيز يمشي أمامه ببذلة سوداء وربطة عنق منقّطة بالأحمر الصّارخ. يحاول إقناعَه بأن يقومَ على خدمة أصدقائه وصديقاته، يقدّم لهم الخمر الّتي يعافها ويبصقُ لدى ذكرها ويلعنُ شاربَها وحاملها. يحاول عبثًا إلى أن طفحَ بالمهندس الكيلُ فأفهمه بالبنطِ العريض أنّه لا يريد أن يرى وجهه البغيض.

لم يجد وهدان غير أبي ملاذًا يتعجّب بين يديه أكثرَ ممّا تحملُ كلماته القليلة المركّزة معاني الشّكوى الخالصة. يعجبُ ويبدي عدم الفهم مِن هذا الابن الّذي يحرمُه من القيام على خدمته وخدمة أصدقائه. يحرمُه مِن أن يضمّه أمام الجميع. يقبّله ويربتُ على كتفه مفاخرًا: «ها هو ابني انظروا. لم أقصّر في تربيته حتّى صار كما ترون مهندسًا كبيرًا؛ بل أكبر من الدّنيا ذاتها، انظروا». أمّا أبي فعلى عكسِ ما يفرضُه الحال من واجب التّسرية، يحمّلُ وهدان التّبعة مردّدًا:

ـ أنتَ السّبب. أنتَ من أفسدَه بالتّدليل.

ثمّ يحوقل بعدما يتلقّى من وهدان نظرة مذبوحة:

ـ قلتُ لك ألف مرّة اخلعه من رجلك كما تخلع النّعل العتيق. اخلعه واسترح، فالضّرس الّتي نخرها السّوس ليس لها إلّا الخلع. اخلعه واسترح.

نقلتُ أوجاعي ومأساةَ وهدان في رسائلَ بعثتُها تباعًا إلى بيروت. لم أجد غيرَ سرحان مَن أفرّغ بين يديه أوجاعي الخاص منها والعام. فعيسى الضّامر لا تروقُه هذه الأحاديث. المرأةُ عنده الأصل وحين يتبجّح يبشّر بأن سيأتي ذلك اليوم الذي تردّ فيه الطّبقات المسحوقة إليها اعتبارها. يتشدّق كالمتشدّقين ويظلّ سيدَهم في مخالفة القول العمل. ليس كسرحان من كان يفهمُني على حقيقتي وأفهمه، ولكنّه ذهب. لم يستطع العودة كما لم أجد الجرأةَ في البدء لاقتحام النّار المشتعلة هناك. يحدثُ التّواصل بيننا عبر الرّسائل والخواطر ولكنّ الالتحام مستحيل. كنتُ خلال أربع سنين تلت حزيران التقيه كلّما عبر النّهر وعاد. أعيبُ عليه تضحياته حقًّا ولكنّي أحسّ في غيابه أنّني مشطور إلى شطرين.

أنتظره وأخشى ألّا أراه بعد. يأتي بأكياسِ الفرح ينثرُها بين يدي على أملِ أن أفتحَ صدري المُغلق، على أملِ أن أفتحَ عيني على جوهر السّعادة الحقّة والفرح اللّذيذ. تركني فريسةَ الوحدة والضّياع أتردّدُ على مآدبِ اللّئام فلا

ألاقي غير الصّد والرّد. شعرتُ أنّي كوهدان سواء بسواء. هو يبتسمُ ويعيش في الواقع، في الحلم، وأنا أغرقُ في الحلم وأشرب وعيي حتّى الثمّالة كيلا يفجعني الواقع المر. حيثما التفتُّ حولي يصيبني الغثيان. الأصدقاء القدامى، الوظيفة، الصّحافة، والأدب الّذي أحملُه وتحمّلُه زوجتي تبعةَ ما أصابني مِن نكسات، تملأُ وجهي الغضون فلا يضيفُ النّاظر إلى عمري أقلّ من عشر سنين. الاحتراق في داخلي. أتعذّبُ وفي أحيان أُرجِع كلّ ما أصابني من بوار إلى الضّريبة الّتي يدفعُها كلّ مَن ابتليَ بعقلٍ نيّر ونفسٍ صافيةٍ وضمير نقيّ يهرب منه النّوم.

دلائلُ المخاض تجتاحُني ولكنّها تظلُّ دوّامةً نشطة وأظلُّ محايدًا حتّى مع نفسي، أتركها تسرح وتذوب، تهدأ وتزمجرُ دون أن أحسمَ الأمر. أظلُّ واقعًا تحت تأثير مثاليّة فارغة. ظللتُ أرمي سرحان بالرّسائل إلى أن تغلّبت على جبني فذهبت إلى بيروت مراسلًا. تطوّعتُ بلا تردّد ممّا أثارَ دهشةَ رئيس التّحرير الّذي ادّعى كذِبًا بألّا أحدَ غيري يمكنه أن يضعَ ثقته فيه. لو لم يبادرني بالعرض لرجوتُه وألححتُ عليه. كنتُ بحاجة إلى الرّحيل من غابةٍ إلى أخرى أكثر مبعثًا للاشمئزاز والقرف. غابة

تزأر وحوشُها بحثًا عن فريسة غافلة تنشبُ فيها أظافرها لا عن جوع أو ظمأ، بل إشباعًا لشهوة القتل ورؤية الدّم كيف يسيلُ أنهارًا بلا منبعٍ أو مصب. حول هذا المعنى دارت رسائلي وتقارير أرسلُها إلى الصّحيفة تباعًا.

حسبتُ أنّي بهذا أكون محايدًا كما أوصاني رئيسُ التّحرير: «المهم تلك النّظرة الحياديّة العقلانيّة للأمور. دع العواطف جانبًا واكتب عمّا يجري. اكتب عن بيروت كيف كانت، وكيف أصبحت». كان الرّحيل منارًا وسرحان يستبيحُ شوقي لرؤيته، أشربُ الأمانَ كؤوسًا من صفحةِ وجهه الوضيء، وأفرغُ بين يديه أثقالًا ألقى بها على كاهلي آل حمّوري وصلاح وهدان أو صلاح حمّوري كما يرغب أن يُنادى. رؤية سرحان هي الأهم، أتنفّسُ معه البارود، ومن ثمّ أموتُ برصاصةِ قنّاص فهذه غاية المنى. الرّغبة في الموت لم تكن معلنةً ولكنّها موجودة، أصحو كما يصحو النّائم لأقرأ نعيي في الصّحف: «ننعى بمزيدٍ من الحزن والأسى زميلنا الغالي مراسلَ الصّحيفة في بيروت الّذي ....) ويأتي ذكرُ رئيس التّحرير الموقّر في مقدمة الزّملاء الّذين لا بد وأن يضحكوا كثيرًا من غفلتي وسذاجتي؛ أقل بكثير ممّا يفعلُ الرّئيس معجبًا بقدرته على الإقناع وخلطه السّمّ بالدّسم.

لقد نعوني سلفًا وامتدحوا حنكتَهم برفضِ ما عرضَه عليهم رئيسُ التّحرير قبل ادّعائه بأنّه يخصني بالسّفر وَصِفَةِ المُراسل. عيسى الضّامرأكثرهم تبجّحًا وتقريظًا لذكائه في الرّفض دونَ أن يُغضِبَ الرّئيس منه. مع هذا ظل يزيّنُ لي الذّهاب كيلا أغيّر رأيي فيعرف الرّئيس أنّه وراء هذا الرّفض وهو صاحب الحظوة عنده. لم يزعجني اكتشاف أنّي الأخير مَن عرض عليه السّفر، فأنا الأخير دائمًا حتّى في احتمالات الموت. أغضبني بعد هذا العمرِ أن يعاملني كطفل، يربتُ على كتفي ويمارسُ الخداع عليّ وسطَ مَن يتبجّحون بالفطنة والذّكاء.

ازددتُ سخطًا على نفسي. الاحتراقُ الّذي عهدتُه يستوطنُ صدري يتفشّى غضونًا تحرثُ وجهي، هذا الاحتراقُ باتَ موزّعًا في مساماتِ جلدي. ترتعشُ يداي وتهتزُّ مفاصلي تحتَ ضغطِ جسمي الهزيل. أرتعشُ لا خوفًا من القنابل والصّواريخ تمحو أثرَ اللّيل وتجعل من بيروت نهارًا دائمًا، على العكس. وجدتُني أتجوّلُ بآلةِ التّصوير ولا أختبئُ حتّى في اللّحظات الحاسمة الّتي يكون الظّهورُ في منتهى الجنون. أسعى إلى سرحان في القيادة، ثمّ أهرعُ إلى منزله أغيّر ما أملاه عليّ ممّا يسمّيه حقائقَ على النّاس أن يعرفوها. أغيّر أكثر بكثير ممّا طلبه رئيسُ

التّحرير من عقلانيّة وحياد. لم أكتشف أنّي إنّما أقفُ في الجانب الآخر المعادي إلّا بعد أن عادَ سرحان مبكّرًا إلى المنزل ذات يوم. ألقى برزمةٍ من الصّحف أرضًا واندفع مهتاجًا يهزّني ويصرخ:

ـ ما هذا التّخريف الّذي تكتبه؟

انحنى على الصّحف يجمعُها ويلقي بها في وجهي. أعدادٌ من صحيفتي وما أرسلُه من تقاريرَ وانطباعات. وقفت للحظةٍ ذاهلًا لا ممّا أكتب، بل من تطليقِ سرحان الهدوء كأنّما أصابه مس:

ـ هذا سخف وتزوير للحقائق.

شرعَ يقلّب الأعدادَ مربدَ الوجه:

ـ أهذا الحياد الّذي تفهمه؟ صدّقتك في البداية. قلتَ نريدُ الحيادَ ولا شيء غير الحياد. صدّقتك. منحناك التّسهيلات اللّازمة لثقتي بأن ستترك ولعَك بالظّواهر لتغوص في الجوهر، في لبِّ القضايا لا أن تراوحَ عند قشرتها البرّاقة.

صرف بأسنانه مزمجرًا وهو يدير لي ظهره:

ـ ماذا تعرف أنتَ عن الكتائب؟ ماذا تعرفُ لتدّعي كذبًا بأنّهم منظّمون ومدافعونَ أشاوس يقاتلون من داخلِ منازلهم؟

ركلَ الصّحفَ فارتطمت بالجدار محدثةً خشخشةً نزلَت في قلبي سكاكين حادّة. استدارَ نحوي ملوّحًا بيديه:

ـ مِن داخل منازلهم؟! كيف زوّرت الحقائق؟ كيف أظهرت الشّرفاء في صورة المعتدين الطّامعين باقتحام منازلِ الغير؟ إنّه الزّيف الّذي يروّجون له، وها أنتَ تقطعُ الأميالَ وتحشو رأسَك الفارغ بمثل هذه السّفاسف.

سكتَ للحظةٍ محاولًا تهدئةَ نفسِه بيدَ أنّه لم يستطع فواصلَ غاضبًا:

ـ ألم تسأل نفسك من أينَ يأتيهم السّلاح؟ من أينَ جاءهم التّدريب والتّنظيم؟ اسأل أمريكا، إن كنتَ لا تعرف فاسأل الكيان السّرطاني الّذي يسمّى بإسرائيل. بل اسألهم هم. اسأل زعماءهم فهؤلاء على الأقل لا ينكرون تبعيَّتَهم لمن شرَّدُوك عن أرضك ووطنك؛ وحرموا أباك من شجرة الزّنزلخت. اسألهم، بل زرهم إن استطعتَ لترى كيف يسجدون لنجمةِ داود ولقبّعة الأنكل سام.

قبضَ على يدي وسحبني باتّجاه الباب:

- إن كنتَ لا تصدّق، تعال معي لترى النّجمة على أسلحةٍ غنمناها منهم. تعال معي لتسمعَ ممّن اكتشفوا زيفَهم وانضمّوا إلينا أينَ تمّ تنظيمهم وتدريبهم. تعال.

خلّى يدي لاهثًا. شرعَ يمسحُ وجهَه يطردُ اربدادَه ويعيد إليه صفاءه المعتاد. ألقى بيدِه على كتفي وقال بهدوء يعتذر عن زعيقه:

- متروك! لستُ ضدّ الحياد والموضوعيّة بحال، ولكنّي ضدّ ترك الحروف بلا نقاط. ضدّ حيادك أنتَ بالذّات. متروك! لستَ محايدًا في هذه المعركة الشّرسة... صفُّ الحقّ والعدل واضحٌ وضوح الشّمس يفتح لك ذراعيه. إنّها معركتُك ومعركة المغلوبين على أمرهم. معركةُ المُطارَدِين على اللّقمة المغموسة بالعرق والدّم. معركة السّاكنين في الأنفاق والخيام. معركة المطرودين من أرضِهم والغرباءِ في الوطن منّا نحنُ الفلسطينيّين أو اللّبنانيّين الشّرفاء.

متروك. الحيادُ جنونٌ ما دامَ يترصّدُك الموتُ أنّى ذهبت. لستَ حياديًّا في معركة الماشية ضد الذّئاب. مَن تصفُهم بالذّئاب هم هنا أشد ضراوةً مِن حيث إنّهم لا يسطونَ على

اللّقمة ويخطفونها من يدك وحسب؛ بل وينهشونَ لحمك ويفضون بَكارة وجودِك في عز الظّهر. يعبّئونَ دمَك في زجاجاتٍ يشربونَه في سهرات ما بعد منتصف اللّيل.

لم أجد هذه المرّة أيضًا كلمةً واحدة أردّ بها عليه. فتحَ فمَه ثمّ أغلقه، دارَ حولَ نفسه دورةً كاملة قبل أن ينطلقَ من الباب إعصارًا. تركنَي أطاردُ شتاتَ نفسي، ألملمُ أجزاءها المتناثرة وكلّما صارت بجملتها في يدي انزلَقَت من بين أصابعي حبّاتِ رملٍ حارّة يقتلُها الجفاف والظّمأ. ذهبَ بعدما ألقى في مياهي الرّاكدة حَجرا غليظًا؛ تتداحُ في داخلي دوائرُ بلا حصر، تلطمُ شواطئي الضّحلةَ وترتدُّ إلى المحورِ العفن، تدورُ حولَه ثمّ تنطلقُ ثانيةً تصفعُني بلا هوادة. تصرخ بي: «اصحُ أيّها المغفل. إلى متى ستظلّ نائمًا؟ اصح».

وكأنّما استيقظتُ إثر كابوس مخيف. فزعتُ إلى أعدادِ الصّحيفة أقرأ رسالةَ بيروت. أقرأ سخافاتي. وجدتُ أنَّ أياديَ كثيرةً قد عبَثت بها وأثقلَتها بسخافاتٍ أخرى؛ ولكن دون أن تفارقَ ما حسبتُه في حينه جوهرَ الحقائق، سبقَ الموضوعيّة والحياد. لطمتُ وجهي. ضربتُ رأسي بالجدار كي يتخثّر الألم ويمتدّ إلى آخر لحظة في العمر،

يظلّ ماثلًا ولا أنساه. غضبُ سرحان لم يكن سوى زلزلةٍ ضعيفةٍ أسقطَت استقامتي الزّائدة، استقامتي المريضة، أسيرُ متجاهلًا تلك المنعطفات الخطِرة في طريقي. أغمِضُ عيني كيلا أرى سقوطي آخِرَ الأمر مستقرًّا في قاع سحيقٍ لا أصعدُ منه بعد. كنتُ غافلًا عن وعيٍ فجاءت غضبَةُ سرحان في أوانها المناسب.

نبّهني في لحظة وقوفي على شفا الهاوية. وإن هو تركني على هذه الصّورة المفاجئة فإنّما ليقينه بأنّه عزفَ كفايةً على أوتاري السّريّة. أوتار يعرفُ مواضعَها، عزفَ عليها فغدَت بعرضِ الأفق وامتداده. فتحتُ دفاتري القديمة أقلّبُ صفحاتِها وأضعُ تحتَ الهام منها خطوطًا بالأحمر؛ ومن ثمّ أكتبُ لحياتي الجديدة عنوانًا بارزًا بالخطّ العريض. «من هنا أبدأ». أبدأ بترك ظواهر الأمور إلى جوهرها. أبدأ بتحطيمِ نظّارتي السّوداء أتقلّدُ بها حين يشتدُّ ضغطُ الظّروف ورجحانُ كفّة الفساد. أبدأ بإيقاع الطّلاق على تردّدي وركودي. أبدأ بتركِ زاوية مظلمة اعتدتُ منها النّظر فتأتي الرّؤية ضبابيّة غائمة.

تركَني بعدما أيقن أنّني جاهزٌ للانتقال من حالةِ الرّكود والبيات الشّتوي إلى عالم جديدٍ يمورُ بالحركة والحياة. استعدادي الفطريّ لركوبِ سفينة النّقاء والطّهر. أوتاري

السّريّة الّتي يعرفُ مواضعَها الثّابتة والمتغيّرة، انتقال الحرب الدّائرة من حالة الجمود النّسبيّ إلى دورِ المواجهة السّافرة، انتقالها من الغموض والمواربة إلى الحسم واحتلال المواقع ذات الأهميّة. انتقالها من التّعمية إلى المكاشفة الصّريحة المُعلنة «كلّ فلسطيني مهدورٌ دمُه أو يذهب إلى الجحيم». إذن فأنا لم أختر البداية، هي الّتي اختارتني وظلّت بعضُ الحروف بلا نقاط إلى أن أتى تلّ الزّعتر فألقى عليها نقاطها المتوهّجة بالدّم. فتح التّل ذراعيه صارخًا: «مع من أنت حقًّا؟». كان غضبُ سرحان الزّلزلة والشّرارة ولكنّ صوتَ الزّعتر الذّبيح كان البركانَ واللّهب. كان الصّديدَ الّذي انفجرَ نوافيرَ مدمّرة أغرقتني حتّى الأذنين فما عاد لي الخيار. تخيّرَتني البدايةُ فدخلتُ اللّهب. كتبتُ برماد البيوت المحترقة، بدمِ الأطفال والعجائز. كتبتُ عن قصيدة الذّبح ومحوِ الشّخصيّة البريئة تمارسُها أكثرُ من جهة. الكتائب، أمريكا، وما يسمى بإسرائيل. المغدورُ واحد، الضّحيّة واحدةٌ من اثنتين، إمّا غريبة في أرضها ووطنها، وإمّا مطرودةٌ من الوطن. «كلّ فلسطيني مهدورٌ دمُه أو يذهب إلى الجحيم».

تخيَّرَتني البدايةُ ولكن خلَت الصّحيفة من الرّسالة. أبرقَ لي رئيسُ التّحرير «عد فورًا». عدتُ وفشلَ سرحان في إقناعي بالبقاء. تعللتُ «هناك ابني وزوجتي. هناك أبي وموقعي أحاربُ منه». أبقاني رئيسُ التّحرير على رأس عملي لأنَّ قطعَ الأرزاقِ ليس من ديدنه، لأنَّ قطعَ الأرزاقِ مِن قطعِ الأعناق؛ وهو لا يطيقُ ذبحَ دجاجة فكيف يذبحُ ربَّ أسرة أعماه الجهل عن رؤية مصالحه، عن رؤية الصّواب؟ كرّرَ هذا أكثرَ مِن مرّةٍ في جلسة واحدة، بل أثناء ما كان وحدَه الجالس يزرغُني برصاصِ عينيه من الرّأس وحتّى القدمين. مع أريحيّته المزعومة خيرني بين تركِ وظيفتي وبين الانقطاع إلى الصّحيفة. قلتُ رغبةً في التّحدي وجريًا خلف البذور الّتي نبتَت هناك في بيروت:

- بل أتركُ الوظيفة. أتركُها غيرَ آسف.

رمقَني شزرًا. وصفني وأنا أغادر بالوقاحة، وحين استدرتُ أنافحُ عن نفسي قال إنّما يقصد الجرأةَ غير المسؤولة. اكتفيتُ بهذا اعتذارًا ضمنيًّا وطلّقتُ الوظيفة؛ فقد فعلَ شريف حمّوري هذا من قبل وهو الّذي لم يلتقِ بسرحان على خطّ الأفق... سرحان مرّة أخرى. سرحان

مظلّتي الواقيَة حينَ يصدعني الحرّ والقرّ. يستشرفُ الغيب.

ـ ابقَ هنا. رئيسُ التّحرير لا يريدُ لك الخير.

يساقُ الدّليل تلوَ الدّليل. رمى إليّ بأعداد الصّحيفة الخالية من رسالتي، لم يشفع سهري إلى ساعة متأخّرة من اللّيل أكتُبها على ضوءِ شمعة تحاصرُها السّتائر السّوداء. ما أثار دهشتي أن يكونَ سرحان أكثر دراية منّي بالّذي سيحدث رغم أنّني مَن يخوض بحرَ الصّحافة الهائج. هكذا يحدثُ دائمًا. حين أكون مشبّعًا باليقين والفهم أتنبّه إلى أنّني أقفُ على شفا الهاوية. سرحان جرسُ الإنذار في أكثر من مناسبة حسبتُها فتحًا جديدًا. الوظيفة، الزّواج، الصّحافة. كلّها أقدمت عليها بلهوجة... أطبقتُ عليها بأسناني كيلا تفلتَ منّي. الوظيفة جاءتني عروسًا في ثوب الزّفاف بعد نجاحي في المرحلة الثّانويّة بأسبوع واحد. جاءت بلا شهادة جامعيّة أو معهد معلمين والأهمّ من هذا بلا واسطةٍ سمينة. جاءت والمدرّس محسودٌ تتمنّاه كلّ فتاة زوجًا أو عشيقًا. تزوّجت على طريقة أبي. قال لوالد الفتاة: «أريدُ ابنتَك لابني» بسطَ ذراعيه مرّحبًا: «أهلا وسهلا، يحصلُ لنا الشّرف». قال لي سرحان يومها وقد

أخذ إجازة من متجرٍ لقطع السّيارات كي يذهب إلى بيروت لتأدية الفحص:

- متروك يا صديقي! لا تتسرّع. ما زلتَ صغيرًا. الحادية والعشرون ليست سنًّا مناسبة كي يدخل الرّجل قفصَ الحديد برجليه.

قلتُ مصعّرًا خدي:

- بالعكس، فهذه هي السّن المناسبة.

هرب بعينيه بعيدًا قائلًا بإشفاق:

- أو تعتقد أنَّ هذا هو الأسلوب الأمثل للردّ على نجاح؟

كشفَ عن قِدري الغطاء فعزَّ عليّ أن يجبهَني بحقيقةٍ أدرتُ لها ظهري. نفيت بلهجة قاطعةٍ أكّدَتْ صدقَ فراسته. لم يفاتحني بهذا الأمر من بعد كما لم يقل لي إن كانت رائحةُ الشّجارِ قد وصلت إليه حتّى قبل أن ينتهي شهر العسل؛ وبيتُهم في عين السّلطان لا يفصلُه عن بيتنا سوى جدار واهٍ من الطّوب الأسمر. تورّمَت أصابعي أعضُّها ندمًا ولكنّ السّهم انطلقَ وانكسرَ في صدري ما بين الضّلوع. كلّ أوجاعي أنقلُها في العادة إلى سرحان

أوّلًا بأوّل ما عدا إحساسي بالغبن لزواجٍ أتى ردّةَ فعلٍ ساذجة.

قبل حزيران وبعدَه كان هناك الإحساسُ بالغربة والضّياع. كانَ المخيمُ مقبرةً كبيرة نزلاؤها أحياءٌ أموات. بعد حزيرانَ تمشّى الموتُ أو الرّغبة في موت عاجلٍ في الطّرقات. كان هناك ما يشغلُنا باستمرار، أنا بتذمّري وسرحان بتفجيرِه رحم الغيب، يحللُّ بنظرته الثّاقبة ما يحدثُ وما يجب حدوثه. كان له النّهر والقنابل والرّصاص، ولي التّردّد والرّكود وأحلامٌ أفرشُها وألتحفُ بها. أوجاعُ الوظيفة بدأت تجتاحني بعد رحيله إلى بيروت. بدأت أوّلًا بخلخلةِ الهرم البشري. خلخلة سحبَت المثقّفين وصغارَ الموظّفين إلى المؤخرة والقاع؛ رافعةً صغار الحرفيّين والتّجار والكَسَبة إلى المقدّمة خلفَ كبار التّجار والمقاولين؛ يركبونَ اليخوتَ الفخمة ويلقونَ أطواقَ النّجاة للمثقّفين وصغارِ الموظفين لا رحمةً بهم وإنّما ليدفعوا عنهم أسماكَ القرش؛ ليكونوا غذاءً طازجًا إذا ما عزَّ الغذاء في عرض البحر. بحر الحياة المتقلّبة.

دفعتُ إلى سرحان الرّسائل الملتهبةَ بوجع الذّاكرة ونفسي الممرورة. أفضتُ له بالشّرح حين ذهبتُ إليه هناك. لم أفجأه، فقد فهمَها جيّدًا. توقّع حدوثها وهو يرحل، دهشته

الخالصة بل فرحه الواضح كان فقط جرّاء إحساسي المطلق بالخطأ. من رفضي لما يجري.

- ما يحسبُه النّاس رغدًا في العيش وانفتاحًا ما هو إلّا مصيدةٌ شرسة تطبِقُ على أعناقهم رويدًا حتّى إذا ما استيقظوا من غفلتِهم استحالَ عليهم الرّجوع إلى القيمِ الطّاهرة الأصيلة.

طقطقَ بشفتيه أسفًا وأكمل:

- كيفَ يعودون وقد انتُزِعَت منهم المخالب؟ كيف يعودون بعدما استُبدِلَت عيونُهم بأخرى زجاجيّة تعكس الأشياء ولا تراها؟

أطلقَ زفرةً كثيفة عبرَ صوتٍ عميق كأنّما هو خارجٌ من قعرِ بئرٍ سحيقة. كأنّه صوتُ الغيب يدثّرُ الحاضر بعباءة ورديّة زاهية:

- انتظر ترَ. سيعودُ الهرَم البشريُّ إلى حالته الأولى. سيعودُ بعدما يؤدّي مهمّته المرسومة بخبثٍ وإتقان. بعد أن تموتَ القيم تمامًا في صدور النّاس، بعد أن تسقطَ أسنانُهم فلا يستطيعون مضغَ ما اختزنوه من ذهبٍ وفضّة، سيعود

الهرمُ إلى حالته الأولى. عندها تكونُ العودةُ أهون منها السّقوطُ عن جبلٍ صخريٍّ شامخ.

حدّثني عمّا كان يحدثُ على السّاحة اللّبنانيّة من خلخلةِ الهرم البشري وتربّع القلّة القليلة على قمّتهِ المدبّبة بما يخالف سننَ الكون والطّبيعة. أسهبَ في الحديث وطلب منّي النّظر كيف تهاجرُ الذّئاب وتهربُ من وجه عبيدها وضحايا أغرقتهم زمنًا في المهانة والذّل؛ ممّن سرقَت أرزاقَهم المغموسة بالعرق والدّم. تهاجرُ الذّئاب وتهربُ أو تبحثُ لها عن جحورٍ تحميها من غضبة العبيد وقد جاءهم الصّحو:

- تفتّتَ الهرمُ البغيضُ وإن كانت الأسبابُ الحقيقيّة ما زالت ضائعةً في صدور الشّرفاء.

ألقى بدلوه في رحم الغيب يغترفُ منه نبوءاتٍ لا بدّ حادثة إن طال الوقت أو قصُر، لذا تنبّأ بسقوط آل حمّوري وصلاح وهدان، تنبّأ باندثارهم في جحور يطردونُ منها الفئران أو يعيشونَ معها حين يُعادُ تنظيمُ الهرم البشريّ؛ حين يعني خروجُهم من جحورهم تلك الموتَ والفناء.

قال لي الكثير والتقينا في منتصف الطّريق ولكنّه مارسَ الفعل وجرّبَه. شرفٌ لم أبلغه بعد. اعتبرتُ إصغائي له

نوعًا من المخاض ينزلقُ منه وليدٌ غيرُ مشوّه. حتّى في لحظات المواجهة بيننا انحفَرت كلماتُه في صدري بحروف بارزة:

- إن لم تؤدِّ عمليّاتنا العسكريّة إلى طرد العدو من أرضنا، إلى محو ما يسمّى بإسرائيل، فليسَ أقلّ من أن يشعر العالم الأطرش من حولنا بأنّنا أصحابُ حقّ ضائع نسعى إلى استرجاعه، ولا ننتظرُه كما ننتظرُ الصّدقاتِ مِن وكالةِ الغوث كلّ آخر شهر.

قالَ هذا في السّنوات الأربع الّتي تلَت حزيران، قبلَ رحيلِه إلى بيروت. قالها ردّا على نعيي تضحياته، كان همّه أن ينقلَ المعركة إلى غربي النّهر وأن يكون هناك خلفه مَن يحمي ظهرَه حين يقطعُ النّهر ويعود. همّه أن يطالبَ صاحبُ الحقّ بحقّه ولا يسكت عنه؛ أن تظلَّ القضيّة في خاطرِ النّاس تعشّشُ فيهم وتجعلُ مِن دمهم إقامةً دائمةً لها:

- غايةُ المنى أن يحبلَ الشّارع بجنين الثّورة فيذهبَ الكلّ إلى ساحة الصّدام أو يتربّصوا بالعدو الدّوائر.

حالةٌ لمستُها لدى زيارتي بيروت، كما عشتُها لحظةً بلحظة في السّنوات الأربع الّتي تلت حزيران. لم أعشها كما يجب حقًّا ولكنّي لمستُها واستوعبتُها بحواسي الخمس؛

وبحواسٍّ أخرى تتحرّكُ في داخلي على استحياء حين يطفو الوطنُ السّليب على لسانِ سرحان؛ وحين أرى خصرَه مزنّرًا بالقنابل والرّصاص يعبرُ النّهر ويعودُ بأكياس الفرح ينثرُها بين يدي. وحين رحل آخذًا معه الطّمأنينة والأمان وجدَ أمامَه الهرمَ البشريَّ مقلوبًا تتشكّلُ زواياه الحادّة بجنون. حالة وجدها بانتظاره ولم يصنعْها. فُرِضَ عليه أن يحاربَ على أكثر من جبهة واحدة. فُرِضَ عليه التّوفيق بين حربٍ نذرَ نفسه لها وبين أخرى مفروضة عليه فرضًا؛ غايةُ مُثيريها ألّا يعيشَ الحالة الأولى. غايتُهم ألّا يتوجّعَ العبد لوقعِ السّياط وألّا يرفعَ رأسَه متحدّيًا جلادَه.

ولأنّه رفضَ قتلوه... قتلوا سرحان. قصّوا النّخلة السّامقة وداسوا الرّطب. ثقبوا مظلّتي الواقية وألقوني في العراء أكابدُ الحرّ والقرّ. استقلّوا اليخوتَ النّاعمة وألقوا إليّ بطوقِ النّجاة أدفعُ عنهم سمكَ القرش. لن تكفي معرفتي بأسرار البحر كي أصلَ الشّاطئ بأمان. إنّها الحياة الصّاخبة. إنّه الهرم المقلوب. لا أتقنُ السّباحة في الوحل، ولا أدري كيف يتسلّقُ الجَشعُ والاستغلالُ من القاع إلى القمّة، إلى سطح الحياة المائج بدافعِ الشّهواتِ والأنَا المتورّمَة وتلك الرّغبة الخالصة في التّدمير.

(4)

قصدت قاعةَ الاجتماعات في السّاعة العاشرة. وصلَني من المدخل الرّئيس أصواتٌ أقرب إلى اللّغط وأزيز النّحل. أحسّستُ لأوّلِ مرّة منذ مجيئي بعبثِ ما قطعتُ الأميالَ من أجله؛ وما تحمّلته مِن منّةِ رئيسِ التّحرير إذ ادّعى أنّه يخصّني بالسّفر لإعجابه بي؛ متناسيًا أنّ الدّعوة قد جاءت لي بالاسم وأنّنى الأجدرُ، وإلّا لأرسلَ عيسى الضّامر وهو صاحبُ الحظوةِ عنده ويعرفُ كيفَ يُظهِرُ خِلافَ ما يبطِن بنفاقٍ لم أرَ له مثيلًا؛ سوى ذاك الّذي تخصّصَ به شريف حمّوري ووسمَ به وجهَه ماركةً مسجّلَة.

أحسّستُ بالقرف. الاجتماعات واللّجان الفرعيّة ثمّ القرارات والتّوصيات قبل أن ينفضَّ الجمعُ وتضربَ الرّيحُ كلّ ما جرى الاتّفاق عليه. الاتّفاقُ المعلن على الأقل. هكذا لا بد حدثَ قبل نكبة أيّار. هكذا حدث بعد حزيران وقبله. هكذا حدثَ قبلَ وبعدَ رحيل سرحان إلى بيروت. هكذا حدث ويحدثُ منذ ثلاثين عامًا أو يزيد. ممّن

تمنطقوا بزمام الأمور أحزمةً واقية كيلا تقطعَ الجماهيرُ ظهورَهم بالمطالب. هو ما يحدث من العامّة إذا ما جلسَ أيّ منهم على كرسيٍّ هزّاز أمامَ الأضواء الكاشفة. يتوهّم أنّه في موقع المسؤوليّة. يتجاوزُ الفعل إلى الكلام، يمتطي صهوتَه الواطئة ويبارزُ جيشًا من الأشباح، ثمّ يقعدُ ويستريحُ بعدما هدّه التّعب تاركًا لقطارٍ اسمه الزّمن السّير على سكّة القرارات الصّائبة وترقيع ثقوبِ الذّاكرة.

اجتاحني الاشمئزازُ ورغبةٌ وشيكة بالتّقيّؤ. هممتُ بالعودة إلى جاسم يذهبُ بي إلى عامرة في المدرسة؛ أو يدورُ بي في الشّوارع على غير هدى، أو يحملني رأسًا إلى المطار؛ أضعُ وجهي بين يدي رئيس التّحرير ليبصقَ فيه ويطردني كالكلب لعلّي بعدها أواجه المرآة، أتفحّصُ ذاتي كما يجب، أضعُ أصابعي على أورامي وأبحثُ لها عن دواء ناجع؛ أو أتركها تفتك بي فأخرج ضمنًا من دائرةِ صراعٍ سيطول أراني فيه الخاسرَ مع مجموعة من السّوائم والخراف يبقُرُ آل حمّوري وأضرابُهم بطونَها واحدًا إثرَ واحد.

في غمرة انشغالي باتّخاذ قرارٍ مناسب مع يقيني بأنَّ القرار النّهائي أو التّصرّف غير المدروس سيأتي هكذا عفوَ الخاطر دون خضوعٍ لمنطقِ العقل أو دعوى

العاطفة؛ سمعتُ اسمي يتردّد مِن مكبّر صوتٍ مثبّت في منتصف الممرّ الواصل بين المدخل وقاعة الاجتماعات. هرولتُ إلى حُجرةِ الاستعلامات وقد تبادرَ إلى ذهني أنّني لا بد سامع خبرًا سيئًا. ما هو؟ لست أدري بالضّبط. المهم أنّه خبر سيّء وكفى. خطوطُ حياتي الواهية لا تنبئُ بغير هذا. كلّ ما حسبتُه في حينه تصرّفًا سليمًا وخطوة مباركة انقلبَ إلى مصيدةٍ وكمينٍ نُصِبَ لي بإحكام. أسقطُ على رأسي فلا أثيرُ شفقةَ أحد. هكذا كانت الوظيفة والزّواج واشتغالي بالصّحافة واحترافي الأدب. هكذا العمر بسنواتِه الخمس والثّلاثين.

أخبرني موظفُ الاستعلامات بأنّ هناك رسالةً لي. تناولَ عن مكتبهِ ورقةً صغيرةً قرأتُ فيها رقمَ هاتف واسمًا أثار دهشتي واستغرابي. «هنادي» مكتوب بخطّ أنيق تبعثَرَت حروفُه المعدودة قبل أن تفارقني الدّهشة فأرتّبها لأدركَ أنّ اسم هنادي هو المكتوب هنا لا غيره. ليس هناك من توضيحٍ آخر إلّا ما قاله الموظّف بابتسامته اللّطيفة:

- رجتني أن أخبركَ بضرورة الاتّصال بها حال حضورك على هذا الرّقم.

ودفعَ إليّ بالهاتف، ثمّ قام إلى الزّاوية البعيدة يرتّبُ أوراقًا مرتّبة أصلًا. أربكتني ابتسامتُه وهذه الحركة المقصود منها أن يتركَني وهنادي بلا رقيب؛ دون أن يدري أنّها مفاجأة غير سارّة بالمرّة. كيف أتّصلُ بها؟ ماذا أقولُ لها ولم تكن بيننا مودّة مِن قبل ولا حتّى سلام أو تحيّة؟ ماذا أقول وحين سافَرَت إلى بغداد للالتحاق بعريسها، كنتُ الوحيدَ من بينِ العاملين في الصّحيفة الّذي لم يودعها؟

ظلّت يدي على السّماعة جثّة هامدة، لم تعد إليها الحياة إلّا بعدَ حركات الموظّف غير المنتظمةِ على الأوراق. ورطةٌ حقيقيّةٌ لم يخلّصني منها غيرُ الإسراع بإدارة القرص. لم يكد الهاتف على الطّرف الآخر يرنُّ مرّة واحدة حتّى جاءني صوتٌ أنثوي عرفتُ مِن تكلّف صاحبته الرّقةَ والنّعومةَ أنّها هنادي. صاحت بفرح «متروك». فرحٌ حسبتُ معه أنَّ ما بيننا من جفاء لم يكن إلّا في حلم مزعج. عبّرتْ عن سرورها بوجودي وعاتبتني لأنّي تركتُها تعرفُ هذا مِن خبرٍ قرأَته في الصّحف أمس. عاتبتني بمرارة حتّى شعرت بالقصور فاعتذرتُ زاعمًا أنّها في خاطري ولكنّ جهلي عنوانها هو السّبب. ذكرَت لي بسرعة عنوانَ البيت ومقرّ عملها ثمّ انتقلت إلى السّؤال

عن الزّملاء، كلّ الزّملاء. تسألُ عن كلّ شيء في عمّان. تتغزّلُ بها وتورِدُ من أسباب الحب والعشق كثيرًا.

لم أقف طويلًا عند هذا الحبّ إذ انشغلتُ بترقّبِ أن يأتي السّؤال المهم. أن تسألني عن عيسى الضّامر. لم تفعل ربّما لحاجةٍ في نفسها، أو أنّها أرجأت ذلك إلى حين ذهابي إلى بيتها السّاعة الثّانية ظهرًا كما وعدتُ والتزمتُ؛ بعدما أملَتني ثانيةً العنوان بأناةٍ ووضوح هذه المرّة مؤكّدةً أنّها ستكون في غاية الأسف والحزن لو حنثت بوعدي. بعد أن ودّعتني وهممتُ بوضع السّماعة متخلّصًا من هذا الحمل الثّقيل عاد صوتُها مرّة ثانيةً تعرضُ عليّ إن كنتُ أفضّلُ أن تأتي بنفسها لتصحَبني إلى البيت. قلت بمودّة وقد أثّرَتْ بي لهفتُها ودماثتُها:

- لا تتعبي نفسك. معي العنوان.

وضعتُ السّماعة برفقٍ فاستدارَ الموظّف في الحال تاركًا الأوراق أكثرَ فوضويّة من قبل. شكرتُه ورحتُ أضربُ في الممر باتجاه القاعة أقضم أظافري تارةً، وأمسح العرقَ عن وجهي تارة أخرى. إذن سألتقي بهنادي بعد الظّهر، ما استباحني من تشتّتٍ وضياع قد تحدّدَ الآن بشكلٍ مدروسٍ منظّم. حدّدته هنادي. لا مجالَ للمراوغة

وتركِ الاجتماع للدّوران في الشّوارع على غير هدى أو الذّهاب إلى عامرة أو إلى المطار رأسًا؛ فأقطعُ على زوجتي رحلتها الجميلة في دنيا الثّوم والبصل.

آخر ما فكّرتُ به أن ألتقي هنادي، أن تسعى إليّ وتبدي سرورَها واشتياقَها لسماع صوتي ورؤيتي، وأن تتدخّل هي بالذّات وتخلّصني من لحظةٍ حرجة نبّهتني إلى تفاهة ما أقوم به، تفاهة كلّ شيء. لم تنقذني عامرة ولا جليلة الّتي قالت إنّها ستأتي في لحظة لا أتوقّعها. هنادي هي الّتي مدّت الحبل وأنقذتني من بئر التّردّد والإرباك. شيءٌ لم أتصوّره ولم يخطر لي ببال وهي الّتي لم تكرهني وحسب؛ بل وحملت عليّ حملاتٍ مسعورةً وروّجت في الوسط الأدبي والصّحافي أنّني أعاني من عقدٍ كثيرة؛ أقلّها الغيرة والحقد على كلّ مَن لمستُ أنّه أفضل منّي في الحياة، في الأدب، في الصّحافة. لم تجر مقارنةً بيني وبينها مباشرة. اتّخذَت في كلّ هجمة عليّ من عيسى الضّامر سيفَها وتُرسَها. تدافعُ به وعنه. تدفعُ به إلى الواجهة بنقدٍ ساذج لقصصه الفجّة وتدّعي أنّها وإن مدحته كثيرًا فعن جدارةٍ فيه؛ جدارة لا دخل لها بعاطفة الحبّ المستشرية في قلبها.

لا تخجلْ من إعلان حبّها على الملأ. إعلانها الحبّ يتّفقُ تمامًا مع حقّها كامرأة؛ ومع تلك الحقوق النّسائيّة تدافعُ عنها وتروّجُ لها من خلال الزّاوية الّتي تشرفُ عليها في الصّحيفة. تُوقّع تحت ردودها بالاسم الّذي تفضّله. بالاسم الّذي ابتكرَه عيسى الضّامر «هنّوده». تضحكُ بدلالٍ إن نوديت به، وإن ناداها عيسى ذابت شوقًا إلى شفتيه وشاربِه الأسود الكثّ؛ تلتقي عند ذؤابتيهِ وسامةٌ يشهدُ له بها الجميع من رجال ونساء. أسماها أبوها «هنادي» واختار لها الضّامر «هنّودة». قبلته علامةً مميّزة كشامتها السّوداء المذهلة على خدّها الأيسر قرب فتحة أنفها، فهذا من دواعي التّحرر والانطلاق.

لهذا فهي إن حمَلت في حقيبتِها علبةَ سجائر أمريكيّة، إن دخّنت وأخرجَت الدّخان مِن أنفها، إن وضعت ساقًا على ساق أمام الرّجال، إن ركبت مع عيسى الضّامر في سيارته ولم تعد إلى البيت إلّا متأخّرة، فذلك كلّه من خصوصيّات المرأة العصريّة، من ضمن مساواتها بالرّجل يفعلُ ما يريدُ دونَ حسيبٍ عليه أو رقيب. ولكي تتمّ لها المساواة لم تترك الرّجال وحدَهم يصولون ويجولون في عالم الإبداع والأدب، أدلت بدلوها في مجالات كثيرة إلى أن انتهت إلى القصّة القصيرة كما

سبق لعيسى الضّامر أن فعل؛ فتكون جديرةً به وهو الشّاعر الملهم والقاص الموهوب كما تسمّيه. لكي يكون جديرًا بها في رحلة الحبِّ الّتي ستنتهي حتمًا بالزّواج رغم أنّها لم تسعَ إلى هذا صراحة كما لم تلمّح إليه. على العكس فكلّ أحاديثها وردودها على مشاكلِ القارئات أكّدت أن الزّواج ليس هدفًا في حدّ ذاته؛ وإن يكن هو النّهاية الحتميّة البغيضة. ليس الموردَ العذبَ الّذي تبقى المرأةُ الجاهلة تحت سطوته تصرخُ من الظّمأ دافعةً بجهدها للوصول إليه والشّرب على القذى. الزّواج علامةٌ على الطّريق. طريقُ التّفاهم والحب الخالص. علامةٌ وعلى المرأة أن تملكَ الخيار بين الوقوف عندها أو تجاوزِها؛ مع ضرورةِ الفهم المُطلق أنّها ليست علامةً بارزة وخاتمةَ المطاف في صراع المرأة لنيل حقوقها كاملةً من الرّجل المستبد... المرأة في رأيها لن تتخلّص من سطوةِ الرّجل ولن تعيشَ حياتها كإنسان مستقلّ إلّا إذا تخلّصت من الزّواج هاجسًا ومصيرًا يؤرّقُها تحقيقُه ليلَ نهار.

اجترّت هنادي هذه المعاني في ردودها، وفي كتابتها قصصًا لم تجد مَن يطبّل لها ويزمّر غير عيسى الضّامر. زعم أنّها قاصة واعدةٌ وفتاةٌ عصريّةٌ مما يشي بأنّه زيّنَ لها الحب الخالص حين زيّفَ الحقائقَ؛ فامتدحَ روحها

الطّليقة في سماء الحريّة والانعتاق مِن التّقاليد. ظلّ وحدَه المستفيدَ بدفعها إلى تحطيم أغلال مسؤوليّته تجاهها بيديها فيظلّ معها في سوقٍ حرّة مِن غير أن يدفعَ عملةً صعبة، من غير أن يدفعَ شيئًا على الإطلاق. هي الّتي دفعَت من سمعتِها ومن محفظتِها ليظلَّ خزّان سيّارتِه ملآنًا بالوقود، لم يقل لها صراحةً أنّ النّهاية المحتومة هي الفراق عند منعطفِ الزّواج؛ وإلّا لتنكّرَ لمَا يعتبرُه فطنةً وذكاءً وفذلكةً واقتناصَ الفرص المواتية.

ألم تكن تعرفُ هذا حقًّا؟ أم أنّها عرفتهُ ووعتهُ ولكنّها استعذبت الكذبَ على نفسها قبل أن تمارسَه على غيرها ممّن وضعنَ مشاكلَهن بين يديها؟ أغلب الظّن أنّها عرفت إن لم يكن عن طريق الضّامر نفسه بانتهازيّته فعن طريق العاملين في الصّحيفة والمشتغلين بالأدب. أطلعَهم على فذلكتِه أوّلًا بأوّل. أطلعَهم على أدقّ تفاصيلِ العلاقة بينهما حتّى بات الكلّ يعرفُ أنّ هناك شاماتٍ أخرى موزّعةً نجومًا مضيئةً على أنحاءِ جسدها العبل؛ غير تلك السّوداء على خدها الأيسر بالقرب من فتحةِ أنفها. بات الكلّ يعرفُ كم عدد الشّامات وأينَ تقبعُ الشّامة الكبيرة المذهلة في حرزٍ غير حريز.

حسبتُ أنّ وحدي العارف إلى أن سمعتُ هذا الحديث يتردّدُ في أكثر من فم لا تربط صاحبَه صداقةٌ وطيدة كتلك الّتي يدّعى الضّامر أنّها بيننا. أدركتُ أنَّ الصّداقةَ تأخذُ عنده صفة التّعميم بعكس ما أفهمها سطحيّةً هلاميّةً بين ثلاثةٍ وعميقةً صلبةً بين اثنين. وعيسى الضّامر يوزّع حلوى صداقته من علبةِ هنادي. يوزّعها على الجميع بلا استثناء مدّعيًا في الوقت ذاته بأنّه يخصّني بأسرار لا يعرفُها حتّى إبليس نفسه. ظللتُ مخدوعًا إلى أن رأيت شاماتِ هنادي تتساقطُ من أفواه يهوى أصحابُها العبثَ والتّسلية. كراهيّتي لها لم تمنعني مِن تنبيهِهِ إلى سوء ما يفعل. قال وهو يضحك بانتشاءٍ كعادته حين ينعطفُ إلى فتوحاته في دنيا النّساء:

- دعهم يروّحوا عن أنفسهم.

لم أدرِ إلّا متأخرًا أنّه يتّخذُ من مثل هذه الأحاديث المكشوفة وسيلةً يتقرّبُ بها مِن الأخرين؛ ويرفعُ بها الكلفةَ بينه وبينهم فلا يردّون له طلبًا مِن بعد مهما كان صعبًا أو محرجًا. وسيلة تشدُّ إليهِ الأبصار فيلتفّ الكلّ من حوله إذا حضر ويسألون عنه بلهفة إذا غاب. يسعى لأن يكون له صفات النّجم المحبوب من غير أن يضحّي بزفيرِه من أجل الغير. محبوبٌ بالمجان، وإن كان لا بد من الدّفع

فعلى حساب هنادي، أو على حسابي أنا صديقُه الحميم كما يدّعي... «متروك يا صديقي. يا عزيزي، يا عيني! لو سمحت، لو تكرّمت، لو تلطّفت انظر إلى هذه المقالة. إنّها لشخص يعزّ علي. أقرأها وانظر إن كانت صالحةً للنشر، وإن كان فيها بعضُ الهفوات أو المآخذ فأرجو أن تغزلَها بقلمك الرّائع من جديد. أرجوك يا صديقي».

أنزلُ عند رغبته دومًا إن لم يكن من أجل الصّداقة الّتي يصيبُني الوفاء لها بضعفٍ مرضي، فلتأثّرٍ ساذجٍ بكلامِه المُبهرج ونفاقٍ يستدرجُ اليمامةَ فتترك بيضَها وفراخَها مخدوعةً بالأمان والحبّ إلى أن تنزلَ السّكين على عنقها. أشعرُ في أحيان كثيرة أنّني أمام الضّامر يمامةً لم يذبحني بعد ولكنّه أصابني بالجروح. حيثما تلفّتُّ في أنحاء نفسي أرى جرحًا أو أكثر منه، أو من هنادي الّتي دفعَها للنّيلِ منّي بغرورٍ لم تُعدّ له عدّته اللّازمة من الثّقافة والموهبة والحضور المنطقيّ؛ الّذي يجعل من غرورها سفيرًا فوق العادة أقبلُ هيمنتَه المزعجة لبعض الوقت.

أغراها صمتي حين تقبّلتُ غرورَ الضّامر وادّعاءَه بأنّه في القصّة كما كان في الشّعر محلّقًا يسيرُ في المقدّمة بلا منازع. الكلّ يجري في خطاه، عبثًا يحاولُ اللّحاقَ به. هذه حالُه قبل أن يصدرَ مجموعتَه القصصيّة الأولى على نفقة

الصّحيفة. وحين أصدرَها بات ينتفخُ يومًا عن يوم عن يوم. يتشدّقُ ويتّخذُ غرورُه صفةَ التّعميم، لا يستدركُ ولا يخرِجُني من الدّائرة بما يعني أنّني ضمن السّائرين على خطاه؛ ناسيًا أنّني مَن نقلَه مِن برزخِ الشّعر الرّخيص إلى شارع القصّة؛ ناسيًا أنّني مَن تحمّلَ ذلَّ السّؤال كي يلتحقَ في الصّحيفة مصحّحًا قبلَ أن يكسبَ ثقةَ الرّئيس؛ فيقفزَ بين الوظائف بمهارة القطّ اللّبق.

لم يقل هذا صراحةً ما دامت هناك هنادي تنطلقُ كلماتُها الفجّة صواريخ تفتقدُ القدرةَ على التّدمير حقًّا، ولكنّها تُزعِجُ بصوتها. تتقصّدني بهجمات متكرّرة كردّ منها على آرائي المعلنة في قصصها، وفيما تكتُبه مِن ردود، وفي الحياة العصريّة الّتي تقبضُ على خناقها برعونةٍ وهي القادمة من أطرافِ الباديةِ الموغلة في البعدِ عن العاصمة والمدينة. هي الّتي استخدمَ أبوها خبزَ التّنور غموسًا للخبزِ المشروح في أوّلِ سفرةٍ إلى المدينة. اعترفَت بهذا وكرّرت الحكايةَ أكثرَ مِن مرّة لا كنكتةٍ تثيرُ الضّحك؛ وإنّما لتفتحَ العيونَ على ما بلغته من تمدّن ومعاصرة وقد انطلقَت من نقطة الصّفر. انطلقت مِن أبٍ جاهل فتمكّنت بوعيها أن ترفعَه وتجعلَ منه وجهَ وجوهِ قبيلته المزروعة بقاياها في بطن البادية. تقصده كلّما زارت العاصمة.

يقضي لها مصالحَها وتعودُ إلى مضاربها وزادُها آراؤه النّيرة، أمّا آراء ابنته فيصغونَ إليها إذا ما امتدّت سهرتهم إلى حين رجوعها إلى البيت، أو يحملونها صحفًا ومجلّاتٍ في أكياس الخيش جنبًا إلى جنب مع الخضار والفاكهة والملابسِ الّتي اغتسلت لأوّل مرّة بآلةٍ تدورُ بلمحةِ يد، ولا تجلسُ على طرفِ بركةٍ راكدة تدعك الثّياب بحجر مفلطحٍ أملس. من عادة هنادي في هذه المسائل أن تشرحَ وأن تستفيضَ في الشّرح، إلى أن تبلغ الهدف المنشود:

- انظروا كيف كان المصير الّذي ينتظرني. انظروا كيف أصبحت.

تقولُ هذا صراحةً بينما لسانُ حالها وما لم تعلنه يشي بأكثرَ من هذا. تريدُ رخْصةً واعترافًا معلنًا بأنَّ تحرّرَها أمرٌ منطقي تبعًا لتلك الحيثيّات؛ مع أنّها لم تجد غيري مَن يواجهُها بسخفِ أفعالها وأقوالها، فالكلّ بلا استثناء مارسَ طعنَها مِن الخلف. لاكوا سيرتَها ومضغوا لحمها نيّئًا. حتّى عيسى الضّامر بزَّ الجميع بتنقيره الدّائم في أدقِّ أسراره معها وسيلةً للتقرّب وإظهارِ الفذلكة بأنّها تحبُّه أكثرَ ممّا يحبها، بأنّها تدلقُ عليه نفسَها فيأخذ ممّا تعطيه من الجسد والهدايا المنظورة: قميص، ربطة عنق، خاتم

يُحلّي بنصرَه، ورقة من فئة العشرة دنانير لأنَّ جيبه نضَبَ وبات يمشي على الحديد. يحكي مفاخرًا ويتشدّق فكيفَ لا يطعنُها من الخلف كالطّاعنين؟ كيف يتنكّر للنّفاق فلا يدافعُ عنها ويدفعها للنّيل منّي أنا الحاقدُ المتخم بالعقد النّفسيّة كما تصفني؟ النّفاق في طبعه، رضعَه من ثدي أمّه ربّما، يفتقده ويحنّ إليه ويمرضُ إن لم يمارسه صبـاحَ مساء.

ربّما لهذا أحبّته هنادي. ربّما لإتقانه لبس الأقنعة، ربّما للسانِه الذّرب يهيلُ عليها المديحَ أطنانًا، ويسندُ يدَها الرّافعة رايةَ التّحرّر والانطلاق كيلا تسقطَ فتعود من حيث أتت إلى أطراف البادية؛ تجلسُ على حافّة بركة راكدة تدعك ثوبَها بحجرٍ مفلطح أملس. ربّما لهذا كلّه أحبّته وأخلصَت له فلم يرَ أحدٌ غيره شاماتها المنثورة نجومًا مضيئة، وتلك الشّامة الكبيرة المذهلة في حرزٍ غير حريز. أغلبُ الظّن أنّها عرفَت حقيقتَه وأينَ موضع مائه العميق. أدركت منذ البدء أو أدركته متأخّرةً بعدما وصلت إلى نقطة لا رجعةَ بعدها ولا ندم. أقنعَت نفسها بالكذب واستعذبته. لم تستطع الإفلات من سطوة الضّامر، فقد استقرَّ في عظامها، يستلقي ويتمدّد ويحرق اللّفائف مِن

علبتها ويملأ خزّان سيارته من جيبها، ويوزّع حلوى الصّداقة بين الجميع على حسابها.

لقد بلغ هذا المبلغ فأنا الّذي أفهمه جيّدًا وأعرف نفاقَه ووصوليّته وابتهاله الفرص، أجدني مشدودًا إليه بحبل سرّي غير منظور. بدأت سطوتُه بالظّهورعليّ بعد رحيل سرحان وانفضاض آل حمّوري وصلاح وهدان عنّي إلى عالمهم المرسوم في الأحياء الرّاقية. لم يبقَ لي من أصدقاء غيره وأنا المفطور على الصّداقة والوفاء والتّسرية عن الصّديق؛ وإن كنت في قمّة اليأس والإحباط. أسرّي بالكلمة الحلوة، بالموعظة الحسنة، وإن لزمَ الأمر بدينار هارب من طاحون الغلاء حتّى وإن كانت زوجتي وابني بانتظار عودتي بالعشاء. اعتادَ عيسى الضّامر في البَدء أن يسمعَ منّي حين لا يجدي الكلام معلنًا أنَّ أزمتَه الحقيقيّة في قلّة النّقود:

- جيبي جيبك.

تنبسطُ أساريرُه ويحدّق إلى يدي وهي تغيبُ في جيبي طويلًا لتَخرجَ بدينار مذعورٍ اختبأ في الزّاوية. يلقفُه منّي ويتركني بلا كلمةِ شكرٍ أو حتّى سؤال إن كان من الأفضل قسمته بيننا مناصفة. حالةٌ شاذّة خبِرتُها مِن شريف

حمّوري حين كانَ مشقوقَ الشّفتين، زائغَ العينين، يلعنُ الدّنيا باستمرار، يضعُها في كفّة ميزان ويضعُ القرشِ في الكفّة الأخرى فترجح هذه على تلك. «المجد للقرش». أكثر من وجهِ شبهٍ بين الاثنين غير أنَّ شريف وثب وثبتَه الواسعة متخطّيًا الفقرَ قبلَ أن يعودَ إليه على مائدة القمار؛ بينما الضّامر ما زال يثبُ وثباتٍ قصيرة لم تؤمّن له غيرَ سيّارة يستدينُ ليملأها بنزينا؛ أو ليفكَّ أسرَها مِن المرآب إذا ما أصابها عطب.

تخلّصتُ من شريف بانتقاله إلى دائرة الضّوء أو هو مَن تخلّص منّي في الزّاوية المعتمة. ظللتُ وجهًا لوجه مع الضّامر يستنزفُ قدرتي على التّسرية والمجاملة. يستغلّ صداقتي كما يستنزف جيبي أوّلًا بأوّل. هذه بداية عهدي ومعرفتي به، وحين توطّدت بيننا الصّداقة صارت يدُه تعرفُ الطّريقَ إلى جيبي ويمضي إلى هنادي الّتي تنتظر:

- إنّها صيدٌ سمين. تجمعُ إلى جانب الجمال المذهل أبًا مغفلًا لا يدري أينَ يضع النّقود. هذا هو المهم.

لم تتغيّر نظرتُه إليها منذ أن التقيا في جادّة الشّعر، هي بكلامها المكرّر عن المرأة المظلومة والرّجل المستبد، وهو بحديثه عن الحبّ والغرائز الجميلة. التقيا ليصحّحَ لها

أشعارَها ويمتدحَ نظرتَها ومن ثمّ يعمل على نشرها في الصّحيفة زاعمًا أنَّ له أكثر من صديقٍ هناك، ولم يكن له صديق غيري يعطيهِ القصائد.

- متروك! يا صديقي! يا عزيزي! يا عيني! إذا سمحت، إذا تكرّمت، إذا تلطّفت، انشر هذه القصيدة ولك عندي الحبّ وعند الله الثّواب.

يتذلّل ويرجوني حقًّا ولكنّه رجاءٌ أبلغُ مِن الأمرِ فلا أرفضُ لإحساسي بدالّتِه عليّ. أعتبرُ الأمرَ واجبًا لا مناص منه. مِن هنا انطلقتُ. صححتُ له ولمَن يجيزهم لي الشّعرَ والقصّةَ والمقالات. هنا قدّمتُه لرئيس التّحرير وأنا الّذي لم أطلب منه لنفسي شيئًا من قبل قط. التحقَ بالصّحيفة، أصدرَ عنها كتابه الأوّل، قدّمه له رئيسُ التّحرير وأهداه بخط أنيق إلى من يحبّها. إهداء عام تحملُه كلّ فتاة تعرّفَ بها تميمةً تردُّ عنها العين، وتجلبُ الحظّ في حين ظنّت هنادي أنّها المقصودة. هنادي الّتي استمرأت كذبَ الضّامر عليها وخداعَه إيّاها؛ كما استمرأَ بنفسه الخداع والكذب والوصوليّة وعضّ اليد الّتي تمتدّ له بالخير. جاء بهنادي إلى الصّحيفة. وضعَها تحت أنفي تطمرُني برائحة نقدها اللّاذع فيما هو يستغلّني كما يستغلّها، يستولي على عقولِ العاملين في الصّحيفة؛ وعلى

ثقة رئيس التّحرير فيقفزُ بين الكوادر بمهارة القط اللّبق بغيرِ مواهب، وأنا لم أتقدّم خطوةً إلّا عن جدارة، وبجهد جاهد يجبِرُ رئيسَ التّحرير على الرّضوخ، كما يجبِرُ العاملين في الصّحيفة على احترامي للجدارةِ؛ ولأنّي أقولُ للأعورِ أعورَ مشيرًا إلى عينه المعطوبة، حتّى إذا غاب دافعتُ عنه بضراوة.

هذا شأني مع هنادي قبل أن ترحلَ إلى زوجها في بغداد. هذا شأني مع عيسى الضّامر رغم أنّنا على طَرفَي نقيضٍ أخلاقًا وسلوكًا ونظرةً للحياة. رغمَ ما يقع بيننا أحيانًا من سوء تفاهم يظلّ صديقي وتظلّ علاقتُنا محسوبةً بالمسطرة والقلم لا تزيدُ أو تنقص، فاليوم الأخير في صداقتنا كاليوم الأوّل. لسببٍ واحد، لأنّها بدأت قويّة. بدأت هكذا صدفةً لدى التقائنا في إحدى النّدوات. بعد أن انتهيتُ من قراءةِ إحدى قصصي، امتدحَها ونافحَ عنّي بصلابةٍ ضدّ مَن حاولوا النّيل منّي شخصيًّا ومِن رؤيتي الانهزاميّة. فتح ذراعيه واحتضنَني كأنّما يعرفُني منذ أمدٍ بعيد. قال يومها إنّه قرأ لي الكثير وإنّه معجب بي وقد زاد إعجابُه حين رآني عن قرب.

شعرت يومها أنّه منافقٌ ضليع ولكن أعجبني نفاقه. أعادَ لي ثقتي الهاربة بنفسي ونفخَ بي غرورًا أحاذرُ أن أقعَ

فيه. تركتُ له يدي يهزّها مرارًا. شددتُ على يدِه. بهرتني جرأتُه واعتبرته ظهيرًا لي في مثل هذه المواقف، ظهيرًا في المُلِمّات. تجاوزتُ عن نفاقِه الظّاهر واهمًا أنّه لا خطرَ منه إلّا إذا استغلّه لأغراضٍ ذاتيّة وصارَ عادةً متأصّلة. هذا ما اكتشفته بعد فترة وجيزة من بَدء صداقتنا المفاجئة؛ إن هو سعى إليّ في المقهى أو الصّحيفة، أو البيت، يطلعُني على ما يكتبه ويبدي سماحة غير معهودة في أصحاب القلم وأنا أجولُ على السّطور، أحذفُ وأضيف. وحين يطرحُ أسئلةً يجلسُ بلا حراك واضعًا وجهَه بين يديه رغبةً بشربِ المعرفة وقناعةً بصحّة ما يسمع.

أعطيته أكثر من طاقتي. فتحتُ له أبوابَ القصّة بابًا إثر باب. يدخلُ ويتفرّجُ مبهورًا حتّى إذا اشتدَّ عودُه رماني أوّل مَن رمى. دفع هنادي للنّيلِ منّي واتّخذ الطّرفَ المعارض لي دائمًا سيما إذا جمعتنا جلسةٌ مع آخرين. يعارضُني بشراسة ويتّخذ من آرائي السّابقة الّتي عارضَها مُنطلقًا للدّفاع عنها كأنّها له. لا يخرجُ عن دائرتي مهما اشتطّ به البعد، فكلّ همّه إثارة الجدل والنّقاش ولفتُ الأنظار إليه. تعوّدتُ هذا منه. تعوّدتُ أن يغيّرَ مواقفَه ويسطو على آرائي كما يُغير على قصص لي لم تعجبه في حينه. تعوّدتُ أن يدفعَ لي بمقالاتٍ أو قصصٍ أو

قصائدَ للمبتدئين، أصحّحُها وأنشرُها ليظلّ هو في الواجهة يلصقُ أصحابُها على وجهه الثّناء؛ بينما أنا خلف الكواليس أعملُ بصمت، ولا أتلقّى كلمة شكر أو ثناء.

أعملُ أنا ويكسبُ هو حبّ الآخرين؛ أو الأخريات على وجهِ الدّقة والتّحديد. وهو إن لم يعرّفني على كلّ الموهوبات، فقد عرفتُ واحدة منهن. عرفتُ هنادي لكثرةِ ما جلبَ لي من أشعارها بادئ الأمر وقصصِها فيما بعد. عرفتُها قبل أن أراها. مغرورة، متصنّعة، كثيرة الادّعاء، تأكّدَ لي أنَّ جهودي في تصحيح أعمالِها قد ضاعت برمّتها فلم تعد تذكر بالخير سوى عيسى الضّامر، أوهمها أنّه مَن يخلقُ أعمالَها من جديد وينشرها في مكان بارز لأنَّ جلّ العاملين في الصّحيفة من أصدقائه وكالخاتم في أصبعه. تقول بحرارة:

- عيسى أكثر من رائع. عيسى وحده الصّديق الصّدوق.

أدركتُ لأوّل وهلة أنّها أكثر مَن يناسبه. تسبّح بحمده ولا تذكرني إلّا بالسّوء. لم أدفع عنّي التّهم كما لم أفتح لها مذكّراتي لتقرأ مَن أخذ بيدها حقًّا حين كانت تتمنّى رؤيةَ اسمها مطبوعًا ولو في زاوية منسيّة. لم أفعل شيئًا يردّ لي اعتباري لترى كيف بدَأت وكيف انتهت قبل أن تبدأ.

اعتبرتُ المصارحةَ طعنًا في عيسى الضّامر. وعيسى صديقي وأنا ضعيفٌ بطبعي أمام الصّداقة والأصدقاء، لها ولهم مركزُ الصّدارة. الصّداقة فوق كلّ اعتبار. يظلّ صديقي، فبيننا ما زالت تلك اللّغة المشتركة الّتي افتقدتُها مع آل حمّوري وصلاح وهدان بانتقالهم إلى دائرة الضّوء.

ظل صديقي حتّى وإن حملَني بين يديه ووضعَني على المشرحة لتعملَ هنادي مبضعَها في لحمي؛ تجرّدُه عن العظم لأنّي لم أهلّل مثلَه لأعمالها، لأنّي أرى ما لا يراه في تلكم الأعمال من حسّ وطنيٍّ صادق وموهبة فذّة؛ تتفتّحُ باطّراد لتغذّي الأدب النّسائي بدمٍ جديد. اشتدَّ عودُه فرماني أوّل مَن رمى. رماني بدعواه أنّه يسير في المقدّمة بلا منازع، وإن هو توقّف عن العطاء لسبب ما فسيبكي الإبداع بحرقةٍ حتّى تحمرّ عيناه. رماني بهنادي فظللتُ إلى ما قبل رحيلِها متخمًا بالعقد النّفسيّة أقلّها الغيرة والحقد. هذه صورتي الّتي حملَتْها معها فكيف تغيّرتُ أنا في نظرها؟ بل كيف تغيّرت هي؟

هل أدركَت حقًّا أنّ عيسى الضّامر كما تنكّر لها وتركها تذهب، قد كان يخدعُها ويزيّن لها إبداعها الفج تمامًا كما زيّن لها الحريّة غير المسؤولة؟ هل حدث هذا فعلًا أم أنّ

الغربةَ وحدها ما تعهدّت بيدها رسمَ صورةٍ جميلةٍ لي أرسلت خطوطها الأولى عبرَ أسلاك الهاتف؟

ازدادَ فضولي للقائها ورؤيتها عن قرب، زادَ من شوقي طبيعة النّقاش حول نقطةٍ مستعصية عمّا إذا كان الإعلام العربي يخدمُ الجماهيرَ حقًّا؟ أم أنّه يضرّ بها من حيث تزييفه الحقائق وتبعيّته للأنظمة الحاكمة وبالذّات لرجلِ النّظام الأوّل؟ مضت ساعاتٌ والكلّ يرمي بسهمِه عبر أسئلةٍ تُطرَحُ وردود قاطعة مانعة، أو مِن خلالِ أسئلة استنكاريّة تتركُ بلا جواب إذ حملَت جوابَها معها، أو برميِ جملٍ محفوظة ورفعِ شعارات حادّة قولًا ومثلومةٍ فعلًا.

دوامةٌ تدورُ تطوي المشاركين، يرتفعُ اللّغط من هنا وهناك وفي النّادر ما يتحدّث واحدٌ فردٌ ليسمعَه الآخرون؛ حتّى استحالَ معرفة من المتحدّث ومن المستمع! دوّامة بلا قرار وجدتُ ذاتي في قعرها الصّاخب... شاركتُ في النّقاش أو الجدل على الأصح وإحساسي بالقرف ينزُّ مع العرقِ دون أن تجدي أجهزةُ التّكييف أو النّشرة الّتي التقطتُها عن منضدة في المدخل بغرض استدراج الهواء العزيز:

- قبل الخوضِ في هذه المسألة علينا أن نولي اهتمامنا أوّلًا للحريّة ولقضايا التّحرّر الوطني.

- منتهى الغباء أن يفصلَ البعض بين ما نحن بصددِ بحثِه وبين الحريّة. الحريّة كالماء والهواء. الحريّة ملحُ الجماهير تدخلُ عناصرُها الباهرة في كلّ شيء.

- أوافقُ على هذا مع بعضِ التّحفظات. يجب تحديد ما هو المقصود بالحريّة. هل هي بمعناها المُطلق أم أنّها الحريّة المسؤولة؟ يجب تحديد المقصود.

- مَن هذا الّذي يصنّف الحريّة إلى أجناس وبطون؟ معنى الحريّة فيها. الحريّة هي الحريّة ومَن شكَّ في قولي كَفر.

- ليس كفرًا ولا يحزنون. ما جئنا هنا لمناقشة الكفر والإيمان، الحلال والحرام.

- مهمّتُنا واضحةٌ ومحدّدة.

- من ذا الّذي حدّدها؟ هذا هو السّؤال الّذي يجب وضعُه في الاعتبار ففيه الإجابة على كلّ ما أثيرَ من أسئلة. هل هي دولُنا أم رؤساؤنا المباشرون؟ أم نحن المجتمعون هنا؟

- عدنا لمسألة الحريّة ثانية!

- لقد قلتُ يا جماعة أنّ الحريّةَ هي الماء والهواء، هي ملحُ الجماهير.

- هه هه يقول ملح!

- المسألةُ ليست بحاجة إلى كلّ هذا النّقاش. ليست بحاجةٍ إلى عجينٍ وخبيز. إنّها واضحة. انظروا إلى الإعلام منذُ ما قبل حزيران وحتّى الآن، هل تغيّر فيه شيء غير الأقلام الّتي تكتبُ والأصوات الّتي تلعلع؟

- إذن باتَ مِن الضّروري إعدادُ خطّة مدروسة منعًا لهذا التّسيّب.

- وضعُ الخطط ليس من مهامنا، واجبُنا إيجادُ صيغ مناسبة، وضعُ توصيات.

- ثمّ إنّ أيّ خطّة أو حتّى توصية مكتوب عليها الفشل ما دامت الجماهير صاحبة القرار أوّلًا وأخيرًا غائبة.

- الجماهير؟ أينَ هي هذه الجماهير؟

- حقًّا! أينَ هي؟

- الجماهير الّتي تعنيها غائبةٌ على الدّوام.

هذا لأنَّ الحريّة ذاتها غائبة. الحريّة هي الأصل.

- بل نظام المركزيّة البغيض هو السّبب. لم لا تكون هناك شركات تمارسُ الإعلام والتّوعية على غرار شركات الصّناعة والتّجارة؟ اللّامركزيّة في الإعلام هي الطّلب.

- شركات؟ الإعلام في شركات؟ وربّ الكعبة إنّها لمهزلة.

- طبعًا مهزلة ما دامت شركات وما دام الّذي يوجهها ميزانُ الرّبح والخسارة.

- هو ميزانٌ صائب على أيّ حال، فإنْ تكنس عقولَ الجماهير من الزّيف فهذا ربح وإن ظلّت فيه فخسارةٌ وبوار.

- مصطلح شركة في حدّ ذاته لا يعجبني، جد اسمًا آخر أوافقك.

- تبعيّة الإعلام للدّولة هي المعضلة حقًّا، من هنا تنبعُ الحاجة إلى إيجاد البديل. شركة، أو مؤسّسة، مركزيّة أو لا مركزيّة. ليس الاسم أو المصطلح هو المهم، المهم البديل.

ـ ما دامت الجماهير قد أقرّت للدّولة أو الأصح للرّجل الأوّل فيها أن يتولّى كلّ شيء فلم لا تقرُّ له السّيطرةَ على أجهزة الإعلام؟

ـ أنت تظلمُ الجماهير بقولك هذا. الجماهير لم تقر بشيء لأحد. الجماهير لا سيما في الدّول الرّجعيّة غائبة تمامًا عن اتّخاذ القرارات.

ـ تصنيف الدّول إلى رجعيّة وتقدّميّة بات ممجوجًا. أمرٌ عفا عليه الزّمن. أمر مغلوط كرّسته وسائل الإعلام المقيّدة بالأغلال.

ـ بل هو واقع ملموس. حتّى الأعمى والأطرش يعرف هذا.

ـ هل عدنا إلى المزايدات؟

ـ سألتُ نفسي ألفَ مرّة لم لا نستوردُ الحريّة والدّيمقراطيّة وحياتنا كلّها قائمة على الاستيراد؛ مِن إبرة الخياطة إلى الطّائرة الّتي تمارسُ ألعابَها فوق المدنِ في الأعياد الرّسميّة إلى القنابل تُلقى على الجماهير في المظاهرات.

ـ لمَ تسأل نفسك وتثقلها بالسّؤال والحريّة موجودة في دمنا؟ كيف نستوردُها وهي موجودة؟ ألم تسمع بقولِ عمر

بن الخطاب منذ مئات السّنين؟ «متى استعبدتم النّاس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟» .

- قالها الفاروق في غياب الحريّة.

- أراهنكم على أنّه لو يعيش بيننا الآن لتنكّر لِمَا قال ولَمَا استطاعَ أن يكتبَ سطرًا في صحيفة كاسدة.

- الأرجح أنّه يفتتحُ إذاعةً لحسابه الخاص.

- بل سيشنقُ في عزّ الظّهر.

ضربَ رئيسُ الجلسة على المنضدة بقبضة يده قائلًا وسط لغطٍ لم يخف بعد:

- أرجو تركَ الأموات والتّطرّف جانبًا. غاية ما في الأمر أنّنا نريدُ معرفةَ أينَ يكمنُ الصّواب والخطأ في إعلامنا. بودّنا معرفة إن كان الإعلام العربي يقومُ بدوره على أكملِ وجهٍ أم لا؟ هذه غاية ما في الأمر.

عاد اللّغط والصّياح مِن جديد:

- يقوم بدوره طبعًا.

- أجل يقومُ بدورِه المرسوم.

- لا يقوم.

- بل يقوم.

يقومُ. لا يقومُ.. يقومُ.. لا يقومُ.. لا.. لا.. لا.. لا يقومُ.

انقلبت القاعةُ إلى خليّة نحل. لم يجرِ بحثٌ أو نقاش. هي عادة لا أكثر، فحين تكون الشّمس غزالةً تركضُ في براري السّماء نديرُ لها ظهورَنا. نبحثُ عنها ونسأل «أينَ هي الشّمس؟».

القضيّة محسومةٌ لخّصها سرحان بجملة واحدة قبل سنين «أزمةُ الإنسان العربي في جوعهِ إلى فاكهة اسمُها الحريّة». ولكنّ القوم ما زالوا يصخبون.

غادرت مُتخمًا بالقرف، لم يخفّف عنّي غير لقاء هنادي المرتقب.

في غمرة انبهاري بالعمارات السّامقة الأنيقة وبالشّوارع العريضة النّظيفة؛ بقدرةِ جاسم الفذّة على المناورةِ بين السّيارات وانعطافِه مِن شارعٍ فرعيّ إلى آخر؛ تنبّهتُ على صوتِه وهو يضغطُ على الكابح لتقفَ السّيارة بليونة:

- هل لاحظتَ مرورنا عن بيت عامرة؟

تساءلتُ بلهفة وعجب:

ـ أينَ؟

أشار بيده وقد اضطرَّ إلى الاستدارِة بجذعه:

ـ هناك في أوّل الشّارع إلى اليمين.

تلفّتُّ برغبةٍ حقيقيّة لرؤية البيت الصّغير الأنيق تتقدّمهُ حديقةٌ مزروعة بالورد شغلتني عن رؤية البيت، أمّا عامرة فلم أدرِ لم تمنّيتُ هذه اللّحظة بالذّات ألّا تكونَ عائدةً لتوّها مِن المدرسة؛ فتراني داخلَ السّيارة المسرعة ومن ثمّ أتوقّف عند بيت غير بيتها. لم أتمكّن مِن رؤيتِه فتساءلتُ بإلحاح:

ـ أينَ هو؟

فتحَ جاسم البابَ ومرق منه بخفّة ابن عشرين، ولمّا صرتُ على الأرض بجواره وضعَ يدَه على كتفي وسحبني إلى الرّصيف الآخر مشيرًا بيده إلى تقاطع الشّارع؛ حيث نقفُ مع شارعٍ يمتدُّ شرقًا وغربًا وربّما إلى الشّمال والجنوب، لست أدري بالضّبط فالجهات الأربع إمَّحت مِن ذاكرتي تمامًا في هذه المدينة الكبيرة. سألتُ بسذاجة:

- وأينَ دجلة بالضّبط؟

حدّقَ إليّ للحظةٍ محاولًا الرّبط بين سؤالي المفاجئ وبين حماسته في تحديدِ بيت عامرة. حماسة لم تجد لها صدى عندي فسحبَ يدَه عن كتفي وطوّح بها قائلًا:

- دجلة هناك.

لم أستطع متابعةَ يده حتّى إذا سقطَت بجانبه قلت وأنا أضمُّ يدي إلى صدري بانفعالٍ مصطنع:

- إذن ففي أوّل هذا الشّارع بيت عامرة؟!

أمسكتُ بكلتا كتفيهِ أهزّه برفق:

- يا لك من خبير يا عم جاسم!

تفشّى على وجهه السّرور طاردًا خيبةَ الأمل. دقَّ على صدره:

- ولو يا أستاذ! أعرف مخابئ النّمل في بغداد.

واندفعَ إلى جرسِ الباب يضغطُه بإصرار كأنّما يعرفُ أصحابَ البيت منذ زمن. تسمّرَت عيناي على الباب الدّاخلي المُغلق فيما تسارعَ قلبي معلنًا عن رهبةٍ؛ كتلك الّتي اجتاحتني وأنا في طريقي لزيارة عامرة في بيتها

لأوّل مرّة أتخيّلُ كيف سيستقبلُني أبوها. زوج هنادي لم يكن هذه المرّة هو السّبب. لم يخطر لي ببال حتّى نسيت تمامًا أنّها متزوّجة ولها زوج. أصابني مجرّد التّرقّب أنّها ستفتح الباب الآن بهذه الرّهبة وهذا الدّوار؛ يستشري في رأسي فما عادت رؤيتي للأشياء واضحة تمامًا. طلبتُ إلى جاسم بما يشبه الصّراخ أن يرفع يدَه عن الجرس آملا أن يأخذني إلى الرّصيف الآخر؛ يريني أينَ بيتُ عامرة بالضّبط فألمُّ شتاتَ نفسي المبعثرة، وإذ تستقبلني هنادي أكون رابط الجأش أكثر.

لم يمهلني الباب الّذي سبق انفتاحه درفة واحدة عن صرير مزعج رغم أنّه تخطّى عشرينَ مترًا؛ هي المسافة الفاصلة بيني وبين مدخل العمارة المكوّنة من طابقين. أطلّت هنادي برأسها أوّلًا من الباب السّفلي. رأتني فزالَ عن وجهها استياءٌ لهذا الإلحاح الأرعن. امتطت صهوةَ الفرح صائحةً «متروك». اندفعت خارجةً تزرّرُ روبَها الّذي استبدَلت به لتوّها ثيابَ العمل. اندفعتُ نحوها. التقينا في منتصف طريق ترابي تتوزع على جانبيه حشائش صفراء لم تنسّق كفاية ولم يُعتنَ بها؛ شأنها شأن الحديقة العاطفة من الزّهر والجمال.

اشتبكت منّا الأيدي. في غمرةِ صمتٍ رانَ على كلينا شاهدتُ دمعتينِ تنحدرانِ الهوينى من عينيها الواسعتين، حُمِلتا مِن رموشها الطّويلة الكحل، رسمتَا خطّين أسودين على خدّيها وغمرَت إحداهما شامتَها السّوداء. إنّها هنادي بشحمها ولحمها. هنادي بشامتها السّوداء المذهلة. هنادي رغم أنّها بكت أخيرًا، رغم أنّها ازدادت امتلاءً وغدا وجهُها أكثرَ استدارةً من قبل، ينضحُ بالصّحة والعافية.

لم أجد ما أعبّر به عن فرحة اللّقاء، عن سعادتي الغامرة برؤيتها أخيرًا. نسيتُ كلّ ما سبقَ من مشاحنات وضغائن. لم تعد أمامي غيرَ امرأة كانت فتاةً ذات يوم؛ ورحلت فجأة ولم أودّعها ولم أرها منذ عامين. كانت أسرع منّي إلى اليقظة والقول:

- متروك! الحمد لله على سلامتك.

سحبتني إلى الدّاخل وهي تمسحُ عينيها وخدّيها مِن أثرِ الدّمع:

- تفضّل. تفضّل.

لم أتذكّر جاسم إلّا بعد أن أخذتُ راحتي على كنبةٍ طويلة ضاعفَت قطيفتُها الخضراء النّاعمة من شعوري بالأمان. نهضتُ واقفًا وهتفت:

- نسينا السّائق.

قهقهت هنادي وغطّت وجهَها بيديها تخفي حمرةً غير معهودة أحدثَها الخجل:

- أحقًّا؟

أرسلتُ عيني عبر النّافذة إلى جاسم. كان ملقيًا بذراعيه على الباب الحديدي الصّدئ، يحدّق إلى الحديقة وربّما يفكّر مثلي لمَ هي عطَلٌ مِن الورد والشّجر. ناديتُه. رفعَ يده ولوّحَ بها بمعنى لا. ألححتُ عليه كأنّما أدعوه إلى بيتي. رفضَ بصوته الغليظ المُحبّب:

- خذ راحتك. سأنتظرُك في السّيارة.

وغاب خلف السّور الإسمنتي المجدور قبل أن تخرجَ هنادي تكملُ إلحاحي عليه بالدّخول.

أغلقَت الباب ووقفت أمامي تحدّق إليّ مبتسمة كأنّما لا تصدق بأنّني هنا فعلا. جلسَت أخيرًا بجانبي:

ـ كلّه ذوق هذا السّائق.

ولمّا تلقّت منّي نظرة استيضاح أردفت:

- يتركُ الطّيورَ المهاجرة تستعيدُ ذكرياتِها السّعيدة في أرض الوطن.

«أيّ ذكريات سعيدة وأيّ وطن؟». طرحتُ السّؤال على نفسي، وقبل أن أتوصّل إلى جوابٍ شاف ومنطقي، قالت وهي تلمس كتفي برفق كأنّما لتتحقّق ثانية بأنّني موجود وأنْ ليس حلمًا ما تراه:

ـ أهلًا بعمّان وأهلِ عمّان. أهلًا.

ضحكنا معًا لا لسبب غير أنّنا التقينَا رغم البعد، رغمَ ما لفّ علاقاتنا السّابقة مِن برود وجفاء. ظللتُ في خوفٍ مِن أن تثيرَ هجعةَ الذّكريات فتسحبَ أذيالَها السّوداء على صفوة اللّحظة الرّاهنة. إن أثارتها فلن آمنَ من نثرِ الصّديد الذي حملتُه في صدري زمنًا، لن آمن من صراحتي المخيفة المحرجة. بحكم العادة كلّما تلبّدَ الجو حولي بإرباك تناولتُ علبة سجائري كي أشعلَ اللّفافة من الأخرى الّتي احترقت. سارعت إلى وضعِ يدها على يدي، سحبَت العلبة ودسّتها في جيبي. تناولت لفافةً من

إحدى العلب الموزّعة على منضدة أمامي، أخذتُها بعدما أبديتُ مخاوفي من اختلاف نوع التّبغ. حاولت جاهدةً أن تأخذَها منّي خشية أن أصاب بالأذى.

حرصها الصّادق هذا دفعني إلى إظهار المزيد من التّضحية. أشعلتُها في التّو وسحبتُ منها نفسًا عميقًا حجزتُه أطولَ مدّة ممكنة؛ ثمّ نفثته باستمتاع مخفيًا بصعوبة اشمئزازي مِن طعمه اللّاذع الحَريف. قدّمتُ لها لفافةً من علبتي فهزّت رأسَها رفضًا قبل أن تنكّسه قائلةً بشيء من الأسى:

- لقد تركتُ التّدخين.

ثمّ استدركت:

- لا أدخّن إلّا في المناسبات.

ولكي تدلّلَ أنّ التقاءها بي مناسبة سعيدة مدّت يدَها إلى اللّفافة قبل أن يغيبَ نصفُها الثّاني في العلبة:

- فقط سآخذها لأنّها منك.

تركتُ يدي مشرعةً نحوها بالولّاعة مشغولة بالتّحديق إلى اللّفافة بخشوع:

- صناعة عمّان؟! ما أروعها!

أخذت تسحبُ منها أنفاسًا عميقة متلاحقة بما يشي أنَّ استمتاعها ليسَ مردّه إلى أنّها مِن صُنعِ عمّان وحسب. ترفعُ وجهها إلى السّقف وتنفثُ الدّخان فيندفعُ مِن بين شفتيها المزمومتين في خطٍّ مستقيم؛ ثمّ ينفثىءُ غيمةً صغيرةً داكنة لا تلبثُ أن تتوزّع حلقاتٍ زرقاءَ تدورُ على نفسها؛ ثمّ تهبط نُتفًا مراوغةً تشتّتُ فلولَها مروحةُ السّقف، قبل أن تهفو على هنادي تقبّلُ وجهها السّعيد الغارق بالفرح وذكرياتٍ ربّما تعيشُ في رأسها الآن، ولم تأتِ على ذكرها بعد. خلتُ أنّها نسيت وجودي. رغم الإحساس بأنّي مُهمل، التفتُّ إليها وهي في هذا الوضع ساهمة، مستسلمة لدفق مشاعر لذيذة باتت تجتاحُها كما تجتاحني.

لأوّل مرّة أراها امرأة كاملة الأنوثة. مرارًا من قبل حاولت البحثَ عن الأنثى فيها فلم أفلح رغم ما كان عيسى الضّامر يؤكّده لي ولغيري؛ أنَّ كلّ بوصة من جسدِها لها طعمٌ مغايرٌ ومذاقٌ لا يُنسى. «جسدُها فاكهة الصّيف والشّتاء».

في هذه اللّحظة فقط تذكّرتُ زوجَها ولكن سحبَته منّي خارطةٌ معلّقةٌ في الرّكن المقابل. حجمٌ صغير ولكنّه

واضح بما يكفي لأحدّد من مكاني موضع الرّملة بلدتي. انشغلتُ للحظةِ في التّفكير بمن عساه يتذكّرها مثلي ويعلّقُها في حُجرةِ الجلوس. هنادي يا ترى أم زوجها؟

قلتُ بعدما جلوتُ حلقي بقصدِ جلب انتباهها:

- يا الله؟ خارطة فلسطين؟!

نهضتُ إلى الزّاوية أحدّق إليها عن قرب. أطوفُ عليها وأستقرّ عند نقطة غاية في الصّغر. أستقرُّ عند الرّملة فتهيجُ ذكرياتٌ زرعها أبي في رأسي بصوته العميق المؤثّر، يحملُ بيتَنا بحُجرته الوحيدة الواسعة، وشجرةَ الزّنزلخت الأم والرّوابي الّتي سال عليها دمُه، يحملُها في زفّة عرس أو في نعشٍ مهيب حسب حالة التّفاؤل بالعودة أو اليأس. لا يكادُ يصدّق حينَ يفتح عينيه على الخيمة أو البيت الطّيني في المخيم أنْ ليس كابوسًا ما هو فيه. يترقرقُ في عينيه الدّمع «هل نحن في حلم بغيض أم حقيقة مذهلة؟». يطرقُ برأسه طويلًا إلى أن ينتهرَه والد سرحان:

- يا رجل كفاك ندبًا، ما كان كان وانتهى. خازوقٌ دخلَ من هنا وخرج من هنا.

يشير إلى إليتيهِ ورأسهِ ثمّ يحوقلُ ويبصقُ مرارةً تخثّرت في حلقه مع زوابع المخيم؛ الّتي لا تنفك تستعرضُ جيوشها المدجّجة بالغبار. يضربُ أبي كفًّا بكف مغتاظًا:

- السّلاح ما كان ينقصُنا والتّنظيم.

يهزّ والد سرحان رأسَه استنكارًا ويهدرُ صوتُه لا تقريعًا هذه المرّة بل غيظًا لا يدري أينَ يسكب زيته المُحرق:

- لو ملكنا في حينه سلاحَ العالم كلّه لن يفيد. الدّول كلّها تآمرت علينا، كلّها بلا استثناء.

يتدخّل سرحان بعد أن سكتَ طويلًا على مضض:

- ليقفَ العالمُ كلّه ضدّنا إن أراد، لن نسكتَ عن حقّنا المشروع في أوطاننا، لن نسلّمَ بالهزيمة ومِن ثمّ نصلي ركعتين على روح الوطن.

يشيعُ السّرور في وجه أبي ويربتُ على كتفه ممتنًّا مباركًا بينما يسدّدُ إليه أبوه نظرةً اختلطَ فيها القهر بالإشفاق:

- وماذا ستفعل؟ هل ستصرخُ من الألم والعريّ والجوع؟ اصرخ ما شئتَ لنرى مَن يسمعُك.

أطرقَ سرحان برأسه طويلًا. لم يَرُد في حينه. جاء ردُّه بعد حزيران مباشرة، تزنّر بالقنابل والرّصاص وعبر النّهر مرارًا وعاد بالغبار على ثيابه، عاد بأكياسِ الفرح. ظلَّ أبي يرجوه أن يعلّمَه عبورَ النّهر فظلَّ يماطلُه إلى أن فقدَ الخيار مثله بالبقاء؛ فتبعَه إلى بيروت يقفزُ كالشّباب ويضربُ على الرّشاش دون أن تزوغَ ساعدُه أو يرتد.

في رسائله إليّ حدّثني سرحان عن سعادة أبي وكيف أنّه بات سريعَ النّكتة، يضحك باستمرار «لو رأيته الآن لن تعطيه أكثر مِن أربعين سنة... كحدٍّ أقصى». أعجبُ كيف تغيّرَت تلك الكتلة المعجونة باليأس والسّأم، كيف باتت تنبسطُ تلك الجبهة العريضة تتمركزُ فيها عبوسةٌ دائمة كأنّما ألحدَ لتوّه عزيزًا بيديه. حين التقيتُ الحاج رضا في دكّان الخردوات أدركتُ لأوّلِ وهلة أنّه صاحبُ نكتةٍ يجلو بها قلبَه، ويُسرّي عن الغير بطريقة محبّبة لا تفقدُ جدواها. وقفتُ لحظتَها على السّر في شيخوخةِ أبي المبكّرة، وتعجّبتُ من صداقةٍ ربطَت بين الاثنين أيّام الشّباب والكفاح. فسّر لي الحاج رضا هذه المعضلة فيما بعد:

- ليس أبرع مِن والدِك حديثًا ولسانًا وبديهةً حاضرة، ولكنّها الأيّام الغادرة قصّت جناحيه وهو الّذي بفطرته مرهفُ الحسّ تدورُ طاحونتُه مِن نسمةِ طفلةٍ عابرة.

ويقول سرحان مفاخرًا وقد وضعَ تحت حروفه خطًّا عريضًا:

- إنّه سمكة أُخرِجَت قسرًا من الماء وحين عادت إليه انتعشَت وربَت. اختارت بنفسها أينَ تضعَ بيضَها الملوّن.

فخرُ سرحان بأبي ذكّرني بزهوي وأنا أحملُ صداقته وسامًا على صدري. أفاخر بدوري أنَّ مَن يتزنّر بالقنابل والرّصاص، مَن يعبرُ النّهر صديقي. أفاخرُ بأنّني صديق ذاك الجواد الّذي وصلَ خط النّهاية أخيرًا وربح السّباق. أفاخرُ وتجتاحُني الغَيرة من أنَّ أبي وجدَ له آخرَ الأمرِ ابنًا غيري يبني من أفعاله المجيدة قصرًا منيفًا، يدخلُ حُجراتِه ويتفرّج عن قرب بينما أنا ملقًى على حدود صحراء قاحلة لا ماءَ فيها أو هواء. أجترُّ ذكرياتٍ عزيزة وتجارب مؤلمة وأقضي الوقت حالمًا بالتّغيير.

تنبّهت إلى أنّي ما زلتُ واقفًا أمام الخارطة الصّغيرة بلا حراك وكتفُ هنادي يلامسُ كتفي. تساءلت باهتمام:

- أأنتِ مَن وضعها هنا؟

تساءلتُ وكلّي دهشة مِن أن تكونَ قد فعلت هذا فحقّقت ولو جزءًا مِن دعواها بأنّها تعيش آلام النّكبة كالفلسطينيّين وربّما أكثر. هزّت رأسَها نفيًا:

- بل وجدتُها هنا أمامي.

هتفتُ بفرح:

- أوتعنين أن زوجَك...!

ضربتني على كتفي مُلاطفةً.

- أو لم تكن تعرف حقًّا؟

من أينَ لي أن أعرف؟!

فرّت إلى الدّاخل وهي تلفُّ عنقها نحوي:

- وهل خامرك الشّك في أنّي أقبلُ بمنيب زوجًا لو لم يكن فلسطينيّ الجذور!

قبل أن تغيبَ خلفَ باب موارب، توقّفت هنيهةً هازّة يدها بمعنى «لن أسامحك على سوء الظّن». رغم إحساسي بأنّي طيرٌ يعودُ بعد نهارٍ صعب إلى عشّه وفراخه، شعرتُ بهبوطٍ في القلب كأنّما أقفزُ مِن علوٍّ شاهقٍ بمظلّة مثقوبة. هنا أيضًا دمعةٌ كبيرة مِن أيّار. هنا كما في عمّان

وبيروت دموع. في أنحاء العالم تبعثرَت أشلاءُ شعبٍ واحد ينزلُ أنّى ذهب ضيفًا ثقيل الظّل. حتّى وهو على أرضِه رأته الشّعوب المتحضّرة ضيفًا وعابر سبيل. زرعَت تحته الدّيناميت أصابعُ حاقدة. زرعتها في الرّأس وبين الفخذين وفي العينين. بقيت إلى ميعادها الموقوت وانفجرت في أيّار، في حزيران، في كلّ الشّهور المحمّلة حقدًا وضيقًا ولعنةً. «كلّ فلسطيني مهدورٌ دمُه أو يذهب إلى الجحيم».

هكذا الحال، لا في بيروت وحسب بل حيثما حلَّ وارتحل. ضيفٌ ثقيلُ الوطأة لا تتقبّله سماء أو أرض. إن كان هذا جنونًا أو مجاراة لواقع الحال، فلا يُشبِعُ الرّضيعَ غيرُ ثديِ الأمِّ، والأمّ هناك. الأمُّ هنا على هذه الرّقعة الصّغيرة الكبيرة. عبَرَ لها سرحانُ مرارًا وعبر الآخرون سنونو يهاجرُ ومِن ثمّ يعود، وأنا أكتفي بالفرجة. تلمعُ في وجهي سكّينُ الغربة. يدورُ نصلُها المرهف على عنقي متأهّبًا للقطعِ وأكتفي بالفرجة. «كيفما كنتَ أنتَ مقتول. حيثما استدرت أو تلفَّت أنتَ مقتول، إن حملتَ رشّاشًا أو غصنَ زيتون، إن سكنت أو تحرّكت أنتَ مقتول، فتحرّك». ليسَت نبوءةً أطلقَها سرحان ومضى. إنّه واقعٌ مرير. إنّه

الشّوك يطغى رأسُه المدبّبُ على أزرارٍ من الورد شاحبِ اللّون.

أغمضت عيني طويلًا كيلا تفجعَني الرّؤية فظلَّ الشّوك مناخسَ تؤلمُني في الصّحو والنّوم. ظلَّ حلقي بوّابةً مُشرعة تعبرُ منها المرارة أرتالًا محمّلة بالدّمار. جُرذٌ أنا أقرضُ الحديد، تسقط أسناني تباعًا ولا يهترئ الحديد. ساحةُ اشتعال دائمة تقومُ في صدري الحرائق فأطفئُ اللّظى بالسّكون أو النّفخ آهاتٍ محمومةً تضرِمُ اللّهب. سرحان إنْ قُتِلَ لأنّه تحرّك فأنا قتيلٌ بالرّكود، برصدي الواقعَ عن قربٍ وعن بعد. قتيلٌ باشتعالِ الحرائق، أوقدَ فتيلَها سرحان وأبي والمخيّم وشجرةُ الزّنزلخت الرّاحلةُ معنا حيثُ ارتحلنا تجسّدُ اليأسَ والأمل. ترسمُ أوراقُها خطًّا بيانيًّا يصعدُ ويهبطُ حسبَ الحال ولكنّه لا يبلغُ القمّةَ المنشودة؛ كأن يقيمَ الفرحُ عرسًا يلملمُ الدّمع ويُلقي به إلى قرار سحيقٍ فيلتمُّ شملُ المعذّبين في الأرض، شملُ المُشرّدين.

طالما حكى أبي عن الشّجرة الأمّ أمام بيتِنا في الرّملة. لم أرها إلّا في عينيه ولكنّي حملتُ منها أثرًا باقيًا يشدّني إليها كلّما طواني النّسيان. أحملُ إصبعي المعوجّة مِن حَجرٍ رماني به وأنا ألعبُ تحتها شريف يوسف الّذي صارَ

فيما بعد شريف حموري. أدمى الحجرُ إصبعي أنا فيما انقلبَ شريف إلى أمّه يحدّثُها عَن صراخي ويضحك. كان هذا في الرّملة في غيبةِ الوعي، وحين حكى أبي عن تلك الحادثة صادقَت عليها إصبعي المعوجّة؛ ترسمُ خطوطًا غير مستقيمة على طريقِ التّشرّد والضّياع. صادقَ عليها شريف، نلعبُ في ساحةِ دنيا واحدة، أُصابُ أنا ويَسلمُ هو ثمّ يفتحُ شِدقيه ويضحكُ مِن فقري ومثاليّتي، يضحك من إصبعي المعوجّة وينفي أنَّ الدّنيا حظوظ.

وصلني صوت هنادي من بعيدٍ زاخرًا بالدّهشة:

ـ أما زلتَ واقفًا أمامها؟!

التفتُّ مأخوذًا لوقفتي الطّويلة القصيرة، رأيتُها تحملُ كوبينِ مِن الشّاي. قالت بحزمٍ وقد أشفقَت مِن تلكّئي واربدادِ سحنتي كما عكسَه زجاجُ الخارطة:

ـ تعالَ واجلس.

جلستُ.. جاءت ووضعَت الشّاي أمامي:

ـ ما زلتُ أذكرُ أنّك لا تحبُّ القهوة.

ثمّ وهي تجلسُ ضاحكة:

- كيف ترى ذاكرتي؟

- جيّدة.

أخذتُ أوّل رشفةٍ لم يكتمل مذاقُها بغير لفافة أسحبُ منها أنفاسًا عميقة كلّما رطَّبَ الشّاي السّاخن حلقي.

- وشايُك أيضًا جيّد.

جلست بجانبي وهي تصوّب إليّ نظرةً مباشرة:

- ها أنتَ تتقنُ المجاملة!

أدركت أنّها إشارةٌ لمَا عُرف عنّي مِن صراحة جارحة أحيانًا، ولكي تبعدَ عنّي هذا الظّن اعترفَت بأنّها ليست طبّاخة ماهرة على أيّ حال؛ وأنّ هناك الكثير ممّا يمكنُها أن تتعلّمه. أخذَت رشفةً كبيرة، تمطّقَت بها تلذّذًا:

- هذا تواضع، شايُك على الأقل في منتهى الرّوعة والإتقان.

ابتسمت بسرورٍ حتّى لامست شامتُها السّوداء حافّةَ أنفِها:

- شهادة من خبير أعتزّ بها.

تلاشت ابتسامتُها فجأة، تناولت كوبها وأبقته بين يديها تحدّقُ إليه ساكنة، ثمّ قالت بلهجة محايدة:

- كان عيسى يحدّثني عن ولعك بالشّاي والسّجائر تدخّنُها واحدةً إثرَ واحدة.

قبل أن أستشفَّ مِن كلامها إن كان مُقدّمة للحديث عن عيسى الضّامر، أردفَت بصدقٍ وحرارة:

- الحقّ إنّه كانَ يتحدّث عنك باستمرار. يتحدّث عمّا تتمتّع به مِن صدقٍ في التّعامل، ووفاء للأصدقاء، وطبعٍ في الإيثار نادر.

لوحت بيدها تبرّمًا وأكملت:

- عن صفاتٍ كثيرة غدَت بين النّاس غريبةَ الوجه واليد واللّسان، حتّى غدا الحديث عن وجودها لا يصدّقُ كالحديث عن الغول والعنقاء. أمّا الخلّ الوفي فقد أثبتَه عيسى الضّامر فيك.

وضحكت بعدما أخذت مِن كوبها رشفةً صغيرة علِقَ نصفُها بين شفتيها المكتنزتين مكسبًا الحُمرةَ الصّناعيّة لونًا رائعًا:

- هل أنتَ على علمٍ بأنّك أنقصتَ المستحيلات الثّلاث؛ وأبقيتَ على اثنينِ مخيّبًا ظنَّ مَن وضعوا القولَ هذا حيث استشرى منذُ مئات السّنين؟

ولأنّي لم أتأكّد بعد أنَّ كلامها هذا ليس مدحًا خالصًا لي مِن دون عيسى الضّامر الّذي تُظهِرُه بصورةٍ مُغايرةٍ عمّا استقرَّ في ذهني عنه، قلت:

- عيسى يبالغ. أوَ لَم تعرفي أنَّ مِن عادته المبالغة؟

هزّت رأسَها مرارًا وبإصرار فلم أدرِ إن كان هذا دفاعًا عنه أم أنّها تجاملُني وحسب لأنّنا التقينا في مكان آخر غير عمّان. مع هذا قلتُ في تواضعٍ جمٍّ على أملِ أن تؤكّد ما قالته:

- شخصٌ واحد أعجزُ مِن أن يُغيّر حقيقةً أثبتَت صحّتَها التّجربة، وشخصٌ آخرُ يؤكّدُ بطلانها لا ينفي هيمنَتَها بحال.

عادت تهزُّ رأسَها بإصرارٍ أشد:

- لقد توصّلتُ إلى هذه الحقائقِ عنك بنفسي.

ثمّ صمتت برهةً تُحدّق إلى صورتِها المنعكسة على صفحةِ الكوب:

- لقد هاجمتُك مرارًا وبضراوةٍ كما تعرف، ولكنّي اعترفُ لك الآن كما اعترفتُ لنفسي من قبل بأنّني كنتُ أغـالطُ نفسي بتزييفي حقائقَ ظاهرة كعين الشّمس. لقد وقفتُ على معدنِك الطّيّب ومع ذلك غالطتُ نفسي. لماذا؟

مطّت شفيتها، وهي تخصُّني بنظرةٍ غائمة:

- لم أدر في حينه؟

- والآن؟

تساءلتُ بلهفةٍ ورغبة في أن تمارسَ الاعتراف وتقولَ المزيدَ عن خصالي الحميدة المطمورة، يعذّبني أن أقعَ تحتَ طائلتِها وآثارها العكسيّة، يعذّبني أكثرَ وجودُها في زمنِ مَن ليس فيهم خصلةٌ واحدةٌ طيّبة؛ وقد غادروا دائرةَ الفقر والعذاب إلى أرصدةٍ ضخمة في المصارف، إلى السّيارات الفارهة والقصور. صادقَوا أكثرَ مِن امرأةٍ جميلة وناموا بسلام حتّى الظّهر دون أن يتقلّبوا مثلي على الجمر كلّما طلعَ صباحٌ أو دجى اللّيل. ها أنذا أحملُ معي وجوهَ آل حمّوري وصلاح وهدان القتيل باللّؤم، أحملُها

حيث ارتحلتُ ويقتلني العذاب. كيف ترجحُ كفّة النّفاق دائمًا وكيف يحتلُّ الزّيف والجشع كلّ الزّوايا؟

عادت هنادي تحدّق إلى صورتها المنعكسة على صفحة الكوب قائلةً بصوتٍ عميق يخرجُ مِن صدرها محمّلًا ببخار الصّدق:

- منذ أن تركتُ عمّان وأشياء كثيرة تضغطُ روحي. الحياة، الصّحيفة، الزّملاء، الشّعر، القصّة، الأصدقاء أيضًا. الشّهر الأوّل على وجه الخصوص كان مرعبًا.

قلتُ بقصدِ التّخفيف عنها مع يقيني بأنَّ لعيسى الضّامر ضلعًا في الرّهبة والعذاب:

- كلّ بدايةٍ صعبة سيما إذا تغيّرت الوجوه والمحيط.

أكملت كأنّما لم تسمعني:

- كان المفروض أن ألقي بكلّ شيء خلفَ ظهري لأسعِدَ الرّجلَ الّذي اختارني من بين مئات النّساء؛ كما اخترتُه مِن بين رجال كثيرين تهافتوا عليّ. كان هذا هو المفروض والمنطقي، ولكن حدث ما ليس في الحسبان. ظللتُ موزّعةَ النّفس، مشتّة الذّهن، لا أقوى على التّركيز.

أفكّر في كلّ شيء ولا أفكّر في شيء. حالةٌ من الضّياع التّام سقطتُ فيها تمرُّ لحظاتُها على عنقي كالمنشار.

ابتلعَت زفرةً كثيفةً وأردفَت:

- لو لم يقف منيبُ إلى جانبي، لو لم يكن صبورًا كفايةً لربّما حدثَ لي مكروه. ربّما كنتُ قد جننتُ أو انتحرت.

أثّرَت فيَّ لهجتُها الغائبُ منها السّطوةُ والغرورُ المعهود:

- حالةٌ رهيبةٌ حقًّا.

ولأنّها خرجَت منّي باردةً خلافَ ما أشتهي وما يفرضُه الحال استطردتُ:

- المهم أنّ الأمر قد انتهى بسلام.

رفعَت وجهَها إلى السّقف:

- الحمد لله. حقًّا ما قلتُ كان بدايةً صعبة والعبرة في النّهايات السّعيدة.

تطلّعَت إليّ باسمةً ولكنّها ابتسامة غير خالصة الضّياء، هفَت إلى صفحةِ الكوب ثانيةً تحدّق إلى صورتها. أحسستُ أنّها باتت امرأة أخرى غير هنادي الّتي أعرفها ضاحكة، مستبشرة، مقبلةً على الحياة. ولكن هذه أقرب

إليّ من تلك. قريبةٌ لدرجة الالتحام. بمقدوري أن أكملَ عنها ما تريدُ قوله والبوح به. فإن كانت هذه حالتُها الجديدة فقد أدمنتُ على نسختها الأصليّة منذ زمن لا أستطيع تحديدَه بالضّبط. ربّما منذُ أن فتحتُ عيني على شجرة الزّنزلخت والخيمة والعقارب تخرجُ كراديسَ هاربة وأنا أصبّ في جحورها الماء. هذه هي الحالة المقيمة ولكن أينَ أنا في رحلة ضياعِ هنادي؟ ما دوري أنا!؟

قالت كأنّما تقرأ أفكاري:

- أنتَ بالذّات كنتَ مصدرَ جزءٍ غير يسير من عذابي.

تطلّعتُ إليها مدهوشًا، لم أتوقع أن يأتي اعترافُها على هذه الصّورة الحادّة. رفّت رموشُها الطّويلة وتابعت:

- كيف ظلمتك؟ كيف تجنّيتُ عليك؟ كيف كلتُ لك التّهم جزافًا؟! هذا وغيره كان بمثابة نقّار الخشب وأنا الجذع اليابس ينزلُ عليّ منقارُه بشراسة.

وضعَت على المنضدة كوبَها الّذي لم تشرب منه شيئًا يُذكر... أخذت تعبث بأصابعها وهي مطرقة:

- حين فكّرتُ في الأسباب، حين استطعتُ التّفكير بهدوء، توصّلتُ إلى حقائق مذهلة. توصّلتُ إلى أن كلّ انتقاداتك شعري وقصصي وأسلوب حياتي ونظرتي السّطحيّة للأمور استثارتني فقط لأنّها صحيحة وصادقة؛ لأنّها أجبرتني على الالتفات إلى داخلي، فوجدتُ الرّفض لما أفعل نابعًا مِن هناك، ولكن للأسف لم أتراجع بل ركبتُ رأسي وغصت حتّى في الوحل.

رفعَت وجهَها إلى السّقف وقد غزا صوتَها ارتعاشٌ طارئ:

- مكابرة كما ترى، ولكنّها تتّفقُ وتلك الحياة الّتي طلّقتُها وطلّقتني.

وصل حديثها حدًّا مِن تأنيب الذّات ممّا لم أرغب فيه هذه اللّحظة على الأقل، ولو أنّه سرّني اعترافُها المتأخر هذا، وسرّني أكثر أن أتركَ أثرًا في غيري لم يظهر في حينه.

قلتُ غيرَ عالمٍ أنّني إنّما أدفعُها إلى مزيدٍ من الاعتراف:

- أنتَ تبالغين ولا شك!

التفتَت إليّ وهزّت رأسَها نفيًا. لمحتُ في عينيها صفاء وإصرارًا على أن تنضحَ مِن نفسها كلّ ما يسبّب لها الألم:

ـ لا تبخس نفسَك حقّها من الثّناء والتّقدير. صدّقني إنّك مثالٌ نادرٌ للرّجولة لا يلتقيه المرءُ إلّا صدفةً وكلّ بضع سنين مرّة.

غاب صوتُها خلف ستارٍ ضبابيّ غير شفاف.

ـ حين أفكّر أو أتذكّر مَن عرفتُهم أو التقيت بهم في عمّان أجدُك أكثرَهم صدقًا ووفاءً، أكثرَهم معرفةً بحقائق الحياة بعيدًا عن الوصوليّة والانتهازيّة وحبّ الذّات.

التفتَتْ إليّ وقد غدا صوتُها أكثر قوّة كأنّما تريدُ أن أحفرَ كلماتها في رأسي للأبد:

ـ يكفي أنّك لا تطعنُ في الظّهر كما يفعلُ الكثيرون. يكفي أنّ لك وجهًا واحدًا تمرّ عليه الفصول تباعًا ولا يتغيّر.

صمتَت برهة، أفسحَت هذه المرّة لتنهّدةٍ صغيرة أن تصعدَ مِن صدرها المضغوطِ بالذّكريات.

ـ لمستُ هذا حتّى قبل أن يؤكّده لي عيسى. لذا بكيتُ كثيرًا حين لم أجدك في وداعي حين رحلت.

افترّ ثغرُها عن شيء لم يبلغ درجةَ الابتسام ولكنّه أبلغ مِن فتح الذّراعين لاحتضان عزيز.

ـ ما دمتُ قد فتحتُ بنفسي باب الاعتراف، فأقولها للمرّة الأولى أنّي كنتُ أحسدك. ضغطني الحسدُ في أكثر مِن مجال سيما حين رأيتكَ تعملُ وتكتبُ بصمت، تديرُ ظهرَك للطّعنات، وتمضي في طريق الإبداع بلا كللٍ أو ملل. لو كان مكانك جبلٌ لانهار وتفتّت، ولكنّك صمدت ولا تزال صامدًا. لم تشعر حتّى بي أو أنّك شعرت فوجدتَ خيرَ ردّ عليّ هو الإهمال. لقد حسدتُك وهاجمتك لهذا ولمَا تتمتّعُ به مِن تقديرٍ واحترام مِن قبل العاملين في الصّحيفة والمشتغلين في الأدب دون أن تضطرَّ إلى المداهنة والرّياء. حسدتُك وعيسى الضّامر لا يأتي على ذكرِك إلّا وقال معجبا: «رجل عجيب، رجل مدهش». ربّما لم تلمس منه ذلك رغم صداقتكما الحميمة، فهو أيضًا مثلي، رغم حبّه الثّرثرة والادّعاء استعصى عليه الاعتراف لأحد غيري بمزاياك النّاطقة. تساءلتُ أكثر مِن مرّة. هل تراه يحسدُك بدوره أم أنّه يتّخذُ من مدحه إيّاك وإعجابِه بك مقياسًا لما تبقّى لديه تلك الصّفات، صفات يديرُ لها ظهره في الغالب ليسبحَ مع التّيار الجارف لا بعكسه؟!

سكتَت كأنّما تتركُ لي مهلةَ التّفكير فيما قالته وطرحتهُ مِن أسئلةٍ مثيرة لدى الكثير من أسئلة مماثلة. أهذا ما تودّ قولَه فقط أم أنَّ هناك الكثير ممّا ينتظرُ دورَه للإفاضة والبوح؟

هل وازنَت بيني وبين عيسى الضّامر حقًّا قبل أن ترحلَ أم أنّ تخلّيه عنها على تلك الصّورة الممجوجة؛ هو ما أثارَ لديها حبَّ الموازنة والكشف عن حقيقتهِ الّتي أدارت لها ظهرها طويلًا رغم معرفتها الصّواب والخطأ؟ ما أخمّنه، وما لم تقله أنّني كنتُ سادرًا في سذاجتي، أنظرُ إليها مِن خلال زجاج معطّش بينما هي تراقبني عن كثب، ترصد حركاتي، تدرسُني، توازنُ بيني وبين عيسى الضّامر فتهفو إلى نقيضي انتقامًا من صفاتي الطّيبة الّتي لم يهب شذاها عليها. تبحث عن تلك الصّفات والخصال، تخفيها في حرزٍ حريز وتُظهِرُ عكسَها. تظهِرُ الضّغينةَ والكرهَ، تفرشُ في طريقي المثالب وتدسُّ ذراعَها تحت إبط الضّامر لأنّه الوجهُ الآخر لذاك الّذي لا يعيرها أدنى اهتمام، ذاك الوحيد ربّما الّذي لم يجاملها ولم يطرِ حسنَها وجمالها، أمّا روعة إبداعها فآخر ما فكّرتُ بهِ إن صحَّ هذا التّخمين.

هل هذه هي الحقيقة أم أنّه مجردُ وهم وخيال يرضي غروري ويشدُّ من أزرِ ثقتي بنفسي المُزعزعةِ في دنيا المرأة؟ كم هو مدهش لو اكتشفتُ حقًّا أنَّ هناك مَن تعذّبت بسببي دونَ أن أعيرها أدنى اهتمام، دون أن أشعرَ بها. ماذا يعني قولها أنّ عيسى الضّامر يُكِنُّ لي حبًّا عظيمًا

رغم أنّه يتستّرُ على صدق عواطفه؟ هل يرضيني حقًّا أن تتوغّل هنادي في الاعتراف؟ أم أنَّ هذا القدر يكفي لأكمل الباقي من عندي فلا أسمعُ منها ما ينفي ظنوني؟

نهضتُ أنوي الذّهاب متعلّلًا بالسّائق الّذي لا يجوز أن أدعه ينتظرُ طويلًا. تشبّثَت بكلتا يديّ منزعجة:

- إلى أينَ؟ اجلس. فالغداء جاهز.

- غداء؟

تساءلتُ بذعر فصالبت ذراعيها أمام صدرها ورنت إليّ بدلال:

- أجل غداء. وهل توقّعت حقًّا أن أترككَ تذهبُ بلحم بطنك؟ ماذا ستقول عني في عمّان؟ بخيلة ولا أعرف الأصول؟!

- ولكن!

تهاويت على الكنَبة من جديد بفعل دفعةٍ من يدها:

- إن عادَ منيب ولم يجدك سيقيمُ الدّنيا ولا يقعدها. أنتَ لا تعرفه. إنّه في منتهى الشّهامة والنّبل.

لم أستطع لأوّل وهلة تفسير أن كيف يمكن لرجل لا أعرفه ولا يعرفني أن يغضبَ لغير دخولي بيته في غيابه وانفرادي بزوجته؟ وحين وقعَت عيناي على الخارطة جاءني الجواب مِن هناك. سيغضب حقًّا لأنّني أعرفُه ويعرفُني وإذا ما عاد سيكون بيننا كلام كثير.

- لقد حدّثته عنك. لا أعني أنّها أوّل مرّة أحدّثه عن معارفي وأصدقائي وجبهاتي المفتوحة في عمّان، بل حدّثتُه عن قدومك فكان أكثر اشتياقًا لرؤيتك والتّعرّف بك. أصر عليّ أن أدعوك لتناول الغداء.

- وأنا أيضًا مشتاق لرؤيته والتّعرف به، ولكن لا ضرورةَ للغداء، لا ضرورة على الإطلاق.

هزّت سبابتَها بحزم:

- بل كلّ الضّرورة، الإنسان إذا جاع يشتاقُ ويسمعُ بمعدته.

ثمّ وهي تستديرُ ذاهبةً إلى الدّاخل:

- بخاصة الرّجال، إذا ما جاعوا فقدوا السّيطرة على العقل والقلب معًا.

غابت هي فيما غبتُ أنا في تخمين ما يمكن أن تكونَ قد حدّثت زوجَها عنه. الزّملاء، الأصدقاء، الجبهات المفتوحة؟ ربّما، أمّا عيسى الضّامر فكيف لها أن تحكي عنه؟ وماذا عساها تقول دون أن تكشف المخبوء والمحرج؟ لا يعقل هذا إلّا أن تكون قد حملت معها الكره لعيسى، الكره المسحوق بخيبة الأمل فيما توقّعَته وفيما حدث من بعد. الكره هو الدّافع أم أنّه الاعتراف كما تفهمه ليسَ مجرّدَ فتح صفحة جديدة بقدر ما هو من سمات المرأة العصريّة؟ من حقّها حين تبدأ حياة جديدة، أن تمرَّ على سطور الماضي ببهجةِ هذا الماضي وحضورِه المدهش في الذّهن، حتّى إذا ما رمته مِن وراء ظهرها وجدَت أنَّ من حقّها أن تحتفلَ ويحتفل الآخرون بهذا الفتح الجديد؛ ومن ثمّ تمضي واضعةً يدَها في يد الرّجل الّذي اختارها من بين مئات النّساء، أو اختارته وفضّلتهُ على الكثيرين ممّن تهافتوا عليها.

رجلٌ كهذا وصفته بالشّهامة والنّبل ويحملُ فلسطين في قلبه إلى بغداد، مِن حقّه أن يعرفَ عن ماضي الّتي اختارها كلّ شيء، فهل حقًّا أخبرته عن عيسى الضّامر؟ أم أنّها كذَبت عليهِ وباتَ من واجبي أن أفتحَ عينيه على هذا الماضي كيلا يظلَّ مخدوعًا؟ كيلا تفلحَ في خداعي

بزعمها أنّها أخبرته بكلّ شيء؟ كلّما اقتنعتُ بأنّها صارحته فلملمَ ماضيها وأشعلَ في ركامه النّار، عدتُ إلى قناعتي بأنّ كرهها لعيسى إن حدث كبهجةِ الاعتراف لا يكفيان لتقليبِ صفحاتٍ سوداءَ غير مشرّفة؛ إذ يظلّ عيسى مَن حرثَ أرضها البكر، يظلُّ مَن كتب السّطور الأولى حتّى وإن فرض عليها نهايةً فاجعة، فكيف يمكنها أن تتنكّر على هذه الصّورة الفجّة لمن رسمَ لها أوّلَ خطٍّ معوجٍّ وسارت عليه؟

لم أسال عيسى الضّامر في حينه أن كيفَ تركَها تذهب. لم أسأله لأنَّ الإجابةَ تكرار لما كان يردّدُه كلّما أتينا على ذكر هنادي؛ ورأيتُ أنّ مِن واجبه رغمَ كلّ الاعتبارات أن يتزوّجها. «أتزوجها؟ هل جننت؟ عفوًا. أعني أنّك مثاليّ حتّى في هذه الأمور. ثمّ إنّها لا تفكّرُ في الزّواج، وإن هي فكّرت فلن تطالبني به، وهذا أروعُ ما فيها، والأروع أنّنا متزوّجان ولا تنقصُنا غيرُ شهادة المأذون».

أصفه بالنّذالة والانتهازيّة فيضحك بصوتٍ عال كأنّما سمعَ منّي نكتة:

- أمعِنْ النّظرَ قليلًا تجد منتهى الرّوعة أن يجني المرءُ شتّى المتع دون أن يثقلَ عليه شيء. دونما مسؤولياتٍ تؤُود ظهرَه.

ثمّ يضرب بلسانه الثّقيل ومنطقِه على سندان زواجي الفاشل:

- ألا تتمنّى حقًّا لو أنّك طليق مثلي؟ لو أنّك أعزب تسرحُ وتمرحُ بين الغيد الحسان؟

أنفي بلهجة حادّة تؤكّد هذا الظّن ولا تنفيه. إن كان الضّامر قد تأخّر في تنبيهي إلى لعنة الزّواج مُظهرًا فذلكته أكثرَ مِن حرصه على مصالحي؛ فقد سبق لسرحان أن وقفَ بحزمٍ في وجه زواجي مبكّرًا:

- متروك؟ هذه ردّة فعل جنونيّة. تريّث يا متروك.

لم أسمعه. كنت قطارًا تعطّلت منه الفرامل فغيّرَ خطَّ سيرِه إلى خطٍّ آخر؛ وإن أدّى به إلى الهاوية. كانت تلك الفتاة في مثل سنّي وما زالت، ومع هذا لم أشعر قط أنّني أمام امرأةٍ مكتملةٍ سواء في عقلها أو في أنوثتها. أجدُني مُلزمًا على الدّوام بالرّد على أسئلة طفوليّة ساذجة. أجدُني أمامَ طفلةٍ لم ينضجْ رأسُها كشأن جسدِها المربرب. طفلة أخطأت

الطّريق إلى دار الحضانة أو المعوّقين وارتمت بين يديّ ثمرةً غير ناضجة. اعتدتُ منذ زمنٍ طويل وحتّى أثناء شهرِ العسل أن أستيقظَ لأجدَ نفسي وحيدًا في السّرير يلفّني الصّمت، وبعد أن وُلِد ابني «نجي». دأبَتْ هي على الصّراخ بصوتها الغليظ؛ فتوقظني إن كنتُ نائمًا وتحزّ عنقي إذا ما استمرأتُ لذّة الاضطجاع في غبشةِ الصّباح. صار لي طفلان هي بينهما الكبيرة الصّغيرة ولكن لأبي رأيٌ آخر:

- ليس مثل زوجتك في النّساء، إنّها مطيعةٌ وتقبّل يدي كلّ صباح. إنّها مطيعة وربّة بيت ممتازة، تطبخُ وتخبز، وماذا يريد الرّجل أكثر من هذا؟

يقول هذا بوضوح ولعلّه يخفي آراء أشدّ قسوة، لعلّه يراها كثيرة عليّ أنا المتسيّب المتردّد كما يصفني في معرض المقارنة بيني وبين سرحان. لم أناقشه، فرأيه في زواجي واضح منذ البداية:

- أريد أن أرى أولادَك. أريدُ أن أرى وأحملَ أحفادي. عجّل بالزّواج ولن تجد مثلَ نفيسة زوجة صالحة. أبوها رجلٌ طيّب وأمّها مِن خِيرة النّساء.

تزوّجتُ على طريقته. تزوّجتُ فكانت ردّة فعل فوريّة بعدما ذهبت نجاح مخلّفةً جُرحًا غائرًا لا يندمل. لم أتزوّج للأسف أبا نفيسة أو أمّها. تزوجتُها هي. لم تنجب إلّا بعد خمس سنين.. مات ثلاثة ولم يبقَ غير «نجي». هو واحد فرد إذا استثنيت أمّه، ومع هذا أنساه في أحيان كثيرة، وحين أتذكّره أقارنُ بينه وبين أطفالِ الحدائق والأراجيح. أساله دون أن يفهم أن لماذا أتى إلى الدّنيا اللّعينة؟ أشعر بأنّني عبء عليه ثقيل. أشعر بأنّه حملٌ ثقيلٌ عليّ فكيف لو لم يفلح الآخرون بالنّجاة من الحياة إلى الموت؟ أمّا أبي فله رأيٌ آخر:

- إنّها مصيبة. إنّها كارثة.

ويتذكّر أمّي زوجتَه الّتي ماتت بمرض مجهول في حياته. يتذكرها بشكلٍ فاجع ويحسدُها على أنّها دُفنَت في تلِّ السّلطان.

- لم تدفن في الرّملة؟ هذا حق ولكنّها ظلّت هناك غربي النّهر، ظلّت في فلسطين، يشربها ترابُ فلسطين ويأكلُها دودُ فلسطين.

تنبّهتُ على لغطٍ في الحديقة الخالية مِن بهجة الزّهر. فُتِحَ على أثره البابُ ودخلَ جاسم مدفوعًا بيدِ شابٍ طويلٍ

أسمرِ البشرة ممتلئ الجسم؛ كأنّما اتّخذَ المصارعةَ حرفةً له. يُخرجُ الكلامَ مِن فيهِ طلقاتِ رصاص. فهمتُ أنّه يعبّر عن استيائه مِن بقاء جاسم في الخارج. أحسستُ لأوّل وهلة بالذّنب وأنّني ارتكبتُ خطئًا فادحًا لا يمكن إصلاحُه أو تداركُه لولا أن انبسطَت أساريرُه حين رآني ومن ثمّ اندفع نحوي معانقًا:

- أهلًا وسهلًا أستاذ متروك. أهلًا.

أيقنتُ مِن حرارة العناق أنّه يعرفني كما أعرفُه منذ زمن. ظلَّ يضغط عليّ بين ذراعيه ثمّ التفت إلى جاسم الّذي ما زال واقفًا يغالبُ الحرج:

- ما هذا يا رجل؟ البيتُ بيتك!

قلتُ مُبرّرًا بقاءه في الخارج لأمحو ما عساه قد خامرَه مِن سوء ظنّ غير ظاهر بالمرّة:

- لقد ألححتُ عليه كما ألحّت السّيدة هنادي ولكنّه رفض.

طقطقَ بشفتيه أسفًا:

- وهل يجوز هذا؟ وهل هذا يجوز؟!

اندفع إلى جاسم يجلِسه بيده ثمّ مرَق إلى الدّاخل ينادي بأريحيّة «هنودة... هنودة». قلت إنّها حقًّا أخبرتُه بكلّ شيء. توارت على الفور رغبتي في التّلميح وفتحِ عينيه مِن باب الحرص على ألّا يظلَّ مخدوعًا. شعرتُ أنَّ مثلَ هذه الرّغبة قد جاءت في غير أوانها وستظهرُني في غايةِ السّذاجة لأنّني أمارسُ النّميمةَ لأوّل مرّة؛ ولأنّه كما يبدو يعرف كلّ شيء.

(5)

إنّه اللّيل. اللّيل مرّة أخرى، يفتح شدقَه المظلم ويدسّني بين أنيابهِ حشرةً تافهةً، يمتصّ دمي وينفث بي سمومه. ندمتُ على أنّي لم أطلبُ العشاء إلى حُجرتي. النّاس الّذين سعيتُ للغوص بينهم في قاعة الطّعام هم أحد أسباب هذا الألم. في أقلَّ من لحظة تحوّلت طقطقةُ الملاعق والهمس الحذِر إلى ضحكاتٍ نشوى ثمّ غناء. مجموعةٌ تضمُّ ثلاثة رجال وسيّدتين إحداهما بدينة تخطّت الأربعين، والأخرى شابّة تتدفّقُ حيويّةً، ويتدفّق الجمالُ من مساماتِ جلدِها الأبيض أنهارًا تزيدُ ظمأَ العطاش. هذه هي المُحتفى بها. أطفأت الشّموع فغنّوا لها وغنّت. «عيد ميلاد سعيد لك.. عيد ميلاد سعيد للارا». غنّوا بالإنجليزيّة ثمّ بالفرنسيّة كما تحدّثوا بها من قبل.

دعوا لارا إلى الرّقص. لم تتمنّع أو تتلّوى بميوعةٍ وهي راغبة. وقفَت هنيهةً تتلفّت حولَها. حظيتُ بنظرةٍ من عينيها الزّرقاوين. نظرة متفحصّة كأنّما هي في سوق الماشية تنتقي عجلًا سمينًا بقرنين. رأيتها تهجمُ فجأةً على

جماعة مِن الرّجال تجري في ثيابهم رائحة الذّهب الأسود. خطَفت شماغا أحمر عن رأسِ أحدهم وتركت العقالَ يسقطُ على الأرض عائدةً إلى جماعتها بخطوات راقصة تضحك. توقّعت أن ينهضَ الرّجل ثائرًا، يصفعُها ويستردّ شماغَه المستباح؛ ولكنّه لدهشتي لم يفعل شيئًا من هذا. على العكس فتحَ شدقَه الواسع عن أسنان صفراء يرسمُ بها ضحكة سعيدة، ثمّ نهضَ يلفّه حولَ خصرها النّاحل. وقفَ بجانبها برهةً يتشمّم رائحةَ جسدها الطّازج، ثمّ عاد إلى موضعه وانخرطَ مع رفاقه في الضّحك السّعيد، وحين فغَروا أفواههم حذا حذوهم وراح يصبُّ من عينيه الحادّتين نظراتٍ جائعة على صدرها وأردافِها؛ تهزّها أفضلَ بكثير ممّا تقترفُ محترفاتِ الرّقص الشّرقي بحقِّ أصالة الفنِّ والفنِّ الأصيل.

رغم الصّخب الّذي ضجّت به القاعة. رغم السّرور، ظللتُ وحيدًا، حزينًا. طوتني الوحدةُ داخلَ صَدفَةٍ مغلقةٍ منسيّة على شاطيء مهجور. هاجمني الحزن بشراسة خلتُ معها أنّه قاتلي لا محالة. لم أدرِ سببًا مباشرًا له. ما أدريه أنّه موجودٌ في قرارٍ مِن نفسي مكين. موجودٌ على الدّوام، يرفعُ رأسَه في لحظاتٍ يكونُ مجرّدُ العبوس لطمًا على الخدود في زفّةٍ أو عرس. ليس هذا الصّخب

والسّرور هما السّبب الوحيد والمعلن. أحزنُ في العادة لعجوزٍ أضافَ إلى ساقيه الهزيلتين عصا يتوكّأ عليها. أحـزنُ لشجارٍ ينشبُ في الشّارع بين اثنين لسببٍ تافه أو عميق. أحزنُ للنّفاق. أحزنُ لانقلاب الهرم البشريّ ووقوفِه على قمّته المُدبّبة منذرًا بالانهيار.

أحزنُ لتداعي القيم وتفشّي الاستغلال والجشع، لاحتلالِ المتاجر جانبي الشّارع وزحفها على الأرصفة والتّجّار بداخلها قراصنة بانتظارِ مغفّل يأتي إليهم برجليه. أحزنُ ويقتلني الحزنُ فيما الأسبابُ مدفونةٌ في سراديبِ الوعي، ضبطُها مُتَعذّرٌ أو مستحيل. لا أعرفُ الأسباب بالضّبط ولكن لكلّ ممّن عرفتُهم أسبابُه الواضحة.

سرحان بنظرته الشّاملة للأمور يقولُ هذا لأنّي أسبحُ في مياه راكدة وأترك العذوبةَ والأنهارَ الصّافية، أتركُ عبورَ النّهر إلى الوطن.

عيسى الضّامر يُرجِعُ حزني إلى كوني أحمل السّلم بالعرض في سوق مزدحمة؛ كما وأحمل الدّنيا على قرنينِ من طين. وفي المرّات الّتي يتصدّى لي بفذلكته يرمي بالأسباب على عاتق النّساء؛ وكيف أنّي لم أسبح في بحرهن كما يجب. «المرأة وحدها القادرةُ على امتصاص

حزن الرّجل وصنع الفرح». وإذا ما كان في مزاجٍ سيء وهذا قليل نادر، يُرجِعُ الأسباب متشدّقًا إلى الفوارق الطّبقيّة وتراجع الكادحين عن دورهم الطّليعي المحتومِ أمام سمك القرش.

آل حمّوري وبخاصة شريف، يسمّون ما بي كآبةً وانطواء ويعزونه إلى النّفس الممرورة، يعزونَه إلى اللّجاجة والحقد والحسد؛ وإذا ما جاملني عزيز أو رفعَت بذرتُه الطّيبة رأسَها يقول إنّ مثاليتي هي السّبب؛ أمّا اللّجاجةُ فمن أجل الصّالح العام ولا ضررَ منها على الإطلاق.

صلاح علي وهدان قبل أن يقتلَه أبوه وبعد أن صار يدفع الكلَام مِن أنفه يقول:

- إنّك تعيشُ في زمانٍ غير زمانك.

ولكي لا أخطئ القصد يسارع إلى التّوضيح:

- معاصروك ماتوا وشبعوا موتًا.

أبي ينظر إلى حالتي بعدم ارتياح وإذا ما وجد وقتًا فائضًا عن ذكرياته العزيزة بشأنِ الرّملة وشجرة الزّنزلخت وأيّام الشّباب يقول باختصار:

- إنّه التّسيّب واهتمامك بنوعيّة السّرج لا بجودة الحصان.

أمّا زوجتي فتجهزُ على الصّراخ بلطمِ الخدود:

- إنّه هذا الأدب. إنّها هذه الأوراق الّتي تخربشُ عليها. لو تتركني أحرقُها أو أبيعُها لتاجرٍ متجوّل لاسترحتَ وأرحتني؛ ولفتحَ الله علينا بابَ الرّزق وحسن الحال.

ولأنَّ جارًا لنا يحمل آلته الطّابعة ويجلس بها أمامَ قصر العدل، يفبركُ الدّعاوى فتظهر نقراتُ أصابعه الرّشيقة على يدي زوجته وصدرها أساورَ مِن ذهبٍ وقلائد؛ تزمُّ زوجتي شفتيها وتحدّث نفسها بصوتٍ مسموع:

- ألا تكونُ العبرةُ حقًّا فيما تكتبُه تلك الآلةُ من كلام يعجبُ النّاس فيشترونه ويدفعون فيه كلّ هذا الذّهب؟!

ثمّ تسألني بسذاجة:

- لم لا تشتري لك آلة مثلها أو تشتريها هي بالذّات؟

جليلة وحدها لم تصدق أنّني أسير لمثل هذه الحالات. لا تصدق أنّني حزين وكئيب. كيف وهي تراني معها في منتهى السّعادة والفرح؟ ليتها إذن تأتي كما وعَدت لترى كيف أنزوي داخلي بينما يعجّ المكان بالغناء والرّقص!

لترى كيف أنّي في غاية الكآبة والحزن لسببٍ لا أدريه. كالعادة لستُ أدري وأظلّ مطوّقًا بالعذاب لمدّة تطولُ أو تقصرُ حسبَ أشواك الحالة الّتي أحدثَت هذا المخاض الأليم وانزوت في قرارها المكين. هل مقتل سرحان هو السّبب؟ أم أنّها خارطة فلسطين المعلّقة في بيت هنادي؟ أم أنّه حنثُ جليلة بوعدها حين لم تأت كما وعدت؟ أم أنّها الحياة اليوميّة ومجملُ حياتي الّتي أتذكّرها في دقائق خمس لا أكثر؟

هل هذه الحياة هي السّبب إذ تظهر لي مجموعة من المفارقات المضحكة المبكية؛ تلقي بي إلى الهامش أجترّ حزني وصمتي وأنفث الزّفرات حِممًا تحرق منّي الصّدر؟ لعلَّ واحدًا مِن هذه الأسباب أو كلّها مجتمعة، تتكالبُ عليّ، تنهشُني وتتقاسمُ لحمي، توزّعُه بين غربانٍ سود تنتظر رزقَها في الخرائب.

أجلسُ في هذه القاعة الواسعة دبًّا جريحًا. لا يخلّصني مِن وضع كهذا صخبٌ محبور ولا رقصٌ أو غناء. بل إنّ هذه السّعادة تصلبُني من رموشي وتجعل الحزنَ حاضرًا، يحفرُني بشكله الحلزوني حفرًا منتظمة حقًّا ولكنّها في غاية الإيلام. هذا ما يحدث بالضّبط. الفرحُ يبعثُ الحزن. الرّقص يكرّس الرّكود. الغناء يثيرُ الشّجن. هنا جنازةٌ

مهيبة لا فرح. وكلّما نظرتُ إلى جسد الرّاقصة، أرى سرحان ممدّدًا في التّابوت والرّصاصةُ الغادرة بين عينيه حفرةٌ غائرة، ترسبُ على حوافّها النّجيع دائرةٌ رُسِمتْ بالفرجار. غدرٌ مُتقن خطّطَ له أصحابُه أيّاما وربّما شهورًا وسنين فلم يخطئ القنّاص جبهتَه العريضة؛ حيثُ يصهلُ الوطن الجريح خيولًا ترفض التّرويضَ وما يحدّ مِن انطلاقها عبر البراري والسّهول الخضر. لم يخطئ القنّاص واختار الغادرونَ ساعةَ فرحٍ غريبة عاشها سرحان لأوّل مرة.. اختاروا عودتَه من المستشفى حيث وضعَت زوجته طفلًا أسماه «ثائر».

ابتسامةُ هذه الرّاقصة هي ابتسامتُه وهو عائدٌ مِن المستشفى، ابتسامتُه وهو في التّابوت بعدما ترجّل عن صهوة الجواد مُكرهًا فلثمَه أبوه وزغردت أمّه؛ وجئتُ أنا لأوسّدَ رأسَه غبارَ المعارك، غبارَ الأرض الحبيبة الّتي قتله حبُّها وعشقُه لها. هل اختارته الرّصاصة الغادرة في لحظة سعادته الفريدة صدفة؟ أم أنّها نهاية محتومةُ لخططٍ شريرة وتخطيط سنين وفي أكثر من موضع؟ هل اختاروه للموت أم أنّه هو الّذي اختار الموتَ بعدما راوغَه طويلًا وفرّ مِن بين أنيابه حتّى إذا وجد البديل مضى بابتسامته العريضة؛ ترسمُ الأمل وتسخرُ من كيد الحاقدين؟ لم

ينتظروا حتّى أسأله. لم ينتظر. ولكن فيما قاله مرارًا كفاية وردّ الجواب منشدًا لحنَه المفضّل «سأعيش رغم الدّاء والأعداء».

- الموتُ؟ لا أخافُه، سيأتي حتمًا، ولكنّي لا أخافه. لسببٍ واحد ينتفي الخوف أو لعدّة أسباب. لا أنتظرُه كالمنتظرين ولا أرتجفُ لذكرهِ رهبةً وذعرًا، بل أذهبُ إليه حاملًا روحي على كفّي. أهيبُ به أن يأخذَها إن كانت ستضيء مشعلًا واحدًا من مشاعل التّحرير والعودة. ولكنّه يُغمِضُ عينيه خشوعًا ومهابة. ليس هذا محض تصوّر أو خيال. إنّها الحقيقة. الموتُ يخشى ويهاب، لا يتربّص بغير الجبناء والمتهوّرين والمغامرين وكلّ مَن في نفسه ضعف. أمّا الشّجعان فيخافُهم ويهابُهم، لا لسبب إلّا لأنّه عايشَهم لحظةً بلحظة، أكلَ مِن خبزهم، شربَ من دمائهم، سمعَ نبض قلوبهم عن قربٍ فأذهلته الحقيقة. أذهلَه اكتشافُ أنّه ما عاد يعني الفناء وخسران الحياة بقدر ما يصنعُ الخلودَ ويغزلُ الحياة. ولأنّه اعتاد من النّاس الفرار لذكره استعصى عليه في البدء فهمُ أنَّ هناك مَن يسخرون منه؛ فظلّت أنيابه لا تعضّ غير اللّحم العفن، لحم مَن في قلوبهم خوفٌ أو مرضٌ من أيّ نوع... لذا لن يأتي إليّ الموت، وإن أتى ففي لحظة يتسللّ إليّ فيها حبُّ الحياة

بقشرتها البراقة؛ في لحظةٍ أعملُ شيئًا لنفسي، لذاتي كأنّما سأعيشُ أبدًا ويستثمرُ أولادي وأحفادي وأحفاد أحفادي جهدَ ما عملت. مثل هذه اللّحظة إن حدثت أو أصابتني بشفرتها الحادة سيأتي الموتُ سريعًا على لهاثي المحموم؛ كما يهرعُ سمكُ القرش على عواءِ حوت يحتضر. عندها لن يصيبني الأسف، لن أتأثّر لأنّني أكونُ قد متُّ فعلًا قبلَ وقتٍ طويل وما كان منّي غير جثّة تمارس الشّهيق والزّفير.

هل منعه الحياءُ والصّداقة بيننا مِن القول إنّني جثّة تتحرّك ما دمتُ أخشى أن يأتي الموت قبل أن أحقّقَ أشياء كثيرة في مجال الصّحافة والأدب، في مجال الحياة كما يفهمها آل حمّوري على اعتبارها صراعًا بين القوّة والضّعف، بين مفترسٍ وفريسة فيعضّوا أصابعهم ندمًا على أنّهم أداروا لي ظهورهم وألقوا الماضي مِن وراء هذه الظّهور؟! ألم يرني جثّة حقًّا وهو يتزنّر بالقنابل والرّصاص ويعبر النّهر بينما أنا أستمرئ الرّكود وأنعى عليه تضحياتِه الجسام؟

ألم يرني حيًّا ميتًا وهو يقنعُني بالبقاء في بيروت وأنا أتعلّل بابني وزوجتي؛ وبأنَّ موقعي هناك في الصّحيفة

حيث يمكنُني إطلاق الرّصاص مِن موقع حصين وقتَ أشاء؟

ألم يرني فأرًا مذعورًا وحشرةً تافهة وأبي يصنعُ الخِيارات بنفسه، يتخطّى حدودَ الحلم إلى واقع مشهود؟

هل فجّر قناعاتِه بأسلوبٍ موارب وتقصّدني بكلّ حرف وهو مَن مارس نقد الذّات وبشّرَ به أسلوبًا فائقًا لتكريس الصّواب ومحو الخطأ؟ هل نعى نفسَه حين أخبرني في رسائله بأنّه على وشك الزّواج؟!

عامٌ واحد وبضعةُ شهور هي المدّة الفاصلة بين زواجِه ومقتله. ظلّ يؤجّله ويغلقُ أذنيه في وجه نداءات والديه بهذا الشّأن. اقتنعَ أخيرًا ربّما نزولا عند رغبتهما، وربّما لبلوغه السّن المناسبة، وربّما ـ وهذا الأصح ـ لأنّ حواسّه النّشطة تنمّلت أطرافُها لدبيبِ الموت إذ وقع في الحب وبات يخشى ألّا يسعدَ زوجته. ترصّده الموت حين أخذَ أوّل رشفةٍ من الدّنيا، تذوّقها واستمتعَ بها. تذوّقَ الحب. حدّثني كثيرًا عن الفتاة الّتي أحبّها قبل الزّواج، وبعد هذا حدّثني أكثر عنها، عن روعتها، عن حبّها له وتفانيها من أجله، عن البيت الّذي ينتظر منه أن يملأه بالحياة

والحركة، عن خشيته ألّا يستطيع تمثيلَ دورِ الزّوج النّاجح.

- تقولُ لي كلّما وجدتُ وقتًا للّقاء إنّها سعيدة. لا أصدّقها. أعرفُ أنّها تكذب. ما الّذي يسعدُ امرأة تقضي معظم وقتها وحيدةً تنتظرُ على جمر وتتوقّع في كلّ لحظةٍ أن يأتي أحدُهم ليخبرها بأنَّ زوجَها الحبيب قُتِل وأنَّ البقيّة في حياتها؟ كيف تكون سعيدةً وترمّلُها أقربُ إليها من حبل الوريد؟! تصديقُها صعب. أصدّقُها فقط حين أتذكّر أنّها قبلت بي زوجًا وهي تعرف من أنا ومن أكون، قبِلت بي لأنّي هكذا. أرتاحُ بعض الشّيء وأطمئنُ إلى أنّي لن أسبّب لها الإحساس بالغبن بعد مقتلي الّذي سيأتي لا محالة، وربّما أسرعُ ممّا توقّعت.

أوقنُ الآن أكثر بأنّه كان ينعى نفسه. ينعاها على طريقتِه وهو الّذي اختارَ لنفسه النّضال البحت وحرّم عليها المُتع. حتّى الزّواج، هذا الحقّ أو الواجب الفطري أدرجَه في قائمة الممنوعات طويلًا إلى أن جاءت اللّحظة المناسبة؛ فلم يستطع الفصلَ بين حقّ الجسد والخلف الصّالح وبين واجب نذرَ له روحَه خالصةً مِن غرضٍ ذاتي. ظل مشطورًا لمدّة عام أو يزيد، لم يستطع هضم

التّخلّي عن جزءٍ يسيرٍ من الصّالح العام لأجلِ نفسه، لذا ترصّدوه وقتلوه، لذا لم يتوقَّ، لذا دبيبُ الموتِ اخترقَ مفاصلَه في تلك اللّحظة الّتي قال لتلكَ الفتاة الرّائعة «أحبك».

أتذكّر سرحان. أتذكّر وجهَه الوضيء. أتذكّر حروفَه العامرة بالشّهد والعبر. أتذكّر فتضعُني الذّكريات داخل أنشوطة مجنونة، تتأرجح بي مِن علوٍّ شاهق. تميدُ من تحتي الجبال والوديان، تختلط فتصيبني بالدّوار. أصرخُ فلا يسمع أحدٌ ممّن في هذه القاعة صوتي في غمرة هذا الضّجيج والفرح. وحدي هنا اليائسُ مِن انطلاقِ العصافير لتملأ صدري تغريدًا وأناشيدَ عذبة، تسرقُ مِن الحزن أسنانَه، ومن الذّكريات حبالَها الغليظة الضّاغطة على عنقي، تذيبُ روحي قبل أن يأتي أوان الموت. حالة وطأتِها أشدّ مِن أيّ وقت مضى. من المؤسفِ أن يكونَ سرحان تحت التّراب في ظاهر الوحدات، وأنا هنا فوق التّراب. مِن المفارقات المضحكة المبكية أن يكونَ مَن تحت الثّرى حيًّا يرزق، ومَن فوقه جثّة تنزلُ الضّحكات عليها فقاعات جوفاء، تنفجرُ تباعًا عن سكاكين دامية تقطعُ نهر الدّم، نهرَ الحياة الباقية على شكلِ شهيق وزفير. جثّة أنا تحوم من حولي الصّراصير والهوام، تهرع إليَّ

الوحدةُ القاتلة، تفتحُ شدقَها، فأنزلقُ إلى عتمةٍ مخيفةٍ رغمَ هذه الأنوار السّاطعة، رغم الضّحكات والغناء والرّقص. وحيدٌ رغمَ هذا كلّه. أشعرُ وكأنّي أجلسُ على حزمة شوك، تغوصُ فيّ رؤوسُها المدبّبة حتّى العظم. نهضتُ. لا أدري كيف نهضت. ما أدريه أنّني تركتُ قاعةَ الطّعام إلى غرفتي ليمونةً اعتصرَها بحّارٌ مبتدئ ليطفئَ مِن أمعائِه دوارَ البحر.

هاجمتني الوحدةُ في المصعد بشراسة أشد. أتذكّر ابني. أتذكّر زوجتي. يحدثُ لي هذا لأوّل مرّة. ابني الّذي أعتبره حملًا ثقيلًا وأنّه جاء إلى الحياة خطأ، أتذكّره الآن بشكلٍ فاجع. زوجتي الطّفلة السّاذجة، أتذكّرها. أتذكّرهما وأتمنّى لو أغمِضُ عينيّ وأفتحهما لأجدَ نفسي بينهما؛ أشربُ الشّاي وأدخن اللّفافة إثر اللّفافة وابني على صدري يلثغ، أصحّحُ معجمه اللّغوي وأعلّمه كلمات جديدة لم يسمع بها بعد. أحنّ إليهما. أشتاقُ لقبرٍ ضمَّ سرحان، أشتاقُ إلى أزقّة ضيّقة مشينا فيها معًا، نتحدّث عن رائحةِ الصّابون الرّخيص وتتركُ أقدامُنا حفرًا غائرة في الوحلِ كما تركَت السّنون أخاديدَ بغيضة في كلّ ما يصادفنا من وجوه. أشتاقُ إلى هذه الوجوه الحاملة آثارَ نكبتينِ ومخاضَ شهورٍ حُبلى بالوجع. للوجعِ في تلك الوجوه بقايا دائمة

كآثار الوشم... هؤلاء هم أبناء ذلك الوطن السّليب حيث يدوسون يزهرُ الوطنُ وينبتُ الحنين، أمّا آل حمّوري وأضرابُهم فحيث حلّوا تنتفخُ الذّات ويصبحُ المجدُ للقرشِ وتحملُ الرّيح الوطن إلى المنفى بجملته.

- المواطنةُ شيءٌ رائع، والأروع منها أن يكون لك وطنٌ يحتويك بين ذراعيه وتشتاقُ إليه حين تهاجرُ أو تغيب. تشتاقُ لا لبيتك وللخاصّة مِن أهلك وحسب، بل لكلّ الأزقّة الموحلة، إلى حجرٍ تعثّرت به في الطّريق فأدمى قدمَك الحافية، تحنّ إلى مرابع الطّفولة، إلى رفاق الصّبا، تشتاقُ إلى رؤية النّاس فيه، كلّ النّاس. هذا هو الوطن، وهذه هي المواطنة الحقّة.

هكذا قال سرحان مرارًا، ويقول:

- قد تهاجرُ إلى أرضٍ تحمل الجبال ذاتَها، السّهولَ ذاتَها، وقد تلتقي بأناس لهم الشّكلُ ذاتُه، الوجوه ذاتُها، ولكنّك أبدًا لن تستريحَ أو يسكنك ذاك الإحساس الفائق بالمواطنة والحضور المدهش إلّا في الوطن؛ حيث كتب الأجدادُ أوّل سطر في دفتر الحياة. تحنّ إلى مرابعِهم وتشتاقُ إلى الأزقّة الضّيقة الموحلة، إلى حجرٍ تعثّروا به أو تعثّرت به في الطّريق. هذا هو الفرق بين المواطنة الحقّة وبين تلك

الحادثة بضغط الظّروف أو الانتساب. هذا هو الفرقُ بين الوطن الحق وبين آخرَ تهاجرُ إليه متحفّزًا للقتال والعودة وإن كان له ذات التّضاريس. أنتَ تهاجرُ إلى أرض وليس إلى وطن، وبين الحالتين فارق كبير كذاك الّذي بين الورد النّابت في الحدائق وبين ذاك الصّناعي المرصوصِ في أصُصٍ فاخرة، له شكلٌ مغرٍ بهيج عن بعد، ولكنّ الشّذى الزّكيَّ غائبٌ هناك حيث الجذورُ والتّربة الخضراء، حيث الشّمس.

ثمّ وهو يزفرُ على غير عادته:

- تصوّر كم نحنُ محرومون مِن هذا الإحساس الفائق بالوجود. تصوّر، وتخيّل معي كيف تصحو مشاعرُك، كيف تستيقظُ فيك أحاسيسُ كانت مطمورةً كلّما اقتربَت خطوةً من الوطن! ترفعُ رجلّك وتطأ التّراب فتشعرُ به ينبضُ، ألفُ قلب من تحتك ينبض. تصوّر إذن هذا الإحساس الفائق بالوجود.

ليس غريبًا أن يصدرَ هذا عن سرحان. الغريب أنّني لم أستوعبه في حينه، الغريب أنّني سفّهته وعبثُ عليه تضحياتِه، حتّى إذا انقضى أجلُه وغصتُ شبرًا مِن قشرة الحياة إلى جوهرها؛ حتّى إذا جاءت لحظةُ المكاشفة

مع النّفس وجدتُه حاضرًا معي، يحدّثني فأرهِفُ له السّمع. أفتحُ له بوّابة صدري ليفرشَ منطقَه الثّريَ بساطًا أخضر. لم يتغيّر منذ عرفتُه إلّا بتلك الحفرة الغائرة؛ دائرة مرسومة بالفرجار على حافتها ترسّبَ النّجيع، أمّا ابتسامتُه فقد ولدِت معه، ترعرعَت معه، رافقتَه إلى القبر ساخرةً من موتٍ أتى إثرَ تخطيطٍ مُسبق أو في لحظة ضعف بريء.

لماذا قُدّر لي أن أعرفَه؟ لو لم يرحل أبي من بيتِ لحم إلى أريحا. لو لم يرحل والدُه من رام الله! لو لم يكن البردُ القارس! لو لم تكن رحلة أيّار الفاجعة! لو لم يكن حزيران! لو لم تكن الشّهور المحمّلة بعناقيد المآسي والغضب لظلّ في طرفٍ من الدّنيا وأنا في طرف؛ ولكنّا التقينا، التقينا صغارًا وشبّانًا إلى أن فرقتنا الأيّام، فما استطاعَ الفراقُ اجتثاثَ جذور اللّقاء. سبحَت جذورُنا عبر الحدود والمسافات. التقَت، تعانقت فغدا الانفصال ضربًا من المستحيل... التحامٌ بالرّوح والجسد. اتفاقٌ على الجوهر واختلافٌ في الظّاهر والمشاحنات الصّغيرة عند كلّ لقاء لا بد منها؛ تُغذّي الحبَّ بيننا بدم جديد، يحملُ أدرانَ الرّكود بعيدًا ويبقي التّصافي غيرَ معلن من جانبي ولكنّه موجودٌ في قرار مكين. قرار بلّوريّ شفّاف يعكسُ

آلافًا مؤلّفة مِن الصّور، يضربُها سرحان بريشتهِ الفذّة هكذا عفوَ الخاطر لتظهرَ داخلي رويدًا، تفرشُ ألوانها الزّاهية وتطردُ سوداويّة قاتلةً أعيشُ أسيرها.

يتولّى بمنطِقه وفعالِه فكَّ قيودي. كسرَها قيدًا قيدًا بكلامِه الموزون وبعد كلّ عبور للنّهر، بعد أن ارتحلَ إلى بيروت منطلقًا منها إلى العرقوب والجنوب، إلى أعالي الجليل، بعد أن دخل معمعةَ الكتائب وقبل أن ينفضَ عنه الغبار؛ يخزّنه إلى ميعاده الموقوت ويستحم... حمّلَنِي ما اجتمعَ لديه حين استدعاني رئيسُ التّحرير على عجل. أضفتُه إلى ما كان عندي ووضعتُه تحت رأسه في التّابوت. توهّجت ابتسامتُه وأزهرَ النّجيع على حافة الجرح بين عينيه. قال لي لحظتَها الكثير: «إن أنا قتِلتُ في بيروت على غير ما أشتهي وأحُب؛ فمن هناك كما مِن هنا الطّريق إلى الجرمق والكرمل والجليل. من هناك ومن هنا... تصدّيتُ لقطّاع الطّرق وناصبي الكمائن وشققتُ طريقًا فرعيًّا أوصلني إلى الشّارع الرّئيسي المُوصلِ إلى فلسطين. متُّ على ضفافِها بعدما اغتسلت في نهر الأردن وبحيرة طبريّا، وتحسّست نبعَ العوجا ومصبّه عند شاطئ يافا المُزنّر خصرُه بالبرتقال».

ماتَ واقفًا وفي جبهته لا في ظهره الرّصاصة. ميتة نذرَ نفسَه لها منذ أن كان يزجرني وأنا أقضم أظافري «عيب». منذ أن كان ينادينى «يا رجل» وأنا لم أتجاوز العاشرة. ميتة لو مسّت بعصاها السّحريّة صلاح وهدان لهدمَ حياتَه وقلبَها ظهرًا لبطن، ولمَا زرعَ أبوه صدره بالرّصاص وهو جاثٍ على ركبتيه يتوسّل.

طيّرتُ إلى سرحان الخبر، أزفُّ إليه نهاية صلاح بيدِ والده. جاء ردّه مُختصرًا كالعادة بيد أنّه مليءٌ بالعِبر:

- لم أفاجأ بهذا، صلاح ميت منذ زمن.

امتزج السّرور بالألم. اعترضَت حلقي غصّةٌ قاتلة. «هل يراني سرحان و«صلاح» نقفُ على شفا الهاوية، سقطَ أحدُنا وما زال الثّاني ينتظر؟». استوضحتُه في الرّسالة التّالية إن كان يحسبُني في عداد الأموات. أهملَ الرّد وكان يومَها يستعدُّ للزّفاف، ويُبدي مخاوفَه مِن احتمال ألا يُسعدَ زوجتَه أو يزرعَ البيتَ بالحياة. تركَ الإجابة معلّقة عن سؤالي الرّهيب «أينَ أنا بالضّبط؟». تحيّرتُ طويلًا إلى أن جاءني الجوابُ إثرَ مقتله فأغناني عن الرّد الصّريح. «الموت قد يعني الفناء وقد يعني الخلود، وما الحياة اليوميّة التّافهة إلّا برزخٌ ضحلٌ بين الحالتين».

تحيّرتُ رغمَ إكمالِ صلاح وهدان بمقتله تلك الإجابة. أكملَها أبوه بعدما انسحبَ عنه الحلم وبهرَت ابنَه الحياة. خاض شاطئَها الصّاخب وأوغل في العمق حتّى غرقَ منه الرّأس. لم يصرخ ولم يعد إلى الشّاطئ يتسطّح على الرّمل ويعرّض نفسَه للشّمس تطردُ منه العفن. أسقطَ عنه اسم أبيه وانتسبَ إلى آل حمّوري كما سبقَه إلى ذلك عزيز وعادل وشريف. ولكي يكون جديرًا باسمه الجديد انطلق إلى عالم الثراء صاروخًا مدمّرًا يحرقُ ما يصادفُه، وأوّل ما استحقَّ الإفناء والحرق والده. تركَه لحبله الغليظ وكيسِه الجلدي. تركَه للسّوق النّهمة تمتصُّ ما تبقّى مِن دمه. تركَه في غرفته الواطئة ورحلَ عنه إلى الأحياء الرّاقية يلبّي همسها الطّريَّ في سهراتِ ما بعد منتصف اللّيل؛ حيث الخمرُ نهرٌ فضّيٌّ والأصدقاءُ مِن الجنسين نجومٌ تطغى على أضواء الزّئبق والنّيون؛ تسخرُ مِن الشّمس إذا ما امتدّت السّهرة إلى ضحى أو ظهر. يحشرُ والدَه في المطبخ مع الخدم إذا ما تجرّأ بالمجيء. يمنعُه من الصّعود كيلا يتسللَ مِن عينيه النّور إلى الجلسات المغلقة فيرى صلاح ماضيه وحاضره مجبولين بعرق هذا الرّجل العجوز الأخرق.

تذرّعَ وهدان طويلًا بالصّبر إلى أن تحوّلت شكواه إلى أبي تذمّرًا، والتّذمرُ زمجرةً، والزّمجرةُ أنينًا موجعًا يصدرُ عن وحش ذبيحٍ كبّلتهُ صغارُه؛ ذبحتهُ ونهشت لحمَه وألقَت بقاياه في العراء للطّيور الكاسرة. سقطَت ابتسامتُه الزّائفةُ مِن تلقاء نفسها ورقةً أدركها الخريف. جاءت ساعة الصّفر وحدها وربّما خطّطَ لها مع أبي بعناية فائقة. ربّما أمضى اللّيالي الطّويلة في غرفته الواطئة يُحصي أطنانَ الحبِّ أغدقَها على ابنه بلا حساب حتّى ترعرعَ ونما؛ حتّى صار شمعةَ المجالس المُغلقة. جاءت ساعةَ الصّفر وحدها أو اختارها وهدان في لحظة يكون ابنُه العاق باسطًا ذراعيه للدّنيا، يعانقُها، يتشبّثُ بها، في لحظة يكون فراقُها عليه صعبًا للغاية. فراق للجاه والمال واللّذات الجارية تحت قدميه أنهارًا مِن سمن وعسل.

ارتدى وهدان أسوأ ما عنده من ثياب. وضع الكيسَ على ظهره وألقى بالحبلِ الغليظ على كتفِه المهدودة. اقتحمَ القصر. دخل الحيَّ الرّاقي لأوّل مرّة غازيًا بعكس ما مضى ذليلًا متخمًا بالأحلام والأمل. للمرّة الأولى يلتقي بنفسه. شعر أنّه وهدان، «علي وهدان» الّذي أسقطَه ابنُه عن كاهله اسمًا ووجودًا؛ وهو الّذي جبَلَ بعرقِه ودمِه

ماضي هذا الابن وحاضرَه ومستقبلَه الّذي لن يكون. لأوّل مرّة لا يعرّجُ على المطبخ ليثبتَ وجودَه أمامَ الخدم يستأذنُهم بالصّعود. صعدَ. دفعَ الباب المغلق برجله. أدار عينيه في الوجوه اللّامعة وضغطَ على أنفه تقزّزا مِن رائحة الخمر. تصدّى له ابنُه ذئبًا مفترسًا.

- ما هذا أيّها المجنون؟!

حاول أن يرمي به إلى الخارج. أمسكَ وهدان بياقته. هو الّذي اعتاد تسلّقَ الشّاحنات وحملَ أكياس الدّقيق والسّكر. تَعِبَ وهدّه الإعياء ولكنّه لم يشعر بمثل هذه القوّة من قبل. حملَه فأرًا مذعورًا وطافَ به على الحاضرين.

- هذا ابني. هذا المهندس ابني. مَن تجلسونَ في بيته الآن وتجلسون دائما ابني. أنتم تجلسون وأنا... أنا... أنا أبوه. أجل أبوه... انظروا ماذا صنعت منه. انظروا ماذا فعل بي... انظروا ماذا سأصنع به.

تناولَ المسدّس. جثا صلاح على ركبتيه ضارعًا وفرَّ الجالسون. في غمضة عين زرعَ صدرَه بالرّصاص ومضى رافعَ الرّأس تسبقُه إلى مخفر الشّرطة ابتسامةٌ وجدَت معناها أخيرًا؛ فسالت على لحيته النّابتة سعادةٌ افتقدَها منذ أمد طويل؛ منذ رحلة الوهم بأنّه إنّما يتعب

ويشقى ليربّي رجلًا شهمًا يقصّ الحبلَ الغليظ ويشدّه إلى صدره بحرارة. «أما آن لك أن تستريحَ يا أبي العزيز؟! استرح ودس اللّقمة لآكلَها أنا مِن بعدك». على الرّغم مِن أنّه تنازل عن الكثير مِن أحلامه تلك ورضيَ بأقلّ القليل، رضيَ بأن يدوسَ ابنُه على اللّقمة فيأكلها هو؛ إلّا أن ابنَه لم يرض بأقل مَن أن يتوارى عن ناظريه، ويسرع إلى الموت إن كان يحبّه بحقّ كيلا يرى ماضيه وحاضره مجبولين بعرق هذا الرّجل العجوز الأخرق.

لم يترك لي وهدان مجالًا للشّماتة بابنه الّذي أتعبني حيًّا وميتًا. في حياته سخرَ منّي وتنكّر للصّداقة بيننا، تنكّر للخبز والملح وقال إنّني أعيشُ في زمانٍ غير زماني، وإنّ معاصريَّ قد ماتوا وشبعوا موتًا. في حياته ساعد على انقلابِ الهرم البشري وقضى على الإحساس الفائق بالقيم الطّيبة، وفي مماتِه أتعبَني وجرَّ عليّ الويلات بتحوّل القضيّة مِن جريمةِ قتلٍ عن عمدٍ وسبقِ إصرار إلى جريمةٍ أخطر متعلّقةٍ باقتناء السّلاح، والسّلاح حيث يسكنُ المجرمُ في الوحدات، وفي هذه يقطنُ أبي الّذي أعطى وهدان المسدّس، وأينَ أبي المجرم الحقيقي؟ هرب.

افتقدتُه غداةَ مقتلِ صلاح فلم أجده. أيقظني عند الفجر وأوصاني خيرًا بشجرة الزّنزلخت وبابني وزوجتي وقال

إنّه ذاهبٌ ليصلّي. ذهبَ ولم يعد. ولأنّني ابنُه كان عليّ أن أفسّرَ كيف حصل أبي على أداة الجريمة، كيف حصل على سلاح، أمّا كيف انتقلَ المسدّس إلى يد وهدان فهذا ما فسّره نفسه دون عناءٍ ضاعفَ مِن سعادته؛ وهو يسرد القصّة المشوّقة مِن بدايتها إلى نهايتها الرّائعة.

- كان الوحيد الّذي أشكو له ويقاسمني همومي. كان يتمنّى لو أنّ ابني لم يولد. ظلَّ يردّد باستمرار أنَّ موتَه خيرٌ من حياته، فالشّجرة اليابسة قطعُها حلال، والسّنُّ المنخورة بالسّوس خلعُها أفضل. وحين صرتُ أردّدُ هذا مثله عندها فقط أعطاني المسدس. علّمَني كيف أستعمله، فهذا النّوع من السّلاح لم يكن على زماننا ونحنُ نقاتلُ اليهود والإنجليز في فلسطين. لو كان معنا مثلُه لما تردّدتُ في قتلِ كلّ الحالات الخاطئة.

ولّت الشّماتة وحلّ محلّها الدّهشة والفضول. اعترف وهدان بأنَّ أبي مَن زيَّن له القتل ومِن ثمّ أعطاه المسدّس، فمن أينَ جاء به، وكيف، لم أعلم؟ كيف اقتناه وهو على علمٍ بالعقوبة؟ لِمَ لمْ يخبرني أم أنَّ تسيّبي وركودي كما يصفني دائمًا هما السّبب؟ أسئلةُ كثيرة حاصرتني، إلى أن جاءني الجواب من سرحان. «أبوك هنا معي لا تقلق». وأخبرني عن فيض السّعادة التي انتابتهُ بتحقيق حلمه

القديم بالضّرب على الرّشاش دون أن يزوغَ ساعدُه أو يرتد. أخبرني كيفَ عاد شابًّا يقفزُ ويركض دون لهاث أو تعب.

أخبرني بالكثيرِ عن أبي ولكنّه لم يقل كيف حصل على المسدس... أعطاه لوهدان عن وعيٍ مُطلق كي يقتلَ الشّر ويفقدَ الخيارَ بالبقاءِ؛ بعدما راوغه سرحان طويلًا بعبور النّهر والدّوس على أرض تنبضُ من تحته بألف قلب. ما عاد يهمّني شيء غير أنَّ أبي حقّقَ أخيرًا حلمَه القديم فعادَ شابًّا؛ يقفزُ بين الخنادق والحفرِ ويطربُ للعلعةِ الرّصاص. المهم أنّه بات قريبًا من الرّملة وشجرةِ الزّنزلخت الأمّ الّتي أدمى الحجر إصبعي تحتها ولا زالت معوجّة حتّى اليوم. المهم أنّه ما عادَ يقطعُ الوقت بالذّكريات والأمنيات على أمل أن تعودَ تلك الأيّام، أيّام قتاله الإنجليز والصّهاينَة ببارودة قديمة تتجشّأ الرّصاصة؛ ومن ثمّ تروح في سبات عميق بينما تمطرُهم السّماءُ والأرضُ رصاصًا من أسلحة حديثة يَدّعي الإنجليز أنّها سُرِقت مِن مخازنهم مِن قِبَلِ العرب الرّعاع. رغمَ مرارة تلك الأيّام كان أبي يتذكّرها ويلحّ على سرحان أثناء وجوده في عمّان أن يدرّبَه على السّلاح الجديد؛ ويصحبه عبر النّهر

إلى أرض تنبضُ مِن تحته بألف قلب. يراوغُ سرحانُ ويطوّقني بعينيه:

- وماذا تركت للشّباب يا عمّي؟

يفهمُ أبي إشارته، يرمقني شزرًا ثمّ يضربُ على صدره:

- أنا لها يا ولد.

ويكشِفُ عن ذراعيـه وساقيه وصدره. يكشفُ عن جروح تناثرت وأعلنَت عن نفسها بين شعره الغزير:

- اسمي وحده كان كفيلًا بإثارة الرّعب والفزع في قلوب الصّهاينَة والإنجليز على حدٍّ سواء.

يعانقه سرحان معجبًا، ويعتذرُ إن كان قد أساء إليه، ويصرّ في الوقت ذاته على أنّها معركة الشّباب، معركةُ الأبناء، أمّا الآباء فعليهم أن يزرعوا الشّارع بالأمل والثّورة وينسجوا أكاليل الغار، ويضعوها على رؤوسِ الأبناء بعد كلّ انتصار، بعد كلّ عمليّة تزلزلُ الأرضَ مِن تحت الغزاة. يهزّ أبي رأسَه متفهّمًا دون أن تفارقه الحسرة. لم أره منطلقًا، منشرحَ الصّدر إلّا في ذلك الصّباح حين أيقظني مُوصيًا بشجرة الزّنزلخت وبابني وزوجتي. لم أدرِ لحظتَها أنّه اختارَ ساعة الصّفر وحدّدَها

بنفسه حين أعطى وهدان المسدس مدركًا أنّه سيفقد نهائيًّا الخيارَ بالبقاء... طلَّقَ الانتظار والمراوغة وصنعَ لنفسه الخيار، مضى إلى حلمِه القديم العزيز وما عاد يحصدُ ذكرياتِه العزيزة؛ ويلقيها تحت شجرة الزّنزلخت سمادًا وعلى أوراقها الذّابلة عناقيدَ أملٍ باهت. هذه الشّجرة غرسَها ثلاث مرّات في الغربة؛ واحدةً في بيت لحم، وواحدةً في عين السّلطان، والأخيرة في الوحدات، يعتني بها وينسجُ على فروعها الأمل بالعودة إلى الشّجرة الأمّ في الرّملة.

غرسها ثلاث مرّات أمّا في بيروت فلم يغرس فيها شجرةَ الحلم بعدما صار الحلمُ واقعًا ملموسًا، بعدما وضعَ قدمَه على الطّريق الصّحيح. بيروت تركها للأرزِ ينمو ويتمدّدُ على الجبال والوديان، فالوطنُ هناك على مرمى حجرٍ لا يرضى عنه بديلًا. علّمه سرحان أو هو الّذي علّمَه أنَّ الوطنَ بخلافِ الأرض، فذاكَ له رائحةُ الورد في الحدائق وتلك وردٌ صناعي في أصصٍ فاخرة. تعلّمَ أو عاشت الحقيقة في دمه فأدركَ أنَّ المواطنةَ إحساسٌ فائقٌ لا يدانيه انتسابٌ إلى وطنٍ آخر يحملُ الجبالَ ذاتها، الوديان ذاتها، وللنّاس فيه ذات الوجوه وذات الملامح. استوعبَ هذا كلّه قَبلي بزمنٍ طويل.

إنّه نسخةٌ طبقُ الأصل من سرحان، تواصلَ النّبض بينهما وحينَ قُتِل، حين ظفروا بنسخته الأصيلة سجّاه بيديه في التّابوت، أمّا أنا فوضعتُ تحتَ رأسه الغبار. شتّان بينَ ما فعلَ ويفعل وبين ما فعلت. هو يمتطي صهوةَ الموت ويقتلُ صلاحَ وهدان، هو يصنعُ الخياراتِ الملائمة بينما أنا أصلصلُ بالرّسن وأفاخرُ بأنّني ابن ذلك الفارس. أنتفخُ زهوًا وأشفق على وهدان وألعن ابنه، ألعنُ آل حمّوري، يشربون كؤوسَ الدّم، يحلبونها من أجساد كثيرة نصبوا لها المصائد والشّباك.

ينقصُهم رجلٌ مثل أبي، يخبّئ السّلاح إلى ميعادِهِ الموقوت ويتحدّى السّجن والاعتقال والإعدام. لقد تنبّأ سرحان بسقوطهم وعودة الهرم البشري إلى حالته مِن الانتظام والمساواة. قُتِل صلاح على يد والده وأعلن شريفُ إفلاسَه. ماتَ الأوّل وَوارَاه التّراب بينما ظلَّ الثّاني فوقه يتمنّى الموتَ في اليوم الواحد ألف مرّة، يعضّ أصابعَه ندمًا ولا يصدّق أنَّ ثروتَه كلّها ضاعت في ليلةٍ واحدة على مائدة القمار؛ حتّى القصر الّذي يمد لسانَه لقصرِ عزيز ساخرًا خسرَه أيضًا في الوجبة الأخيرة على المائدة. كلاهما علّمني أنَّ المالَ زائلٌ والثّبات للقيم؛ لِمَا نذرَ سرحان حياته له ولِمَا فقدَ أبي من أجله الخيار بالبقاء

صانعًا الخيار الّذي لم يَجِد عنه؛ متعطّشًا إلى الوطن الأصيلِ والمواطنةِ الحقّة لا الأرض أو الانتسابِ إلى وطنٍ له التّضاريس ذاتها.

تعبر الذّكريات أسرابًا من الطّيور الملوّنة. أشتاقُ إلى أبي، وإلى ترابٍ ضمَّ سرحان في ظاهر الوحدات. أحنُّ إلى ابني وزوجتي. أحنُّ ويُلقي عليّ الحنينُ خطبةً سريّة أشبه بما كان يُلقيه سرحان عليَّ مِن أحاديث الوطن والمواطنة؛ أشبهُ بما كانت تثيره ذكرياتُ أبي قبل رحلةِ أيّار البائسة. «أحنُّ إلى شجرةِ الزّنزلخت. أحنُّ إلى شرخٍ في جدار البيت. أحنُّ إلى ثغاء الماشية وروثها في صحن الدّار. أحنُّ إلى شوكةٍ غاصت في قدمي وأنا أحرثُ الأرض». هكذا يقول أبي. هذا حديثُه المفضل. يطرقُ سرحان مصغيًا، ثمّ يقول بصوته الهادئ العميق:

- الحنينُ وحده لا يكفي.

وحين يلحظ أنّه قد صدمَ أبي في أحلامه يستدرك معيدًا إيّاه إلى قطار الأمل.

- الحنين هو ما يرسمُ علاماتٍ بارزةً على طريقِ الأسماك الصّغيرة العائدة إلى موطنِها الأصلي بعدما يفقّسُ عنها البيض، تضربُ صاعدةً في النّهر العذب. تعودُ قفزًا ووثبًا

بعكس التّيار والشّلالات الهادرة. تعود إلى موطن آبائها وأجدادها حتّى لو قضى أولئك الآباء نحبهم في الغربة كما يحدثُ في الغالب.

هل كانَ مِن الضّروري أن أرحلَ إلى بيروت، أن أرحلَ إلى بغداد، أن أقطعَ هذه المسافات الشّاسعة كي أعثرَ على نفسي الشّاردة؟ هل كان من الضّروري أن يُقتلَ سرحان كي أتحقّقَ من أنّني أراوحُ مكاني في قشرة الحياة لا في جوهرها؟ مِن أنّني كنتُ طيلةَ هذا العمر أركبُ سفينةً مِن ورق وأعجبُ لمَ لم توصلني إلى شاطئ الأمان والرّاحة المنشودة؟ هل كان من الضّروري أن ألتقي (بمنيب) زوج هنادي كي أدركَ أنّنا كلّما أوغلنَا في البعد عن الوطن ازدادَ حنينُنَا إليه فنحملُه خارطةً صغيرة نعلّقُها في غرفة الجلوس؟ نعلّقُها ونتذكّرُ ما وقعَ علينا مِن ظلمٍ وأنّنا في هذه الحياة إنّما نركبُ سفينة من ورق؛ لا تصمدُ في وجه ريح عاتية ولا حتّى أمام موجةٍ رضيعٍ ما زالت في المهد؟ مِن غير بوحٍ اتّفقنا على أنَّ ما ينقُصنا هو الوطن والإحساس الفائق بالمواطنة الحقّة. أيقنتُ أكثرَ أنْ ليسَ المجد للقرش وأنْ ليسَ الوطنُ حيثُ يكون صيدُه سهلًا كما يقول شريف حموري.

أيقنت أنْ ليسَ العالمُ كلّه وطني كما يزعم عيسى الضّامر. الوطن هو ما قاله سرحان: «وردُ الحدائق يبعثُ الشّذى ويرفضُ سجن الأصص الفاخرة». والمواطنةُ كما قال اشتياقُ المرءِ إلى الأزقّة الضّيقة الموحلة، إلى حجرٍ تعثّر به في الطّريق فأدمى قدمه الحافية.. أخيرًا أميّزُ بينَ الصّواب والخطأ، أخيرًا وجدتُ مَن يحسدني. أنا بكلّ ما فيَّ مِن نقص وعيوب وجدتُ مَن يحسدني. منيب. غبطني على قربي من الوطن السّليب، واستطاعتي الوقوف على النّهر لأعبَّ منه وأشبع كما كان متاحًا له بعد حزيران مباشرة ولمدة أربع سنين تلته إذ جاء من بغداد خصيصًا ليعبر النّهر مزنّرًا بالقنابل والرّصاص. هي المرّة الأولى والأخيرة الّتي غادرَ فيها بَغداد منذ حملَه أبوه إليها من بيسان. قال بحنين دافق:

- بيسان والنّهر توأمان.

عبرَ إليها أكثرَ مِن مرّة ولطمَ المستوطناتِ فيها بالكاتيوشا. تخصّصَ في منطقة بيسان إذ وجدها كما وصفها أبوه له شبرًا شبرًا؛ فحرثَ بالقنابل أرضًا غاب عنها المحراث والبغل القبرصي. سألته إن كان التقى أو تعرّف بسرحان. انبسطَت أساريرُه دفعةً واحدة قبل أن تتلبّدَ على وجه سحبُ الذّكريات:

- سرحان؟ ومَن لا يعرفُه؟ كنّا نسميه الأخضر تيمّنًا بالأرض ولون عينيه.

سارع إلى إفراغ تنهّدة بين كفّيه ثمّ قال بزهو:

- إنّه رفيقي. أربعُ سنين قضيناها معًا. سنوات أربع هي الّتي أحسبها من عمري.

ضمَّ يديه إلى صدره وذابَ صوتُه رقّة يرتشفُ الذّكريات شهدًا مصفّى:

- سرحان؟ إنّه أشجعُ مَن عرفت. عرسُه الحقيقي أن يُكلّفَ بأخطرِ المهام. يهرعُ إلى الموت كأنّما هو مقبلٌ على زفّةٍ أو ميلاد جديد.

في غمرة إحساسي بالزّهو لأن سرحان صديقي، قلت بفرح.

- ألم تعلم؟ لقد استشهد في بيروت.

قلتها كأنّما أزفّ بشرى سعيدة ولكن في اللّحظة التّالية هاجمني الحزنُ فقلت بحسرة:

- قتلوه. قتلوا سرحان.

توقّعت أن يشهق استنكارًا ودهشة، أن يتلوّى لوقع الخبر الصّدمة، بيد أنّه صفن برهةً ثمّ قال بصوت واضح نقي:

- مثلُه لا يعيشُ طويلًا. مثله يترصّده الأعداء وهم كثرٌ هذه الأيّام كما كانوا دائما.... وإذا ما اصطادوه ناموا ليلهم طويلًا.

ترحّمَ عليه وذاب أسفًا لفقده. لمحت دموعًا تتشكّل في عينيه رويدًا فلم أدر إن كان يبكي سرحان أم يبكي نفسَه؛ وقد تصرّمَت السّنوات الأربع الّتي يحسبُها من عمره وعاد إلى بغداد ثانية بعدما قطعوا حبله السّري المتّصل بالوطن. كان يعبر إليه أو يقف على النّهر يحاورُه عن قرب ثمّ يمضي إلى عمّان في إجازة قصيرة. لم يعرف مِن عمّان غير الوحدات ووسط المدينة وهنا التقى بهنادي مرّة فأجاب على سؤال أرّقني عند رحيلها إلى بغداد أن كيفَ تعرّفَت بهذا الرّجل الّذي رحلت إليه زوجة. كان يغالب الحزن مثلي فيغلبُه، ولكي تجرَّنا هنادي بعيدًا عن دائرة الحزن اقترحَت أن نتفرّجَ على مكتبة البيت. هكذا قالت قبل أن تستدرك:

- مكتبة منيب.

لم يُبدِ حماسًا ووصفها بأنّها متواضعة ولكن حين نهض نزولًا عند رغبتي أدهشني كثرة ما فيها من كتب، وأدهشني أكثر أنّها منتقاةٌ بعناية فائقة فجاءت كلّها حولَ المسألة الفلسطينيّة؛ جغرافيّا وتاريخًا ودراساتٍ وإبداعًا في الشّعر والقصة والرّواية. أخذ يقلّبُ مؤلّفات غسان كنفاني الّتي لها النّصيبُ الأوفر في المكتبة لكاتب واحد، قال بتأثّر وخشوع:

- هذا هو الأديب الحق. يحكي عن تجربة ويغمسُ ريشتَه بتراب الوطن. لقد عقد القِران بين الرّصاصة والقلم. هذه إبداعاتُه الفائقة قبل أن يرسمَ بدمِه علامات الطّريق.

خشيتُ أن يسألني عمّا فعلته أنا على صعيد الفعل بما يوازي مضامين قصصي الدّاعية للمواجهة والصّمود. انعطفتُ بالحديث إلى نقاشٍ سبقَ لم نتوصّل فيه إلى حل حاسم؛ إن كان أجدى للفلسطيني أن يحملَ جنسيّة أخرى تتيحُ له الاستقرار، أو السّفر حيث شاء أم أنَّ الحفاظ على الهويّة الفلسطينيّة وحدها هو الأجدى بما تعنيه من قيود لا تطاق في الحلّ أو التّرحال. لم نتوصّل هذه المرة أيضًا إلى نتيجة وقد انحرفَ النّقاش إلى الجدل العقيم فسارعتُ إلى الخروج متعلّلًا بوقتي الضّيق؛ بينما كان السّبب

خشيتي مِن أن يجبهَني بذاك السّؤال الرّهيب. «وماذا فعلت أنتَ على صعيد الواقع والفعل؟».

تركتُ السّؤال معلّقًا كما تركتُ منيب وهو يحسِدُني على قربي من الوطن، يحسدُني على ما أراه تفاهة وقصورًا. لا يدري أنّني أنا مَن يحسِدُه على أنّه عبر النّهر أكثرَ مِن مرّة وأنّه رافق سرحان أربعَ سنين هيَ التي يحسبها مِن عمره؛ بينما أتذكّر عمري الّذي مضى مُرّا في دقائقَ خمس لا أكثر فتُدحرِجُ إثرها المرارةُ في حلقي حبّاتِ حنظل. أحسدُه على تلك المكتبة المنتقاة بينما أنا بادّعائي الإبداع والأدب لا أمتلكُ نصفَها؛ فحتّى هذا مصابٌ بفقرِ دم السّطحيّة والخمول.

ليس منيب أوّلَ مَن التقيه مناضلًا ومثقّفًا. كان سرحان كذلك. أدهشني خوضُه المتقن في مسائل كثيرة، يحلّلها بنظرة الخبير. وحين أسأله من أينَ له هذا، وكيف يجد الوقت للقراءة وحصد المعرفة؟ يجيب بتواضع جم.

- الثّقافة زادُ المقاتل، وحين تلتقي مناضلًا غير مثقّف فقل إنّه يرتدي قناعًا زائفًا سرعان ما يستبدلُه بآخر حسبَ تقلّب الأحوال والظّروف.

ويضيف ربّما ليخفّف عنّي وقع المعاناة أو يزيده.

- ليس الكتابُ وحده مصدرًا للثّقافة والمعرفة. هناك التّبصر والنّظرة الثّاقبة للأمور. هناك الاحتكاك بالرّفاق. هناك العقيدة الثّابتة تتفرّع منها وإليها بيادر الثّقافات، وقبل كلّ شيء هناك الأرض الّتي تتحدّث بشتّى اللّغات وشتّى المعارف.

أتركُه أو يترُكني لأرسلَ بصيرتي بعيدًا علّني أهجرُ التّردّد والرّكود والمراوحة في بؤرة ضيقة. علّني أغادرُ قشرةَ الحياة إلى جوهرها فلا أظلّ في وهمي بأنّ آل حمّوري يمثّلون مركزَ الدّائرة، وأنّني حين أختارُ القتالَ هدفًا ومصيرًا لا أمثّل كبشَ الفداء لهؤلاء وأضرابهم، وإنّما أزلزلُ الأرض مِن تحتهم فتسقطُ الكؤوسُ المترعةُ بدمِ الضّعفاء والمقهورين... تسقطُ البقيّة الباقية مِن آل حمّوري كما سقطَ صلاح وهدان على يد والدِه، كما سقط شريف على مائدةِ القمار وعاد إلى الوظيفة صاغرًا بعدما تركَها رافع الرّأس؛ يمجّدُ القرشَ ويفردُ جناحيه على حدود العالم المريض بالتّخمة.

أتذكّرُ القريبَ والبعيد. تستبيحني الذّكرياتُ وتنسِجُ مِن فوقي خيمةً سوداء أطفأت مِن قبل الشّموعَ في قاعة الطّعام واغتالت الرّقص؛ وها هي تسحبني إلى حُجرتي مثقلًا بالأصفاد. الحُجرة بسرير يتّسعُ لاثنين وأنا واحدٌ

مثقلٌ حقًّا بالذّكريات، ولكنّ هذه لا تملأ بياضَ السّرير الخالي في الطّرف الآخر. لا تحاورُني بهدوء، بل تصخبُ وتُملي عليّ شروطَها القاسية فأظلُّ مسكونًا بالضّياع، تصلبُني مِن رموشي. أحاولُ تبديدَ السّكون بهديرِ جهاز التّكييف، أغيبُ في خدرِه دقائقَ معدودة ثمّ تتكالبُ عليّ الوحشةُ والضّياع والوحدة. ليس هناك ما يغتالُ حضورَها الموجع فأقضي ليلةً مريحة، وأستقبل مِن بعد يومًا جديدًا؛ يومًا غير مكرّر يديرُ ظهره للأيّام السّابقة، للسّنينِ السّابقة الّتي مِن فرط تشابهها أتذكّرها في دقائق خمس... دقائق معدودة غير أنّها تفرشُ بالأسى مساحةً تغطّي كوكبًا ضعفَ الأرض بمرّات.

البعدُ لم يحقّق لي النّسيان والسّلوى. وحيدًا سأبقى، وعامرة الّتي سألتقيها غدًا تمنعُها اليافطة البغيضة من الصّعود إلى حُجرتي الموحشة فتملأها حياة. تلقيها اليافطةُ هناك في الصّالة. تنتظرُ أن أهبطَ إليها ومن ثمّ ننطلق إلى أماكن في بغداد لم نزرها. مضيفةٌ رائعة ومرشدةٌ تعرف بالضّبط متى يجب عليها أن تحكى أو تصمت، ولكنّ الكلام والحوار شيء والتّواصل والالتحام شيءٌ آخر. أنْ أحتملَ النّهار صابرًا عناقيدَ الحديث المتشعّب نثقلُه بها، فإنّما لأنّه يطرحها ليلًا عن كاهله ويُخلي السّاحة للغةٍ

أخرى تنقلُها العيون والأصابع المرهفة بترجمة فوريّة وتصبّها في بحر النّشوة؛ تغتال اللّحظةَ الرّاهنة وتحبسُ الزّمن الصّعب في بئر مظلمةٍ، وتلقي عليه غطاء مِن الرّصاص الثّقيل فلا يتزحزحُ إلّا مع تنفّس الفجر.

كتَبت زوجتي الحرمان على جبيني. حتّى في شهر العسل كتَبت سطورَه بالوحل. خطفَت منّي النّهار واللّيل، زرعتها شوكًا إلى أن تهادت جليلة مفعمةً بالرّغبات، فتحت كنوزها المخبوءة وقالت عيناها في اللّحظة الأولى «خذ ما لم يبدُ وما بدا لك. خذني كلّي فأنا لك». إمرأة رائعة. دميمة حقًّا ولكنّ روعتَها في دمامتها، في أجفانها الضّيقة عن عينيها البارزتين، في فمها الواسع، في يدِها وهي تغطّي لثّتَها الزّاحفة على أسنانها النّافرة. رائعة تثيرُ فيَّ كلّما التقينا نوازعَ الشّر كما أثيرُ لديها الرّغبةَ في الانتقام؛ وتسديدَ فواتير مؤجّلة حان أوانُ دفعِها بالجملة. تدفعُ هي ومِن ثمّ أعطيها لتظلَّ أبدًا شاعرة بأنّ يدَها هي السّفلى في لحظة تنتفي الفوارق فيها وتغيب الدّمامةُ والجمال؛ لتصهلَ الرّغبات المجنونة ويسيلَ الشّهد في الطّرقات يُطعَمُ منه المحرومون؛ وكلّ مَن توهّمَ أنّ اللّذات مقصورة على من أقبلت الدّنيا عليهم جمالا باهرًا وغنًى فاحشًا وسطوةً مُذهلة.

لم تنطفئ نارُ جليلة ولم يخمد أوارُها وسعيرُها. اللّقاء الأوّل عندها هو الأخير، والأخير الأوّل. لم تتغيّر حتّى بعدما أطلعتها في لحظة صدقٍ مُطلق على أنّني متزوج.

قالت وهي تلتحمُ بي.

- هذه ليست مفاجأة.

أخبرتني أنّها من البداية كانت تعرف، كما عرفَت أنَّ إجراء تحقيقٍ معها في البدء كان ذريعةً منّي؛ وأنّها بدورها اتّخذت من التّجاهل ذريعةً للّقاء وتردّدي على العيادة. لم تنطفىء جذوةُ نارها بعدما غدا الزّواج بها حُلمًا بعيدَ المنال. على العكس، انتقمت منّي على طريقتها. انتقامُها المعلن صبّته على اثنين. وزّعته بالتّساوي بينهما. أنا بإطلاقها الصّبواتِ المذهلة عليّ، وزوجتي لأنّها امرأة وقد سبقَ لامرأة أخرى أن أخذَت منها خطيبَها وألقتها في أحضانِ العنس جذعَ شجرةٍ يابسة؛ تخفي ملمسَه الخشنَ بثوبٍ طويلٍ فضفاض، وبِكرهٍ تريقُه سمًّا على الرّجال، كلّ الرّجال سيما خطيبها الّذي هرب بجلده لدى أوّل نظرة من امرأة أخرى.

كلّما تذكّرته أربدَ وجهُها بقدر ما يسمح لونُها المحروق. لا يعود إلى إشراقته النّسبيّة إلّا باحتوائي بين ذراعيها.

تسحقُ صدرَها على صدري، وتذيبُ شفتيها على شفتي تحرقُ بأنفاسها زرعي الأخضر، ومع الحريق والاشتعال ينبتُ من جديد يانعًا فتتولّى إحراقه من جديد. سَواءٌ عندها النّهار أو اللّيل. أمّا المراوغة الّتي أبدتها في اللّقاءات الأولى محاها استعدادُها الفطري للانصهار من اللّمسة الأولى، من القبلة الأولى؛ فالتّخفي الّذي اتّخذناه ديدنًا فيما بعد فجّرته هي قنبلةً موقوتة أذهلني انفجارُها. أخذني على حين غرّة.

قالت بلا مقدّمات بعدما أبدَت تذمّرها مرارًا من لقاءاتنا خِلسةً في العيادة أو في مطعمٍ مُزدحمٍ بالرّواد.

- تعالَ إلى العيادة قبلَ الدّوام بساعة، بساعتين. تعالَ بعد الدّوام. تعال متى شئت ولكن في غياب تلك الفتاة المغرورة الفاجرة ازدهار. تعال.

صوتها الذّبيح أشعلَ فتائلَ صبري على تلك اللّقاءات السّريّة الخاطفة. لو لم تكن لحظتها في مكانٍ عام لأخذتها بين ذراعي وأشبعتها ضمًّا ولثمًا. الخواطر الجارية بيننا دفعَت أيدينا للتّشابك في إصرار على أن سيحدث اللّقاء المرتقب مهما كان الثمّن باهظًا مِن سمعتى أو سمعتها. قلت لها وحبّي لذاتي يعميني عن رؤية الأصول حتّى غدا

رئيس التّحرير أفضل منّي بمراحل وهو يرفع شعاره الزّائف «قطعُ الأرزاق مِن قطعِ الأعناق».

ـ ما رأيك لو طردتِ ازدهار هذه؟

رفعت حاجبيها استحسانًا، ثمّ عبَست وفي عينيها تستلقي نظرةٌ رهيبةٌ لم يكن لها غيرُ تفسيرٍ واحدٍ حملَه صوتُها المشحونُ بالحقد.

ـ بل سأبقي عليها. هي بالذّات سأبقى عليها.

ثمّ وهي تضغطُ على أسنانها.

ـ فتاة مغرورة جاهلة.

ضربَت يدًا بيد وصاحت ممرورة.

ـ ما يغيظني اعتقادُها بأنّها أجمل إمرأة في العالم، كأنَّ بياض البشرة وحده يعطيها هذا الحق في الادّعاء ويمنحُها جواز السّفر إلى الجمال والفتنة! هذا هو رأيي فيها، بل هذه هي، فتاة مغرورة جاهلة.

ثمّ نظرت إليّ ونظرتها دائمًا تحديق. سألتني فجأة.

ـ هل تراها جميلة حقًّا؟

- جميلة؟ بالطّبع لا.

من غير تفكير أو تبصّر أجبت. فلا يعني مثل هذا السّؤال من جليلة إلّا هذه الإجابة غير الصّائبة أو المتوقّعة منّي، ولعلَّ جمالَ الفتاة ذاك الجمال النّاطق بألفِ لغةٍ يسخرُ مِن السّؤال والجواب معًا. جمالٌ لا تخطئه العين لأوّل وهلة. جمالٌ لا يُنسى. يظلُّ محفورًا في الذّاكرة أبد الدّهر. يظلّ حاضرًا موجودًا ولا يخضعُ لاعتبارات الرّفض أو القبول. ليس بحاجة إلى مَن يعترف به فهو في حدِّ ذاته اعتراف. لو قلتُ هذا لجليلة لزدتُ من بروز عينيها وطولِ أنفها واتّساع فمها تغيبُ فيه قبضةُ اليد، قبضةُ ملاكم محترف. مجرّد قولي بأنّها جميلة كان سيثيرُ زوابعَ لا تهدأ، وإن تماسكت جليلة كثيرًا تزجرُني ناصحةً «عليك أن تعيدَ النّظر في ذوقك بما يخصّ مسألة الجمال»: وهي إذ تظن هذا تعتبرُ صراحةً أنَّ جمالَ النّفس هو الجمال الحقّ وما عداه باطل زائف، وأنَّ لديها من هذا الجمال الشّيء الكثير.

تعرفُ قبل غيرها أنّها دميمة ولكنّها لا تعرف بأنَّ تعلَقي بها مرجعه إلى هذه الدّمامة بالذّات. لا تعرفُ كما أنّي لم أقل لها إنّها المدفأة حين يشتدُّ على روحي الزّمهرير. أمّا ازدهار فجميلة حقًّا جمالًا ينطقُ بألف لسان، ولكنّه ليس

ذاك الجمال الحار الّذي يرسل على النّاظرِ إليه صهدَ الرّغبة والفتون. جمالُها من النّوع البارد يحتفظُ دائمًا بدرجةٍ ثابتة لا تتغيّرُ مع كرّ الفصول حين تكون في الأغلب ما دون الصّفر. يستريحُ عليه النّظر ويتمطّى في فيئهِ المدهش غير أنَّ الخطوطَ بينه وبين القلب اليقظ معطّلةٌ فلا يحدثُ التّواصل المنشود. ينحفرُ في الذّاكرة حقًّا ولكنّه يروغ في اللّيل والخلواتِ الموحشة ولا يؤرّق غيرَ هواة الرّسم أو التّصوير ليطابقوا بين الفنّ وعلم التّشريح.

لم يكن هذا رأيي في البدء أو انطباعي، بل ما لمستهُ مِن تردّدي على العيادة وانفرادي بازدهار في غياب جليلة. أدركتُ بلا عناء أنّها مغرورة بهذا الجمال، تقفُ عند حافة الإعجاب بنفسها ولا تفارقها. هي بعكس الجميلات لا تعرفُ كم هي جميلة إلّا جرّاء انعكاس جمالها في عيون الآخرين سيما الرّجال. العيون وسرعة الومض فيها هي المقياس، وما دام مؤشّرها في صعود مستمر فهي ليست بحاجة لأن توظّفَ هذا الجمال وتطوّره إلى علاقة حبّ صريح، كما لا تعمل على زيادتِه بالأحمر والأخضر والكحل... هي بعكس الجميلات لا تقف طويلًا أمام المرآة تعدّل من هندامها أو تسوّي شعرها، وإذا ما أطالت النّظر

قليلًا فإنّما لتتذكّر العيونَ ومضَها الخاطف، لتضعَ إصبعها على السّبب في تلفّت الرّقاب نحوها حتّى يصيبها الإعياء والوجع. مرآتها العيون ترى نفسَها فيها بجلاء، فتحدّق إلى صورتها دون أن يطرف لها جفن، تحدّق أطولَ مدّة ممكنة وهذا ما سبّب لي الإرباك في لقائي الأوّل بها.

هي جميلة وأنا من طبعي أن أذوبَ وأرتبك في حضرة الجميلات حتّى لو لم يعرنني أدنى انتباه؛ فكيف لو ألصقت إحداهن عينيها الواسعتين عليّ؟! تبعثرتُ إلى أجزاء صغيرة. لم أقوَ على لملمة شتات نفسي إلّا بعد أن أغلقَت بنفسها صمّام الأمان، أغلقته بثرثرتها، بأحاديثها السّاذجة، بأحلامها الطّفوليّة. جسّدت هذه الأحلام باطّلاعي على ما أسمته قصائد شعر تكتبها. لم تتواضع أو تقف عند هذا الحد بل طالبتني جادّةً بأن أناديها إن ناديت «يا شاعرة». وحين طلبَت منّي أن أنشر القصائدَ في الصّحيفة، كانت لهجتُها مِن الثّقة بحيث أوحت إليّ أنَّ الصّحيفة محظوظة إذ تخصّها من دون غيرها بأشعارها الفذّة، وأنّني أكثرُ حظوةً إذ تحمّلني شرفَ تقديمها هي الشّاعرة الملهمة إلى النّاس.

تنكّرت لصراحتي الموجعة لأوّل مرّة فأطريت كتاباتِها وقمتُ بنشرها جزافًا تحت زاوية شعر؛ وأنا أعتبرُ أنّ كلّ ما يجري لعبة مسلّية. لم أكتشف أنّي تورّطت إلّا بعد أن طالبتني بقوّة أن أناديها إن ناديت «يا شاعرة». ازدادت غرورًا وثقةً بالنّفس. كيف لا وقد جمعَت إلى جمال الخلقة روعةَ الشّعر؟ صار اللّعب عندها جدًّا وغدوتُ بين يومٍ وليلة جسرَها إلى النّشر، تطأهُ وتعبر دون أن تتوقّف لحظةً لتسمعه كلمة شكر. ولم الشّكر وقد أصاب حظوةً فريدة وشرفًا يحسده عليه الآخرون؟ هذا لسان حالها، أمّا بالنّسبة لي فإن اللّعب الّذي مارسته في البدء ظلّ مشوّقًا ما دمت أقبض الثمّن مِن جمال أخّاذ، أتملّى منه عن قرب وهي تقرأ عليّ أشعارها المهزوزة. أحمل حقائبي وأسافرُ في عينيها الواسعتين إلى أن أصطدم بجبال الجليدِ تسبحُ في أعماقها؛ تحنّط الأنثى فيها وتطلقُ سراحَ طفلةٍ تلاعبُ دميتها العزيزة وتضحك.

رغم المفارقة الواضحة بين الجمال وبين غياب الأنثى الّتي تشعلُ الحرائق في الجسد؛ اعتبرتُ هذه الجلسات مكسبًا وقد غاب الارتباك تمامًا في حضرة امرأة جميلة أحاورُها وأحدّق إليها بثبات، أطري جمالها النّادر بينما هي تحدّق إليّ وتضحك لما تعتبره نكتة طريفة فأقفُ على

سقم اشتهائي إيّاها في البدء. أتخيّل نفسي وقد نمتُ طوال اللّيل على قالبٍ من ثلج، وجليلة رغم احتقارها الظّاهري للفتاة، لها رأيٌ آخر حين يجدّ الجِدّ، إذ تقول حين تعود إلى العيادة وتجدني معها في حُجرة المكتب والباب موارب.

- ماذا كانت تريد منك تلك الفتاة المغرورة التّافهة؟

ثمّ تمسك بخناقي وتصرخ بصوت محموم.

- سأخنقك لو أنتَ نظرت إلى امرأة غيري.

أكاد أضحك مِن ظلمها الفتاة السّادرة في عالم آخر فيه ذاتها هي المركز والدّائرة، ولكنّي أنفي ظنونَها بلهجةٍ مائعةٍ ترسلُ الغيرة فيها جيوشًا تسوق أمامها الرّغبات مسعورةً في العناق، وإشعال الحرائق في الخلوات المدروسة داخل العيادة قبل الدّوام أو بعده، أمّا أروع الخلوات فتلك الّتي حدثت في بيتها الكائن في أحد الأحياء الرّاقية. حدثَ هذا بعدما أبدت تذمّرها وضيقَها من لحظاتٍ نسرقها من ازدهار أو المراجعات؛ لحظات تبلّ الحلق ولا تطفئ الظّمأ على حدّ قولها. قالت بفرح، تزفّ إليّ بشرى وهي تدسّ في يدي مفتاحًا صغيرًا.

- اللّقاء التّالي في البيت. لقد ذهب والداي إلى الشّام في زيارة طويلة.

حدستُ مسبقًا بالّذي سيحدث. أحسّست بضيقٍ لم تلحظه جليلة. هي تريدُ أكثر من أوقات نأخذها خلسة ولا تطفئ الظّمأ، وأنا لا أريد أن أرتوي تمامًا فيسرقُ الارتواء مِن اللّقاء التّالي بهجتَه ورونقه. أرغب في أن يكون لي ظمأ دائم إليها. أسعى إليها بشوق والتياع، أشوي ذاتي على مهل، أشويها على نار هادئة لا أن أضعَها في أتونٍ فتحترقَ ولا يبقى أثرٌ من لقاء واحد غير دخان ورماد. تخوّفت من لحظة تأتي أعبُّ فيها مِن جسد جليلة بلا حذر، وبعدها أتجشّأ من التّخمة ويفقدني البطرُ والارتواء بهجة اللّقاء التّالي ورونقه.

قالت والسّرور يقطرُ من عينيها البارزتين:

- لقد أقنعتهما بضرورة تغيير الجوّ وقضاء شهر أو أكثر عند أهلنا وأقاربنا هناك.

ولعلها فطنت إلى أنّها تخبرني بهذا لأوّل مرّة فأردفت موضّحة.

- أتى أبي إلى عمّان منذ ثلاثين سنة، ولكن مازالت لنا في دمشق وضواحيها أرضٌ وعقارات كثيرة.

عزفَت بأصابع الغنى على وتر الفاقة والفقر. شعرتُ أن الأمرَ دعوة صريحةٌ للزّواج... رفعَ الصّدق رأسَه متحدّيًا، وفي اللّحظة التّالية تخيّلتُ أنَّ الزّواج من جليلة سيكون في منتهى الفشل، بل أكثر فشلًا من علاقتي بزوجتي وإن لم أرَ في هذه حجر عثرة أمام تحقيق هذه الرّغبة. لم أستطع تخيّل جليلة زوجةً تمارسُ عملَها في العيادة، ومِن ثمّ نلتقي في بيت واحد محكوم عليّ أن أعود إليه مهما اشتط بي البعد؛ لنمارس مِن بعد حياة رتيبةً هادئة تترسّب فيها الطّحالب والعوالق ويطفو الرّكود على السّطح حارسًا هذا النّعاس. العنف والصّخب والصّبوات المجنونة، هذه كلّها من مقوّمات جليلة، تجذبني مع دمامة ظاهرة لعين رمداء فكيف تتخلّى عنها لتجنّ طائعةً في قفص اسمه الزّواج؟ كيف لي أن أكرّر فعلةً ندمتُ عليها والزّواج أوّل خطوة في طريق الفشل؟ لقد تركتُ الوظيفة وهي خطوةٌ أخرى فاشلة، تركتُها في لحظة شجاعة فريدة، ولكنّ الزّواج لم أستطع تركَه أو التّخلي عنه.

قلتُ وأنا أرى جليلةً أكبر من الزّواج، أكبرَ من العلاقات المكتوبة على الورق ويشهد عليها الشّهود.

- جليلة! أنا متزوّج.

قلتها بسرعة كأنّما أفرغ الرّصاص في قلب عزيز اضطررتُ لقتله اضطرارًا. قلتُها قبل أن ترتدّ إليّ عيناها تشلّان إرادتي. كنّا يومها في العيادة وجليلة ملقية برأسها على صدري. رفعَت وجهَها إليّ صامتة، ثمّ ابتسمت. لأوّل مرّة لا تزحفُ يدها على فمها حين تضحك أو تبتسم. قالت ببرود:

- هذه ليست مفاجأة.

طوّحت بذراعيها حوَل عنقي، جذبتني بقوة حتّى غدا وجهي فوق وجهها تمامًا.

- ليست مفاجأةً على الإطلاق. لقد عرفتُ هذا منذ أن اقتحمتَ مكتبي أوّل مرّة، حين تذرّعتَ بالتّحقيق الصّحفي وادّعيت أنّني أفضل طبيبة في مجال اختصاصي.

ضحكت عن أسنانها النّافرة:

- ميّزة ازدهار في أنّها لا تخفي عنّي شيئا.

لا بد أنّ ازدهار قد أخبرتها بما أغدقُه عليها من كلام الإطراء والغزل. لا بد فالجمال عندها دميةٌ تلعبُ بها

وتدفعُها إلى الآخرين ليتفرّجوا ويبدوا إعجابَهم لتفرحَ من أجل الفرح والسّرور. قطعَت جليلة الطّريق على مخاوفي بأن زمّت شفتيها في دعوةٍ صريحة لتقبيلها، لم تنتظر أن أبدأ، التقطت شفتي بنهم تعضّهما وتمضغهما قبل أن أتنبّه لأجدَها بكامل جسدها فوقي:

ـ وهل طالبتك بالزّواج أيّها الوغد؟ لن أطالبَك به أبدًا. نحن هكذا في منتهى التّجلّي والوفاق، لا ينقصنا غيرُ مكان هادىء بعيدًا عن العيون، مكان يلتمّ فيه الشّمل ولا نخضع فيه للزّمن القاسي.

وضغطَت على المفتاح الصّغير في يدي مشيرةً إلى المكان المنتظر. منحتني تأشيرةَ الدّخول إلى البيت أعبرُه وقتَ أشاء، دخلتُه غازيًا ومنحتني الإقامة الدّائمة في جسدِها الظّامئ، أمدّ نهرَ الحياة فيه بدمٍ جديد بعدما أصابه اليباس، وهي بدورها تمطرُني بفيئها وسعيرها حسب الأصول، تعمّقُ دون أن تدري أو عن وعيٍ مطلق من الهوّة القائمة بيني وبين زوجتي بشواطئها الضّحلة الرّاكدة، بسذاجتها وغبائها الفطري، بغيرتها الغائبة.. انتظرتُ صحوتَها فيخزّني شوكُها لأتذكّر مرّةً أنّ لي زوجة تنتظر. تذمّرت حقًّا من غيابي المتكرر ولكنّه تذمّر لم يصل درجة الغيرة؛ فمبعث تذمّرها أنَّ غيابي الطّويل

عن البيت يسبّبُ لها الخوف، لا عليّ، بل على نفسها، خشيةَ أن يحدثَ لها مكروه أو تصحو من النّوم على جلَبةِ سارقٍ اقتحم البيتَ مطمئنًا لغياب الرّجل.

لم أشكُ لجليلة رحلةَ زواجي البائسة ولكنّها حزمَت مشاعرَها فأهدَرت طاقاتِها كيما تعوّضني عن كلّ ما فاتني تحقيقُه. معي مشاعرها في مدّ دائم لا تعرف الجزر. هذا ديدُنها في كلّ لقاء سيما ما حدث في بيتها، سيما ذاك اللّقاء الأوّل الّذي جاء بعد طول انتظار.

خطّطَت لسفرِ والديها طويلًا فجاءت لحظة الاستثمار صارخة. وجدتني أمام امرأة ألقت العذار جانبًا، امرأة تنظرُ إلى ما فاتها من سنين بحقدٍ دفين وترى في اللّحظة الرّاهنة كاملَ وجودِها وحضورها وفرصتها النّادرة للانتقام. هي المفترسة وأنا الفريسة جاءت إلى حتفِها برجلها. عليَّ ألّا أبارك الافتراس وحسب، بل وأشحذ لها أسنانها كي تدخلَ فيَّ حتّى العظم، تشربُ نسغي الكأس تلو الكأس بفجور واضح لا يعرفُ الارتداد أو المراوغة. المراوغة تركَتْها خلفَها في الشّارع، في العيادة، في السّيارة. تركتها في عيون النّاس تخدعُهم باستقامتها وعفافها وبثوبها الفضفاض الطّويل وبمنديل تحبكه على

الرّأس يخفي رقبتها نافرة العروق؛ وشعرًا باتت تصبغُه لتطرد الشّيب الزّاحف قبل الأوان.

دأبَت منذ تعارفنا أن ترمي المنديل وتخلع الثّوب لدى دخولها العيادة أو التقائنا في البيت؛ مرسلةً عليّ سعيرها بلا حواجز والشّواء الّذي تقتُ له يغدو احتراقًا داخل فرنها الملتهب؛ ولا تبقي منّي غير حفنة مِن دخان ورماد. هذا هو ديدنُها في كلّ لقاء لنا بين جدران بيتها الواسع. تطاردني في جنباته العريضة. تضعُ بصماتِ جسدها العاري في كلّ حُجرة، على كلّ سرير، على السّجاد العَجَمي، أو على البلاط العاري في المطبخ أو الحمام. هي المطاردة دومًا وأنا الطّريدة، والبيت الفاخر مصيدتي الرّائعة أسعى إليه كلّ مرّة لطعمٍ جديد لم أذقه في المرّة السّابقة، ولكن تبقى المرّة الأولى هي الأروع، الأكثر إثارةً وحضورًا، الأكثر دهشة من الدّهشة ذاتها لا لشيء متميّز إلّا لأنَّ جليلة مارست فيها المراوغة عن قصد.

أدركتُ هذا من البداية حين تركتني في حُجرة الجلوس، غابت برهة ثمّ عادت بثوبها الطّويل الفضفاض، عادت بالمنديل وقد حبكته أكثر على رأسها وعنقها وأعلى ذقنها المدببة. وقفت أمامي بقامتها الطّويلة النّحيفة ويداها على خصرها فيما عيناها تغيبـان لأوّل مرّة في أجفانها الضّيّقة

ويختفي منها البروز. تقولان «انظر. انظر جيّدًا كيف كنتَ قبل أن تخدعني وتجرّدني من ثوبي في العيادة لغاية التّصوير الكاذب. انظر». وقالت عيناها «لم تكن تلك هي اللّحظة المناسبة للعري، ولكن ها قد جاءت الآن... دعني أسترجعها لحظة بلحظة لتنحفرَ في خاطري إلى الأبد، دعني أعيشها، وهيت لك».

داخلني الغرور وهناك مَن يطلبُ الإعادة لدور مثّلته فيما مضى واعتبرته سقيمًا في حينه. هنا جليلة تعيشُ تفاصيله الدّقيقة الرّائعة وتوحي بأنَّ فصولَه كانت ناقصة وأنَّ لحظة الكمال قد جاءت فهيتَ لي.

مرّ هذا في خاطري سريعًا. أحسست بومضة الخاطف يصهل في أغواري المعتمة ويبقى هناك يتردّد كصدى الرّعد، وجليلة الّتي أوحت إليّ بالفكرة باتت تنتظر عملًا تعرفه ولكنّها تتعمّد نسيانه. عمل سيدهشُها حتمًا كأنّما هي المرّة الأولى بالفعل حيث تتخلّصُ مِن ثوبها بأصابعي الرّشيقة الماهرة. اختفى من عينيها الحياد، حلَّت محلّه نظرةٌ مشبّعة بالانتظار المريب، ولمّا لم يكن معي آلة تصوير التقطتُ منفضةَ سجائرٍ وتهيّأتُ لالتقاطِ صورة لها تمامًا كما حدث في العيادة قبل هذا بشهور؛ وكما تصرّفت

جليلة في حينه، احتجّت ومانعت وأنا أزيحُ عن أرسها المنديل ومن ثمّ أفك أزرارَ ثوبها.

- لا. لا. التقط لي صورة وأنا هكذا. هكذا أفضل. لا. لا يا متروك.

لم تزد على المرّة الأولى شيئًا سوى أنّها أضافت إلى نغمة الاحتجاج اسمي. وحين خلّصتُها من ثوبِها ووضعتُ يدي على المشدّ أزيحه بهدوء. ضربتني على يدي وصدري بقبضتها، رفستني وقاومت بضراوة تمطرُني بأحطّ الصّفات. أدهشني قاموسها العجيب فأرسلَ البرقَ يصهلُ في أركاني المعتمة. ظلّت تضربُ وترفسُ وتسبُّ حتّى إذا صارت بين يديّ عارية تمامًا سكنَت فجأةً وناب عن عنفها وبذاءتها لهاث محموم؛ أطفأته وهي متكوّمة على الأريكة كما اشتهت أن يحدثَ في العيادة قبل شهور فحال الباب غير المرتج؛ وكذا المراجعات في الخارج وازدهار من حدوثه.

لم تترك التّعمية والمراوغة. مارست قلب الحقائق بقولها غاضبة.

- ألا يرضيك غير أن تغتصبني اغتصابًا؟!

خيّل إليّ في البدء أنَّ هذا هو ما يحدث حقًّا حين مثّلت عليّ دورَ الضّحيّة؛ قبل أن تطلقَ حممَها كفعلٍ مُبرّر وموازٍ لإحساسها المُطلق بالدّمامة. هذا الإحساس لا يفارقُها وهي تتذكّر خطيبها الوغد أو حين تنظر إلى وجهها في المرآة، لذا ومن بابِ خداع الذّات تريدُ إقناع نفسها بأنّها مرغوبة؛ وهي تتمنّع في الوقت الّذي تمارس فعل الاغتصاب عليّ. تقوم بالافتراس؛ فتوسِعُ الشّرخَ بيني وبين زوجتي الّتي حين أضعها على المشرحة أرى أنَّ بينها وبين ازدهار أكثرَ مِن صفةٍ مشتركة... كلاهما قالب ثلج، كلاهما في منتهى برود العواطف أو غيابها بشكل أكثر تحديدًا ودقّة.

مع هذا أجدني أحنّ إليها. أحنّ إلى ابني منها. أحنّ إلى ذلك الحجر الّذي أدمى إصبعي تحت شجرة الزّنزلخت الأمّ قبلَ أن أعي وجودي، قبل أن أفتحَ عيني على الحياة وأشربَ مرارتِها مركّزة. كلّ ما مضى أتذكّره في دقائق خمس لا أكثر، فالأيّام مكرّرة رغم أنّها حبلى بساعات الصّفر. ساعات حين تقرعُ أجراسها أنتفضُ وأنفضُ عنّي التّردّد والرّكود والمراوحة في بؤرة ضيّقة. ساعات شكّلت منعطفات بارزة في حياتي أطلقُ معها التّردّد والجبن؛ وأنهض مِن بين قوسين باهتين في هامش صغير

رديء الطّباعة، تتصفّحُني العيون وتمضي، لا أؤثّر في غيري أو أتأثّر بشكل حاسم يشبه الانقلاب. أكثر من فرصة تهادت إليّ، لو ابتهلتها لكانَ على هذا السّرير الآن إنسانٌ آخر، لا يجترّ الذّكريات والأحداث اجترارًا، بل يصنعُها أو يشارك في صنعها... صلاح وهدان، رحيل أبي المفاجيء أو المدروس، رحيلي أنا إلى بيروت، منعطفات آل حمّوري الخطرة، نهاية شريف على مائدة القمار، وقبل هذا كلّه سرحان وحياته الزّاخرة بالتّضحيات حتّى لحظة استشهاده ووضعي الوسادة تحت رأسه في التّابوت. كلّها ساعات الصّفر الّتي هزتني عنيفًا، حرّكتني بعيدًا عن شواطئي الضّحلة ولكنّي لم أمارس بعد السّباحة في عرض المحيط الزّاخر بالحركة والصّخب؛ فأمارس هناك فعل الحياة كما يجب. لعلّ تركي الوظيفة كان أوّل عمل يتّصفُ بالإقدام والجرأة. تركتُها بعد أن غادرت سرحان واعدًا بأنّ الصّحيفة مكاني الحصين أطلِقُ منه الرّصاص وقت أشاء وحين تقتضي الحاجة. غادرته أو تركَني أذهب بعدما شحَنني ببطاقة لا تنضب. تحدّيت رئيسَ التّحرير وإن جاءت استقالتي من الوظيفة كردّة فعل فوريّة. المهم أنّي تركتها وطلّقت الرّكود والموات وفرضتُ مِن بعد وجودي على العاملين في الصّحيفة؛

وأوّلهم رئيس التّحرير فلم يستطع إلّا أن يثني على ترشيحي لحضور المؤتمر الإعلامي في بغداد مسقطًا مِن حسابه عيسى الضّامر؛ الّذي يتحفّز لامتطاء كلّ موجة عابرة توصله إلى محطّة أخرى؛ أقرب إلى الشّهرة واستعراض القدرات الفائقة أو على الأقل أن يقف في وجه غيره ويمنعه من الوصول.

أغلب الظّن أنّه مارس الدّس ضدّي ليمنعني من الذّهاب، رغم أنّه بارك ذهابي وقال إنّه سيكون في وداعي وفي استقبالي حين أعود. لم يودّعني ولن يعدم لسانه الزّلق من سوق المبررات والأعذار. ولكن ماذا عساه يقول حين يحنثُ بوعده مرّتين، حين لن أجدَه في استقبالي حتمًا؟

(6)

سألني جاسم ونحن نقتربُ من الفندق بعدما أرهقني اللّف والدّوران على المناطق الأثريّة والتّاريخيّة.

- أترغبُ يا أستاذ في أن أعود إليك عند المساء لتذهبَ إلى أماكن أخرى أم أنَّ ما شاهدته اليوم يكفي؟

نظرتُ إلى ساعتي. كانت عقاربُها تقتربُ من الرّابعة. أطلقتُ صفرةَ استغراب مِن انقضاءِ الوقتِ بسرعةٍ رغم الإرهاق والتّعب. في الوقت ذاته سررت لأنَّ موعدَ ذهابي إلى عامرة قد مضى عليهِ ساعتان. قلتُ بسرعة كي يمضي لأنَّ اصطحابَه هذه المرّة ليس من خططي.

- أجل. يكفي اليوم.

ناولته لفافة خطفها منّي بأصابعَ رشيقة كما يفعل دائمًا، فيدهشُني أنّه رفضَ بإباء أن أعطيه بقشيشًا، ولعلّه يلاحظ هذا مثلي فيبرّرُ لهفته في كلّ مرّة بجودة التّبغ الّذي أحضرتُ القليل منه في حقيبتي الصّغيرة؛ وبقيَ أكثرُه في

تلك الّتي فضّلت البقاء في عمّان مع كلّ ما لديّ مِن ملابس ممّا دفع جليلة إلى القول مستغربة:

- من يراك تحملُ كلّ هذا يظنّ أنّك لن تعود!

دفعت إلى جاسم علبةً كاملة أخذها ممتنًّا، وقلتُ كي أستخلصَ منه وعدًا بخدمتي.

- سأتعبك كثيرًا معي.

نظر إليّ معاتبًا. بسطَ يده على صدره.

- لا تقل هذا يا أستاذ. أخدمك بعيني.

تسلّلتْ طيبتُه إليّ فصمّمتُ أن أخصّه بهديّة مناسبة في اليوم الأخير علّه لن يرفضَها.

كدت أصيحُ به «انطلق إلى بيت عامرة». ولكن بدلًا من هذا ربتُّ على كتفه شاكرًا فجاءت حركتي في منتهى الفظاظة وكذا صوتي.

- مع السّلامة أنت.

انطلق ملوّحًا بيده فظللتُ أرقبُه حتّى اختفى بين أرتال السّيارات. انتظرتُ مدّة أخرى حتّى إذا ما استقلّيتُ سيّارةَ أجرة لا ألتقي به في الطّريق. رغم أنَّ اصطحابَه معي إلى

بيت عامرة ليس مِن خططي إلّا أنّني لا أدري بالضّبط لمَ أمارسُ عليه التّعمية والخداع؟! هل لهذا علاقة بخواطري تجاهها ليلة أمس حين أتت إلى الفندق ومنعتْها اليافطةُ البغيضة من الصّعود؟ ربّما. ولكنّ شيئًا مِن هذا الحذر تعلمتُه من جليلة حتّى بعد أن أقنعَت والديها بالسّفر إلى الشّام.. أنتظرُها في مكان تحدّدُه سلفًا إلى أن تأتي بسيّارتها. أتلفّتُ يمنةً ويسرةً قبل أن ألقي بجسدي في المقعد الأمامي بجوارها ومن ثمّ تنطلق بسرعةٍ مذهلة إلى البيت مصيدتي الرّائعة.

لم تقل صراحةً أنّها تخشى أن يرانا أحدٌ مِن معارفي أو معارفها معًا. ولكنّ اضطرابَها سيما في المرّات الأولى كان أبلغ مِن أيّ كلام. حبكُ المنديل على رأسها حتّى العينين وأسفل الذّقن. التّخفي بنظارة سوداء. رغبتُها بشراء سيّارة أخرى غير تلك المعروفة بلونها الأصفر الفاقع؛ وبابيها الكبيرين ومحركّها القابع في المؤخّرة بهديرِه المزعج. لم تنسَ التّلميح إلى أنّها طبيبة وأنّي زائر محتاج إذا ما تعرّض أحدُنا للسّؤال. عذر واهٍ صدّقته رغم أنّها في قرارها غير مقتنعة وغير محتاجة للتّخفي أو إبداء عذر للّقاء.

جليلة الطّبيبة الثّريّة والقاطنة في حيٍّ تفوحُ منه رائحةُ العطر وأنفاس النّوم الهادئة ضحى؛ يرى أصحابُه في الاختلاط بين الجنسين أمرًا مسلّمًا به وعنوانًا بارزًا للرّقي؛ وهي بطبعها غير محافظة ولكنّها حين التقت برجلٍ ينسيها خطيبَها الوغد ولؤم الرّجال حاولت أن تقنعَ نفسها قبل الآخرين بأنّها زاهدة في الحب وفي الحياة ذاتها.. ظهرتُ فخلق ظهوري صراعًا مريرًا بين المرأة المتحرّرة بطبعها وبين تلك الّتي تطبّعت على المحافظة. حالة من المدّ والجزر قطعت خيط الثّبات على مبدأ واحد فجاء حذرُها كحذري الآن ردًّا باهتًا على أسئلةٍ تتوالد سريعًا؛ دون أن أعثر على جواب فأعرفَ بالضّبط لمَ هذا الحذر ولم أخليتُ سبيل جاسم؟! لم أتأخّر عن الموعد. أوقفتُ سيّارة أجرة. أعطيتُ سائقها العنوان واسترحت في المقعد الخلفي؛ أنظر إلى النّاس على الأرصفة، وحركة السّير المنتظمة والحافلات في المحطّات المتناثرة في السّاحات الواسعة والمسافرين في طوابير طويلة ينتظرون دورَهم للصعود.

تخيّلتُ نفسي أقفُ في المؤخّرة، أتخلّى عن مكاني طائعًا لسيّدة أو عجوز طاعن في السّن، أو مُكرهًا لشاب مفتول الزّندين يزيحني عن طريقه ثمّ يفترسُني بعينيه إن كان

لديّ اعتراض على ممارسته حقّه وحريته. عبثًا سيلمحُ اعتراضًا من أيّ نوع، فالاحتراق داخلي أتنفّس دخانه الأسود. عبثًا أناقشُ بصوتٍ عالٍ حولَ الفَرقِ بين الطّواعية والإكراه، حولَ ما يجوزُ وما لا يجوز. أخنقُ أمنياتي الكثيرة سيما القريب منها وما يمكنُ تحقيقه لو تخلّت عنّي الفضائل وخصالي الحميدة... أتمنّى أن تكونَ لي سيّارتي الخاصة، وفي الوقت ذاته لا أستطيع احتمال أن يركضَ شخصٌ فردٌ على أربع سريعة بينما الآخرون يتكدّسون في المحطات كالنّمل كراديس، كراديس. عيسى الضّامر كان أوّل مَن أدخلَ في ذهني رفض العفن البرجوازي مؤكّدًا على ضرورة الاهتمام بالقطاع العام ليخدمَ الجميع، ليستثمرَه الجميع؛ وكلّما مرّت عنّا سيّارة خصوصيّة لاحقَ صاحبها باللّعنات لأنّه يسحبُ الهواء مِن خلفه ويتركُ على الأرصفة أطفالا وعجائز هدّهم تعبُ الوقوف.

- هؤلاء سبب ما تراه مِن زحام.

يلعن الفوارق الطّبقيّة ويبصقُ على راتبه الزّهيد في وزارة الأوقاف ولكن لم يمضِ على التحاقه بالصّحيفة عام واحد؛ حتّى اشترى سيّارة جديدة من المصنع إلى يدِه الّتي غدا يصفُها بالمهارة ويأسفُ على تلك الأيّام الّتي قضاها

ماشيًا، كما أخذ يردّد «مجنون مَن قال إنّها كماليات». صارت له سيّارته الخاصّة، وإن هو اضطرّ إلى الاستدانة أو السّطو ليملأ خزانها بالوقود، وإن هو تشدّق بالكلام ورفع الشّعارات عن انتصار الكادحين آخر الأمر فإنّما ليشيرَ إليّ أنّه لم يبلغ درجة البرجوازي العفن.

شريف حمّوري على خسّته يظلّ أفضل منه بمراحل، فهو على الأقل لم يزيّف مشاعره، على العكس كان يظهرها ويتباهى بأنَّ لديه الاستعداد الفطري لارتكاب الفواحش حتّى كانت نهايتُه بفاحشة منها... يزاحمُ في محطّة السّيارات وحين تنغلقُ في وجهه السّبل يقفزُ من النّافذة ومن ثمّ يلوّح لي بيده فرحًا لأنّه سجّل نقطةً لصالحه، لصالح ما يؤمن به مِن قيم مغلوطة ستوصلُه إلى ما يشتهي آخر الأمر. وصلَ إلى أكثر ممّا يشتهي دون أن يمارسَ التّزييف ضدَّ مشاعره كما يفعل عيسى الضّامر. اتّخذَ مِن التّزييف ديدنًا رغم أنّه مازال صديقي، رغم قول هنادي بأنّه يحبّني موحية بذلك أنّه وإن تخلّى عنها لا يعني تخلّيه ضمورَ الحبِّ بقدر عجزه عن إظهار مشاعره كما يجب.

حين استقلتُ من الوظيفة انضمَّ إلى زوجتي في وصفها لي بالتّهور وقصر النّظر، بيد أنّي أحسّست برغبتِه الدّفينة

لو أنّي أترك الصّحيفة أيضًا فيخلو له وجهُ رئيس التّحرير؛ فلا يقارن بين مَن يشتغل بصمت وبين من ليس له رصيد فعلي غير الجعجعة دون فعل. عنّفني بشدة ولكنّه لم يستطع أن يطمسَ رأيي فيه كما لم يستطع أن يدفعَني إلى وهدةِ النّدم. قارنتُ يومها بينه وبين شريف حموري فألفيتُ أكثرَ مِن وجهِ شبه غير أنَّ الأخير لا يُظهِر خلافَ ما يبطن إذا ما تعلّق الأمرُ بالأهداف المؤجّلة. كلاهما كان في خاطري وأنا أترك الوظيفة غير آسف بالمرّة. عيسى بالذّات كان في خاطري وأنا أتحدّى رئيسَ التّحرير فاختار الصّحيفة بعدما خيّرني بينها وبين الوظيفة الّتي انقلبتْ مع السّنين إلى همٍّ مقيم تصبُّ المغرم بها في قالب حديدي فلا يكبر أو يزيد؛ يرى ذاته في قعرِ السّلم البشري، عليه أن يرفعَ رأسه عاليًا كي يرى صغارَ الحرفيّين والتّجّار والكَسَبَة، وحتّى المتسوّلين يراهم فوقه يمرحون ويلقون بالنّفايات عليه بعدما انقضى زمنٌ كان فيه محسودًا من الجميع.

حسدني شريف حمّوري وقد سبقتُه إلى الوظيفة بعامين قضاها في معهد المعلّمين، لم تمضِ عليه بضعةُ شهور فيها حتّى كان أسرع منّي إحساسًا بالغبن من حيث إنّها لا تتناسب وعلمه وذكاءه؛ ولا تكفي لأساسيّات الحياة وَبَلَهِ

الكماليّات الّتي صار ينشدُها مَن لم يدخل في حياتِه مدرسة ولم يقرأ أو يكتب حرفًا. لم يفلسف مثلي الأمور ويرجع هذا الانقلاب في الموازين إلى خطط مدروسة تسحبُ البساط من تحت المثقّفين والمبدعين، لم يفلسف الأمور ولم يقرن النّتائج بالأسباب والنّتائجُ أمامه ظاهرةٌ ملموسة أحقّ بالبحث والتّقصّي. أحقّ بأن يصل إليها بمختلف الوسائل سواء أكانت مشروعة أم في منتهى الانحطاط والنّذالة. المهم أن يصل ويجهز على الغبن ويطلّقَ الفاقة ولا يدع مَن لم يدخلوا المدرسة ليوم واحد يقفون على رأس السّلم بينما هو في القاع ينظرُ ويتحسّر.

لم يمارس التّزييف والمراوغة كما هو شأن عيسى الضّامر، يفتحُ أوراقَه أمامي ونحن جالسان في المقهى نلعب النّرد وندخّن ونشرب الشّاي أو اليانسون شرابه المفضل خارج الحانة، يطلق الزّفراتِ مِن قعر صدره ويستذكر ابني عمّه عادل وعزيز، كيف كانا وكيف أصبحا وأحدهما شبه أمّي لم يدخل المدرسة قطّ؛ والآخر فاشل رسبَ في الشّهادة الثّانويّة ثلاث مرّات. أشعر أنّه يتحدّث بلساني في هذا الشّأن، ومع هذا أحاول التّخفيف عنه فيضرب المنضدة بقبضته صائحًا.

- ابقَ أنتَ في مثاليّاتك هذه إلى أن يحملوك من المقهى اللّعين جثّة هامدة. ابقَ، أمّا أنا فسأمتطي أحطّ الوسائل الممكنة وغير الممكنة إلى مبتغاي. لا يهمّني.

ويترجمُ هذا سريعًا حين يأتي النّادل طالبًا الحساب. يماطلُه شريف ويغالطه. يدخلُ معه في جدلٍ طويل حتّى يقنعه بأنَّ ثمن المشروبات أقلّ بكثير ممّا طلب، أمّا ذاكرته المدوّنة في الدّفتر فليس من صالحه أن يثقَ بها لأنّها معرّضة للسّهو والخطأ، وإذا ما وقفتُ إلى جانب النّادل غالطني أنا أيضًا ونصحني أن أعالج ذاكرتي المثقوبة، وحين نمضي عائدين إلى بيوتنا يزجُرني على مثاليّتي، يحملُ على قلبي المرهف ناصحًا أن أضعَه في ثلّاجة خشيةَ العفن، ثمّ يقتحم الواقفين في المحطة، يزاحمهم، فإن لم يكن أوّل الصّاعدين مِن الباب قفزَ من النّافذة ملوّحًا لي بيده فرحًا لأنّه سجَّلَ نقطة لصالحه، نقطة أروع ما فيها أنّه سطا عليها من الآخرين فأثبتَ من جديد أنَّ زمن الاستقامة والمثاليات قد ولّى بلا رجعة... هذا هو رأيه حين أخذَ يمضي جلّ وقتِه في الحانة. أنتظرُه في المقهى فلا يأتي، وإن فعلَ كان السّكر قد تَعتعَهُ. ينطلقُ بلسانِه الثّقيل يسفّه آرائي في الخمر، يعتبرُها أوّل خطوة في إيقاعه الطّلاق على المثاليات الزّائفة، أوّل خطوة في

الطّريق الملتوية الّتي لا بد للسّائر فيها من الوصول إلى مبتغاه؛ لذا بسطَ أوراقه دون مواربة متوّجًا وسائلَه القذرة المفضّلة باشتغاله في الفندق ليلًا.

لم أدرِ في حينه أنّه يحاول السّير في خطٍّ موازٍ لابني عمّه إلّا بعد أن تركَ عزيزُ بيعَ الماء القراح والشّطائر على الجسر؛ ليدخلَ مِن باب المقاولات العريض، وإلّا بعد أن ترك عادل الوظيفة مُحالًا على التّقاعد طاويًا قضيّة الرّشوة والغش والاختلاس.

أخذ يردّد كلّما التقينا في المدرسة أو المقهى.

- أرأيتَ إلى الجاهلين والفاشلين؟!

ويستعرض تفوّقه في المدرسة. كنّا في صف واحد فاعترفتُ له بالتّفوّق والذّكاء وسرعة البديهة. استذكرتُ ونحن في المقهى حادثةً لفتت إليه الأنظار أكثر كواحدٍ لا يراعي الأصول والقيم الموروثة فأعجبَه حدوثُها في حينه.... لدى انهماك أستاذ التّربية الدّينيّة في الشّرح عن قيمة الصّلاة والعبادات، قطعَ عليه شريف استرسالَه وسأله إن كانت الصّلاة جائزة بوقوف المصلي على فروة كلب. انتظر الأستاذ إلى أن خفّت موجة الضّحك

والصّخب. مضى إليه. وضعَ يدَه على كتفه قائلًا بهدوء ما استطاع.

- مَن يذبح أو يقتل كلبًا ويسلخه فقط ليصلي على فروه لا يهمّه الحلال والحرام، لا يقلقُه ما يجوز وما لا يجوز.

قابله شريف بهدوء مماثل مُستذكرًا إلحاحه على القيام بالوظائف المدرسيّة بأيّ شكل.

- ولكنّك يا أستاذ تقول دائمًا إنّك تقبل الوظيفة ولو على حافر بغل؟!

نقرَ على رأسِه بإصبعه مغتاظًا.

- ولكنّ الصّلاة ليست وظيفة. إنّها فرضُ واجب يا بغل.

ثمّ سدّد إليه نظرةً حارقة ولعلعَ صوتُه.

- مثلك لن يركع أو يسجد هكذا لوجه الله. مثلك يطيلُ السّجود والرّكوع فقط تحقيقًا لمآربه.

استذكرتُ هذه الحادثة فاكتفى بابتسامة باهتة كأنّما يستنكر عليّ أن لم يحقّق بعد نبوءةَ الأستاذ الّذي قال إنّه أصابَ الحقيقة، ثمّ تركني مكرّرًا القسمَ على أن يركبَ أحطَّ السّبل كي يصل إلى أهدافه. من يومها لم نلتق في المقهى ولم

نجتمع إلّا لمامًا ليقولَ لي من بعد أنّني لجوج حقود حسود. ركبَ أحطّ الوسائل واغتنى ثمّ هوى من شاهق، فكيف قرأ ذلك الأستاذ الغيب؟ وشريف ماذا عساه يقول الآن بعدما رأى نهايتَه الفاجعة مسجاة على مائدة القمار؟ لم أره لأعرف كما لا أحبّ أن أراه. لقد تنكّر للصّداقة وألقى بالماضي من خلف ظهره ثمرةً فجّة نخرها الدّود. التقى بعزيز ابن عمّه في منتصف الطّريق إلى الغنى والثّراء الفاحش فكان أحدُهما رأسَ الأفعى والآخر نابهَا، كانا فكَّي كماشة أو المطرقة والسّندان وويلٌ لمن ترميه الظّروف الصّعبة بينهما.

أحسّستُ باقترابي مِن منزل عامرة دون معرفةِ أينَ وصلَت بي السّيارة بالضّبط. بدأ هذا الإحساس بدقّاتٍ سريعة في القلب، وبسخونةٍ غير عاديّة استوطَنت وجنتيّ وأسفلَ جبهتي، تنتشرُ من هناك إلى أطراف أصابعي الّتي تشابكت وراحَ يفركُ بعضُها بعضًا دونما إرادة. كلّ هذا ورغبة دفينة تتململُ منذ أن أطلقتُ سراح جاسم بأن لا أجد والد عامرة في البيت.

توقّفت السّيّارة في أوّل الشّارع. التفتَ السّائق وهو يناولني العنوان.

- هنا. تفضّل.

قالها بثقةٍ أشبه بزهو جاسم وهو يناور بين السّيارات، يتركُ شارعًا فرعيًا ليدخل آخر بمنتهى المهارة. تساءلتُ وأنا أترجّل إن كان هذا السّائق أيضًا يعرفُ مخابئ النّمل في بغداد! لفّني دخانُ العادم فحجبَ عنّي رؤية امتداد الشّارع إلى حيث منزل هنادي بحديقته العاطلة من الزّهر والجمال؛ تستبيحُها الحشائشُ الصّفراء النّابتة سهوًا، وحين اقتربتُ من السّور الحجري وطالعتني الحديقة المنسّقة أرجعتُ هذا إلى ميّزة الوطن والمواطنة يصيبُ المرء منها إحساسٌ بالتّفوّق ربّما لم يلمَس بعصاه السّحريّة عزيز حمّوري؛ وهو يبني قصرًا بالحجر الأحمر ليرى مِن نوافذه الغربيّة أنوارَ القدس العائمة بحرٍّ ليلين؛ ليلِ النّاس وليلِ الاحتلال. لم أجرب امتلاك بيت ومع هذا وجدت من يحسدني؛ منيب إذ رأى أنّي بخلافِه يمكنني السّفر حيثُ شئت وامتلاك بيت لا يطالبني صاحبُه كلّ شهرٍ بزيادة الأجرة، ولا يقطع عنّي الماء والكهرباء لأرضخ.

تلكّأتُ عند البوّابة المفتوحة أعالجُ اضطرابي المعروف. أوهمُ نفسي بأن لا شيء هناك يستوجب الاضطراب. عبرتُ الممرّ الموصل إلى مدخل المنزل معطيًا قلبي

فرصةً أطول كي يعود إلى حالته الأولى. توقّفت أمام الباب مدّة أخرى ثمّ ضغطتُ الجرسَ برفق حتّى ظننت أنّه لن يئز في الدّاخل. أخذتُ أعدّل مِن هندامي وأسوّي شعري الّذي أعرف يقينًا أنَّ ترويضه مستحيل. فتحَ الباب بليونة وأطلّت عامرة برأسها أوّلًا، ثمّ وثبت نحوي. خطفَت كلتا يدي تهزّهما بشوق وسحبتني إلى الدّاخل مرحّبة.

قلتُ وأنا أتبعُها إلى حُجرة الجلوس.

- ويلٌ لمن يدلّني على بيته.

لفّت جيدَها الطّويل نحوي عاتبة.

- لمَ تقول هذا؟

قلتُ وأنا أتّخذ مكاني بالقرب من الباب.

- أنطُّ لهُ في وقت لا ينتظرُ أو يتوقّع مجيئي فأقلِقُ راحته.

ضحكت رافعةً وجهها عاليًا كالعادة.

- تقصد أنّك وعدتني وتأخّرت؟

نسيت في غمرة اضطرابي واشتعال الخواطر غير النّظيفة تمامًا أنّي وعدتها.

حسبت أنّني جئتُ هكذا مسوقًا بخواطري فقلت كاذبًا.

- أعرف أنّي وعدتك؟ ولكنّي لم أعد والدك وهذا الاعتذار له في الأصل.

تلفّتُّ حولي بسذاجة.

- أينَ هو؟

عادت إلى الضّحك ورفعَت وجهَها عاليًا مشرّعةً جيدها الطّويل.

- عمّ تبحث؟

ثمّ وهي تحط على كنبةٍ بجواري.

- عن أبي؟!

رغم ما في صوتها من براءة وانعتاق أحسّستُ بالحرج لبحثي عن رجلٍ وكأنّه منفضة سجائر. ضحكتُها الصّافية اغتالت الحرج والاضطراب. وضعتُ ساقًا على ساق وشاركتها الضّحك؛ هي برنين الفضّة الخالصة وأنا بغرغرة تجثمُ في حلقي لكثرة التّدخين. سكتنا معًا وكلّ منّا يحدّق إلى الآخر بثبات دون أن يطرَف لنا جفن. كان التّحديق لأوّل وهلة ساكنًا لأجل التّحديق قبل أن تدبَّ فيه

الحركة، حركة سريّة غير منظورة... جعلتُ في اللّحظة التّالية أتملّى مِن بشرتها الشّاحبة ومِن وجهها المستدير تخفقُ فيه فتحتا أنفها الرّائع خفقاتٍ صغيرة؛ كأنّها جاءت بفعل حركةِ نابض منتظم فتشيعُ في الوجه المستدير والبشرة الملساء اللّامعة حركةً وحياةً؛ تنبعُ من هذا الأنف وتستديرُ حول عينيها بلون زيتونة بلّلها المطر موهمةً أنَّ منهما تنبعُ الحركة والحياة، أمّا شعرها الفاحم فقد مشّطته على شكلِ تاج يحفّ بالجبهة العريضة؛ تاركةً غدائرَه تهفو على الظّهر والكتفين في إهمال مدروس. هذا هو الشّعر الّذي استرعى انتباهي في صالة المطار فتركتُ لصاحبته مكاني، وكأنّما تعارفنا وانفصلنا عنوة.. اجتاحتني رغبة في لملمته ولثمه حتّى الجذور. لم أتنبه إلّا وعامرة ترتعش واقفة.

- أنتَ لا تحبّ القهوة، سأغلي لك الشّاي.

رغم إحساسي بالخَدر وصلني صوتُها مرتعشًا فجاءت الحروف غير مترابطة؛ وإن هي كلمات قليلة مركّزة تدرَّبَت على حفظها وألقتها عن ظهر قلبٍ بلا حرارة أو حماس، فكلّ همّها أن تستيقظ من غفوتها القصيرة وتخفي وجهًا دبّت فيه الصّفرة ساخرة من شحوب محبّب يقودُ جيشًا من الفتنة والجمال. غابت فألفيتُ يدي معلّقةً في

الهواء، ربّما كانت في طريقها إلى تلك الغدائر المذهلة دون أن أدري. لهذا إذن انتبَهت مِن غفوتها القصيرة وسارعَت إلى الذّهاب! غفونا معًا مثلَ هذه الغفوة في تجويف الشّجرة على شاطيء دجلة. استيقظَت عامرة وفرّت قبل أن يقعَ المحظور.. ولكنّنا هنا في البيت فأينَ ستذهب منّي؟

حدستُ أنّ والدها غير موجود. لا أجده في انتظاري يعيدُ عليَّ ذكرياته في حرب فلسطين الأولى مع الجيوش الزّاحفة لوضعِ الحق في نصابه الصّحيح. لم أجده ليحكي بفخرٍ عن استشهاد ابنِه على طريق القدس في حزيران، يفخرُ ويبدي أسفه مِن أنّه لم يتمكّن مِن الوصول إلى الأسوار العتيقة المثقلة بالانتصارات والهزائم. يعلن عن سخطه.

- هذا كلّه من الارتجال، من عدم الوفاق.

يذكّرني بأبي، وتذكّرني ابنته بجليلة وهي تقنعُ والديها بالسّفر ليغدو البيت مسرحًا للصَبوات. هل خطّطَت عامرة لغياب والدها هذا حقًّا أم أنّ هذا بسبب تأخّري ساعتين؟ كيف أنتظرُ الجوابَ وأنا هنا في حُجرة الجلوس وهي هناكَ في المطبخ تغلي الشّاي وتحدُّ من غليانها؟ كلّما

مضى الوقت أنذرَ بعودة الوالد وعادت هي إلى طبيعتها الأولى وبات علينا البدء من جديد؛ فينتهي الأمر كما انتهى عليه في تجويف الشّجرة على شاطىء دجلة... ليلة أمس وليالي الوحدة قضيتُها في الفندق تدفعني دفعًا إلى ترك اجترار الذّكريات القديمة وصنع ما يفوقُها في بغداد. أحملُها معي لأُوازنَ بين عطاءِ جليلة وبين ما يمكن أن تعطيه هذه الفتاة. دخلت حياتي فجأةً وحفرَت في نفسي أخدودًا عميقًا... تُعذّبني دقائقُ تنقضي هدَرًا وسيعذّبني أكثر إن لم أملأه وأمتلىءُ بالعبير. إنّني الآن أحوج ما أكون إلى صدرٍ أستريحُ عليه نافضًا عنّي غبار السّفر وأثقال الوحدة، أحوجُ إلى إثبات قدرتي واستدراج ثقتي الهاربة بالنّفس والاستيلاء على قلب امرأة في عرف المحظوظين تفوّق واقتدار. ما انتظاري إلّا مضيعةٌ للوقت واحتراقٌ أمارسُه طائعًا هذه المرّة وهي هناك تنتظرُ المبادرة. ليست بالقطع مثل جليلة تحبّذ الاغتصاب. ليست مثلَها تتّخذُ المراوغة طعمًا لافتراس عنيف.

عامرة شيءٌ آخر. روعةُ امتلاكها في خلطِها الصّداقة بالحب. في تلك العقيدة الرّاسخة بأنّها ندٌّ للرّجل، تمازحُه وتحاورُه حتّى على حدود الخطر، بهجتُهُ الامتلاك في ثقتِها الزّائدة بالنّفس، تستقبلُ رجلًا في بيتها وحيدةً، تخرجُ

معه للنّزهة ويضمّها وإيّاه تجويفُ شجرة ظليلة دون أن يقع المحظور أو تخدش خدَّها قبلةٌ متسرّعة.. شيءٌ من هذا خبرته في نجاح ابنة الحاج رضا، وخولة زوجة عزيز حمّوري إذ كان لها مثل هذا الاعتداد بالنّفس حين كان بائع كعك يرفضُه أبوها وترفضه أمّها؛ قبل أن يفهم سرّ الصّنعة ولعبة السّوق.

كتبتُ لها رسالةً على لسانِه أخاطبُ قلبَها خلافَ ما يريدُ منّي مدَّ الجسور إلى عقلها المتزن. أستجديه أن يفسحَ له مكانًا في عالمه الخصب. لم أوافقه الرّأي، إذ لم تكن المرأة في خاطري آنذاك إنسانًا لهُ عقل مميّز وأنَّ على من يخاطبُها نسيانَ عقلها، أن ينسى رأسَها تمامًا ويحملَ على جمالها وكنوز فتنتها، أن يسحبَ أنوثتها من العتمة والنّسيان إلى دائرة النّور. ظلَّ عزيز يشكُّ في جدوى ما كتَبت نادمًا على مدحهِ عبقريتي الفذّة إلى أن ابتسمت له وخاطبته لأوّل مرّة «يا ابن عمي» وقد فعلَ الغزل والكلمات المنتقاة فعلها الأثير.

أتذكّر ضعفَها الخفي أمام الغزل وأقارنُها بعامرة فلا أرى استحالة أن ترمي بعقلها بعيدًا وتذوبَ في كأسي قطرة، قطرة... قصدتها في المطبخ تدلّني رائحةُ الشّاي ونشيشٌ خافت ربّما مِن اندلاق الماء الفاتر على النّار. وجدتها

منكبّة على الأبريق ترفعه عن النّار وتدنيه منها. لحظةَ أن شعرت بوجودي استدارت ضاحكة.

ـ أهذا أنت؟

الاصفرارُ الّذي خرجَت به من حُجرة الجلوس فارقها تمامًا وكذا ارتعاشُ صوتها. شرعَت تتحرّك في جنباتِ المطبخ الفسيحِ بهدوءٍ كاد يمتصُّ خواطرَ حمَلَتْها مُذ ضَربْتُ لها موعدًا للّقاء، ولكنّ حركةً مفاجئة منها لالتقاط ملعقة سقطت أرضًا أزاحَت السّتار عن اضطراب تكابدُه، كما كشفَت لعيني منابتَ نهديها العظيمين يكادُ يتفتّق عنها فستانها الوردي. جرت الدّماء سريعةً ملتهبة. وقفتُ خلفها مباشرة، مددتُ يدي مِن فوق كتفها متذرّعًا بتحريك السّكر. رفعَت إليَّ وجهَها وابتسمت بأريحيّة لم أرتح لها.. لو اصفرّت ابتسامتُها أو ارتعشت للمسِ يدي، لو غادرَ عينيها الصّفاءُ أو راغت منّي لكان لهذا كلّه معنى آخر.. معنى القبول.. ولكنّها سكنت برهة ثمّ صالبَت ذراعيها على صدرها ولسانُ حالها يقول «ها قد ذاب السّكر، فهل تنتظرُ أن يذوبَ الماء؟» وحين رشقَتني بنظرةٍ هادئة حملَت هذا المعنى مضيفةً عليه «هل يذوب الماء؟». جرّتني إلى اليأس جرًّا. شعرتُ بمسامات جلدي تنسدُّ

وشراييني تهاجرُ منها الدّماء لتغفو بعيدًا عن جسدي البارد.

قلت بصوتٍ جريح يشبه الاستجداء.

- أيّام معدودة بقيت لي هنا وبعدها أغادرُ بلا رجعة.

وأردفت بصوتي الذّبيح.

- ربّما لن نلتقي ثانية.

انحنت ومرقَت من تحت إبطي بهدوء. وقفت أمامي مباشرة ترسل إليّ نظرةً ثابتة من عينيها الواسعتين.

- كيف؟ أنسيت أنَّ أخي وأبناء أخي في عمّان؟!

نزل منطقُها وهدوؤها على رأسي نزولَ الصّاعقة على شجرة يابسةٍ احترقت لتوّها؛ وفرّت الجرذان عن جذورها طالبة النّجاة، وكتلميذ أخطأ في جمع أصابع يده اليمنى مع اليسرى؛ جعلتُ أقضمُ أظافري ثمّ استدرتُ أخفي ارتباكي في الكوب أرشفُ منه الشّاي بصوت عالٍ. أتمطّقُ من حلاوةٍ لا وجودَ لها بتاتًا والمرارة في حلقي يسكبها لساني الجاف علقمًا. ما مارسته من استجداء قبل لحظة بات مصيدةً من أسلاك واهية لوعلٍ جبليّ يمضغُ الحصى

ويدوس الشّوك ويعبر الماء برأس مرفوع وقرون مشرعة. كيف لم أتعلّم من حادثة الشّجرة وأعلمُ أنّ عامرة تبني حدودًا واضحة بين الصّداقة وبين الحب، وأنّها ترى في التقاء اثنين؛ رجل وفتاة أكثر من ارتعاش شفتي كلّ منها أو التحام جسدين؟ إنّها وإن لم تكن الصّداقة عندها هي الغالبة فلأنّها تفهم الحبّ بشكلٍ مغاير عمّا أفهمه أو أريد.. ما زالت تقفُ على الشّاطيء ولن تبحرَ إلى متنه العميق، وحين تأتي لحظةُ الكشف عن المشاعر ستفتحُ صدرَها حتمًا ليُفرغَ الحبّ أحمالَه فتنفِقَ مِن رصيد ضخم لا ينتهي، ستبسُطُ يدَها في العطاء وإن لم تصل إلى ابتذال جليلة وسعارها المحموم؛ أو تعدني إلى مستوى ازدهار بطفولتها السّاذجة وانبهارها بجمال بارد تلعبُ به دمية وتدفعُه إلى الآخرين كي يتفرّجوا ويبدوا إعجابهم ليس إلّا.

إن أعطت عامرة فعطاؤها سخيٌّ وأنا بأيّامي المعدودة هنا أتوق إلى ارتشاف ولو قطرة واحدة من أنوثةٍ ستطرح ثمارها ذات يوم بالجملة بين يدي فارس الأحلام. ليس هناك من دليل واحد يشيرُ إلى أنّي لستُ ذلك الفارس وأنّها لم تقضِ الليالي بعد اللّقاء حالمة، أمّا صمودها حتّى الآن فقد يعني أنّ لحظةَ العطاء السّخي لم تأتِ بعد وعليّ أن

أنتظر يومًا أو يومين أو سنة هنا أو إلى أن تأتي عمّان زائرة.

قلت باستجداء ثانية:

- مَن يدري؟ ربّما لن نلتقي في عمّان!

فتحَت نافذتي عينيها دهشةً.

- كيف؟

- لدي إحساس ما بأنّني لن أعود إلى هناك.

صوّبت إليّ نظرةً حُبلى بالاتّهام ولسان حالِها يقول «أيّها الماكر! إنّني أفهمك». نزّ عرقٌ بارد من جبيني وانحدر سيولًا ترسمُ طوقَ الحرج حول عنقي الملتهبة. رغبتُ في الاختفاء سريعًا، تقتُ إلى الهرب، ولكن كيف السّبيل إلى ذلك دون أن أتركَ في وجدانها بذرةَ الشّك بأنّي ما سعيتُ إليها إلّا لغرضٍ لم يكتسب لديها مركز الصّدارة بعد؟ كيف أترك مِن بعدي صورةً بالألوان الجميلة حتّى إذا ما التقينا في عمّان أو في أيّ مكان آخر، لا أبدأ معها مِن نقطة الصّفر؟

أفرغتُ حرجِي في الشّاي أرشفُه رشفاتٍ قصيرة مسموعة. اختلستُ إليها نظرة. وجدتها تراقبني عن كثب أن كيف أرتشفُ الشّاي وكيف أتمطّق. نظرة أربكتني تمامًا وعلى ثغرها مشروعُ ابتسامة سعيدة كأنّما هي في حديقة الحيوان تتابع قردًا عجوزًا لا يتقن القفز والوثبَ؛ فيستلقي على ظهره عارضًا مؤخّرته لجلب انتباه الزّوار ليس إلّا.

قالت بثقةٍ ضاغطةٍ على الحروف.

- قلت لك بأنّنا سنلتقي!

حمل صوتُها إليَّ تقريعًا خفيًّا على التّسرّع في طلبِ أمرٍ ترى هي مَن الأنسب أن يأتي هكذا عفو الخاطر؛ فترتشفُ رحيقَ اللّقاء رشفاتٍ صغيرة غير مسموعة. أكملت عيناها دائرةَ الحدس بنظرة لا تعني أقلّ مِن أن كلّ شيء سيتم بهدوء حقًّا ولكنّه في غاية الإمتاع.

قبضَت على يدي قائلةً بمرح.

- سأطلعُك على حُجرات المنزل. هل تمانع؟

رحّبتُ بالفكرة إذ وجدتها على الأقلِّ فرصةً للخلاص إذا ما انتهينا إلى الباب. مِن اللّهوجة وضعتُ الكوبَ على

حافّة الحاملِ الرّخامي فدارَعلى نفسه دورة كاملة قبل أن يسقط أرضًا ولكنّه لم ينكسر. ضحكت عامرة وقالت بلهجة ذات مغزى.

- أشيائي متينة.

تظاهرتُ بعدم الفهم، ولكي أخفي حرجي ظللتُ أبدي دهشتي كيف أنّه لم ينكسر، فكرّرَت القول أنَّ أشياءها لا تنكسرُ أو تتحطّم من الجولة الأولى. قالت ونحن نقف على باب إحدى الحُجرات.

- هذه غرفة نومي.

لهجتُها المحايدة لم تمنع دمائي من العودة إلى جريانها السّريع، غدَت شلّالا يهوي من ارتفاع شاهق أخرسني هديرهُ حين فتحتُ البابَ على مصراعيهِ؛ فسقطَ ضوءُ الممر خافتًا على سرير مرتّب في وسط الحُجرة. خُيّل إليّ لأوّل وهلةٍ أنَّ تجلّدَها في البَدء محضُ مكابرة، وأنّها لا تتقنُ الخوضَ في مسائلِ الحبّ ولكنّها تمشي إلى الفعل مباشرة. وثبَت حواسي مدمّرة كأنّما رُفِعَ عن نابضها حملٌ ثقيل أرهقه اليأس والفشل. حدستُ أنّ لحظةَ الكشف قد جاءت لا عفو الخاطر كما توهّمت بل بحركةٍ مدروسة، ولكن حين نظرتُ إليها كانت ملامحُها كصوتها في غاية

الحياد، ليس على وجهها من تعابير مدهشة غير أنّها فنّانة أبدعَت لوحةً وتتوقُ أن ترى قيمتها الفنّيّة على وجوه الزّائرين؛ ولوحتها حُجرةُ النّوم الجميلة حقًّا ولكنّي لا أفهمُ الجمالَ في هذه اللّحظة على الأقل كما تفهمه؛ لذا اختلفنا قبل أن تعرضَ المسألة للبحث. حتّى في عرضها الجمال بينها وبين ازدهار فرقٌ واضحٌ جلي. عيناها حين أمعنتُ فيها النّظر كانتا تنطقان بلغةٍ واضحة محدّدة «ها قد أتيتُ بك إلى مسرح العمليات ولكنّ أشيائي متينة، وأنا محصّنة ضد الغزوات العابرة. أنا قلعةٌ يصعبُ اقتحامها».

عادت الدّماء إلى جريانها المنتظم تزفّها دقاتُ قلبٍ أطربَه الفصلُ بين نوعين مِن الحبّ أحدهما متعجّل رخيص. تبخّر العرقُ الباردُ سريعًا، ضربتهُ رموشُ عامرة الطّويلة وهي ترفُّ مروحةً في يدٍ ماهرة تطردُ الحرّ عن سيدها، تسوقُ إليه الوسن اللّذيذ بعد الأرق. أدهشني تقلّب عينيها من الصّلابة والحزم إلى الرّفق واللّين وقد اطمأنّت إليّ أنّني عدتُ ذلك الشّخص الحزين؛ أخلى مكانه لها في صالة المطار فظنّت أنَّ باعثَ شهامته الخوف... التحمتُ بها مِن غير أن أخطو نحوها خطوةً واحدة، صارت بدورها أقرب لدرجة خلتُ معها أنّها لو ارتمت بين ذراعي متوسلّةً كي أقبّلها لقلتُ لها بحرص «لا يا عامرة.

ليس بعد». بعفويّة بحتة دخلتُ الحُجرة ورحتُ أطري ذوقَها. شكرتني معترضة.

ـ أعرفُ أنْ ليسَ من عادتِك المبالغة.

ضحِكَتْ فضحكتُ وأنا في غاية الانتشاء لمجرد إحساسي بأنّها قريبة منّي ونتنفّسُ معًا هواءَ حُجرةٍ واحدة.

ـ ماذا أفعل إن كانت الحُجرةُ لوحةً فنّيّة بالغَ الرّسامُ في إتقان الخطوطِ والظّلال والألوان؟

أطرقَت برأسِها لحظة، حتّى ابتسامتُها الّتي تعيشُ في حالة طوارىء دائمة سكنت بدورها قبل أن تتنبه بمرح.

ـ نكتفي سيّدي بهذا القدر وهيّا إلى حُجرة الجلوس لنشرب الشّاي على مهل وبلا انفعال. ألقيتُ يدي على كتفها بمودّة خالصّة، وإذا اكتفيتُ وإذا اكتفَت بهذا القدر فإنّما لانتفاء السّبب في عرضِها على أن نتفرّج على حُجرات المنزل؛ حتّى إذا ما غادرتُ حملتُ في صدري حُجرتَها الأنيقة زادًا لأيّام الفراق حين أتخيّل أينَ ترقدُ وأينَ تنام.

(7)

جاءت الحقيبة أخيرًا ولمّا يبقَ لي هنا غيرُ يوم واحد. ساعات طويلة عليَّ أن أقضيها بعيدًا عن زوجتي وابني، وقبر سرحان. بعيدًا عن أبي في بيروت وعن قبر أمّي في تل السّلطان يأكل لحمَها ونسغَها دودُ فلسطين. ساعات طويلة ودقائق فيما الحنين احترقَت فتائلُه واقترب اللّهب من جذور القلب؛ يراودُها عن نفسِها فترخي له قيادَها وتتبعُه طائعةً إلى أبعد من حدود الأسرة الصّغيرة والأحباب؛ إلى الوطن المكبّل بالنّهر والأسلاك الشّائكة المكهربة، تمرُّ من فوقها العصافير فتبكي دمًا وتخطىء الطّريق إلى أعشاشها وصغارها؛ وأنا مثلها أخطأت الطّريقَ طويلًا إلى أرض بساطها أخضر، إلى سماء غير هذي السّماء تغسلُ الشّمسُ والبدرُ وجهَها صبحًا ومساءً.

أعرف الصّواب والخطأ وأطلقُ الرّصاص طائعًا على كلّ معنى للحياة جميل. التّضحية والفداء، وتفضيل الجماعة على مصالح الفرد. ما الفرقُ الفعلي بيني وبين آل حمّوري سوى أنّهم بلغوا أهدافهم؟ أنعى لهاثَهم المحموم

وأرفرفُ خلفَهم بجناحين مكسورين... لطالما أبدى سرحان أسفَه لممارستي الخداع ضدّ نفسي، لا أطلقُها على سجيّتها، لا أطلقُ سراحَ النّقاء والطّهر والصّدق فأغادرَ قشرةَ الحياة البرّاقة إلى جوهرها ولبّها الأصيل؛ فيلتقي ظاهري مع باطني لأرى أنّ تضحيةَ الفرد في سبيل الجماعة ليست جهدًا ضائعًا في سبيل مَن لا يستحق؛ أو أنّها أشبهُ بالرّقص على الحبال في العتمة فأينَ مَن يرى أو يسمع؟

آه سرحان! ترفّقتَ بي وتصبّرتَ طويلًا. منعكَ الحياء والإشفاقُ مِن تفجير أورامي الخبيثة ففجّرني مماتك. آه سرحان! موتُك الجليل فجّرَ في نفسي فقاعاتِ الغضب المغلوط، فقاعات الخطأ. موتُك ساعة الصّفر الحاسمة أثقلت موازيني ونظرتي القاصرة عن عمدٍ وإصرار. صححت مساري من المراوحة على الشّواطىء الضّحلة إلى جزر تزخرُ بالعطاء. وعامرة الّتي خفّفَت من حزني عليك أضاءت مصابيحُها الكاشفة ظلمةَ نفسي. لم تنعك مثلي. بشّرت بمولدك الجديد. فقد مرّت بالتّجربة، تجربة فقدان عزيز حين اصطادت دبابَته طائرةٌ معاديةٌ على طريق القدس. وصفتهُ بالجسر يعبرُ عليه العائدون إلى الوطن، وكنتَ أنتَ سفينة الإنقاذ تلملمُ الغرقى مِن بين

غواربِ موجٍ هادر، وكنتُ أنا الغريق، أرفعُ منديلي المتّسخ لتهرعَ إليّ وتوصلني إلى الجزر الخضراء؛ علّني أطلقُ على تسيّبي الرّصاص، أرديه قتيلًا وأدفنُه في صدور آل حمّوري، مع جثّة صلاح وهدان.

قتله أبوه، قتله أبي. صحّحَ الخطأ ومضى إلى موقعه الصّحيح ففرحتُ للفعلين، ولكنّك لم تفرح إلّا لفعلٍ واحد. خلاص أبي وتحقيق حلمه القديم. أمّا صلاح «لم أفاجأ لأنّه لم يعش أصلًا، لأنّه ميت قبل أن يولد». هكذا قلت وأنا أزفّ إليك الخبر. كلماتُك الموزونة علّقتها في صدري تمائم، ردّدتها رغم خلافي لك في الظّاهر، رغم نعيي عليك تضحياتك. صححَت مساري وكانت أوّل الثّمّار تركي الحياد في المعركة بين الحياة والموت كما شاهدتُها بعيني في بيروت، في تلّ الزّعتر... استقالتي من الوظيفة وبقائي في موقعٍ حصين أطلقُ منه الرّصاص ولا أتراجع أو أنحني لرئيس التّحرير... فرحي لمقتل صلاح وهدان وزوالِ دمّل بشع من وجهٍ ملطّخٍ بالبثور... رحيلَ أبي وتحقيقَ حلمِه القديم بالاقتراب مِن الرّملة وشجرة الزّنزلخت الأم؛ بعودته شابًّا يقفزُ بين الخنادق والحفر.

طرحَت غراسُك الفتيّة ثمارَها. صدّرتَها في علبٍ صغيرة على شكلِ قصص ولكنّي ظللتُ أشعرُ بالنّقص. أسألُ

نفسي كما كنتَ تريد «متى أغادرُ إلى ممارسة الفعل؟ متى أترك المراقبة إلى صنع الأحداث ذاتها؟ أينَ موقعي بالضّبط؟».

تراخت يدي عن قفل الحقيبة. تركتُها مغلقةً كما جاءت. عدت إلى ارتداء ملابسي الّتي جاءت عليّ بانتظار عامرة، ستأتي كما وعدت ومن ثمّ ننطلقُ أنفضُ عنّي أثقالي. رغم ثقل رأسي أشعرُ وكأنّي بالون منتفخ تضيقُ عنه هذه الحُجرة؛ وهديرُ جهاز التّكييف غدا لحنًا مؤسيًا في جنازة مهيبة. توقّفتُ في وسطِ الحُجرة شبه عار، أترنّح من غير سكر. تلك الذّكرياتُ الجنينُ وهذه مخاضاتُ الولادة، وأنا ليمونةٌ اعتصرها بحارٌ مبتدىء ليطفئ مِن أمعائه دوارَ البحر. حتّى لقاء عامرة الوشيك لم ينتزع من نفسي الدّوار والقرف.

ارتديتُ ملابسي بلا حماس. ارتميت على السّرير بشعرٍ مهوش تشيرُ كلّ شعرة فيه إلى جهة مغايرة؛ ولكنّها تلتقي في النّهاية بجزء صغير من نفسي المشتّتة. عمري الّذي أتذكّره في دقائق خمس يصيبني بالفزع، بالإمكان زيادتها. منيب عاش أربع سنين فلمَ لا يكون لي مثلها أو أكثر؟

أزّ الهاتف أزيزًا مزعجًا. انتفضتُ والتقطتُ السّماعة. جاءني صوتٌ ضاعف من انزعاجي. جليلة تخبرني بفرح أنّها وصلت وهي بانتظاري أسفل في الصّالة.... جليلة؟ سحبتُها من قعر الذّاكرة سحبًا كأنّني لم أعرفها مِن قبل. لقد قالت إنّها ستفاجئنى بحضورها وها هي قد فعلت. فاجأتني حقًّا باختيارها وقتًا غيرَ مناسب لي، أمّا أوقاتها فكلّها مناسبة لإطلاق الشّهوات من عقالها، في يوم تبقّى لي أو في أيّام أخرى قالت إننا سنأخذها إجازة. قلت إنّي نازلٌ في الحال. ظللتُ على وضعي السّابق يملؤني القرف. أدرك الآن يقينًا مَن شجّعني على الخطأ، مَن ساهم في إعاقة خططي طويلًا.

دونما أن أشعر بالكارثة انسقتُ خلف جليلة، خلفَ جسدها الّذي تفوحُ منه رائحةٌ مميّزة خلتُها لزهرة عابقة بالشّذى؛ وخلتُ نفسي النّحلة الفطنة تهفو إليه وتخزّن الشّهد لفصل بارد... لم ترني غيرَ صفحة واحدة من الحياة وها هي جاءت ساعيةً إلى رجلٍ ميت الغرائز، رجل لم تعرفه يومًا ولم يعرفها. سرحان من قبل ألقى بذورَه الطّيبة ومضى، ثمّ جاءت عامرة، صحّحَت من نظرتي للحب، طمست وهمي المراهق فرأيتُ على سريرها المرتّب في حُجرة نومها أنّ لي شكل النّحلة حقًّا بيد أنّي بما توهّمته فيها ذبابةٌ

تافهةٌ تقعُ على الشّهد محض مصادفة وتهفو إلى النّتانة أكثر. خدّرتني جليلة بصبواتها ولهاثها المحموم فقرأتُ صفحةً واحدة في الحياة والحبّ. حتّى ما علّمتني إيّاه نجاح نسيتُه في غمرة الفوران؛ وجليلة تعلّمني أبجديّة حبٍّ تفهمه على أنّه انبعاثُ الحواس مِن هجعتها؛ تدمّر كلّ شيءٍ في طريقِها ليحدثَ الاحتراق في كلّ مرّة مغايرًا للمرّة السّابقة. الحبّ لديها عصرُ اللّذات واستنزافُ القوى، هدرُ طاقة الفكر والجسد ليظلّ المُبتلي به مشدودًا إليه. الحبّ كما تفهمه؛ كما علّمتني سطورَه الأولى اشتعالُ حرائق تنتهي إلى دُخان ورماد، يظنُّ المحترقُ أنّه في نعيم مقيم ولا بأس بعدها إذا احترقَ العالم أو انتشرَ الجوعُ أو ضاعَ الوطن.

المهم أن تكونَ الذّات هي المحور والأشياءُ نقاطٌ باهتة تدورُ في فلكِها الجامد. المهم أن يحدثَ الاحتراق والغيبوبة في الوهم، ليس مهمًّا على الإطلاق إن لم أقل لها ولو مرّة «حبيبتي» ولم تقل لي «حبيبي». تلك الكلمة الرّائعة تواصلَت بيني وبين عامرة دونما كلام حتّى بات طرحُها والكشف عنها سذاجة وعبطًا. قلناها ألف مرّة مِن غير أن نقولها. فتحَت لي عامرة صفحاتٍ أخرى في

الحب لم أقرأها؛ إذ كانت في عرف جليلة سذاجة والدّخان المتصاعدُ غيومًا يثبتُ الحريق.

علّمتني عامرة درسًا في الحب المنزّه عن كلّ غرض. فتحت لعيني صفحاتٍ في الحب مجهولةٍ كان سرحان قد سطّرها ومضى. «لن يرتقي الحب إلى أعلى درجات الرّفعة والسّمو إلّا بإرساله خارجَ حدودِ الذّات، إلى حيثُ يلتقي بخطّ الأفق النّائم على جبهة الوطن. والوطن للجميع، والمواطنة إحساسٌ فائق يروغُ ممّن جعلَ للذّات والشّهوات مركِزَ الصّدارة... إحساسٌ لم ينله آل حمّوري وأضرابُهم والقرشُ باستدارته هو الوطن؛ إلى حيث يجري الوطن بعيدًا عن شجرة الزّنزلخت الّتي أدمت إصبعي، وعن أمّي الّتي قضت نحبَها في مرض مجهول، افترسَها ولفظَت أنفاسَها على ذُبالة سراجٍ ترقصُ لغيرِ طرب.

أقرأُ وأشربُ الحروفَ على مهلٍ كما أرادت عامرة أن أشربَ الشّاي بلا انفعال، أقرأُ وترسلُ عامرة مصابيحَ كاشفة تقتحمُ بها أركاني المعتمة تجفّفها مِن الرّطوبة والعفن؛ كما فعلت ونحنُ في تجويف الشّجرة على دجلة، وحين ذهبت إليها في البيت سعيًا وراء رائحة الأنثى أفرغُ على صدرها آثارَ وحدة قاتلة. لم تزجرني. سطّحتني تحت

الشّمس لأرى الفرق بين معاني الحبِّ الجارية على كلّ لسان، وبين ذاك الّذي تعرفُه جليلة أو آل حمّوري وهم يطفون على رغوةِ الحياة وزبدِ الخمر.

زايلني الدّوارُ والقرفُ وزحفُ السّاعة البطيء ينذرُ بوصول عامرة لننطلق يدًا بيد. أتذكّر جليلة الّتي تنتظر أسفلَ في الصّالة فيعودُ القرف ويركبني الدّوار، تخطفُ منّي عامرة، تطوّحُ بها إلى أرض مجهولة، وتضحك عن أسنانها النّافرة، تضعُني في شدقها وتحمحم «نم هنا للأبد». تكبّلني بالقيود خشية الإفلات والهرب. درتُ بعيني في أنحاء الحُجرة كأنّما أفتّش عن منفذ، سقطت عيناي على الحقيبة المقفلة. ضحكتُ للمفارقات تلاحقني أنّى ذهبت. أظلُّ في ملابسي الّتي جاءت عليّ؛ وقبل رحيلي بيوم واحد تأتي، هي مثل جليلة لونُها أشبه بالبنّ المحروق نصفَ حرق. مثلُها فاجأتني، مثلُها لا أعرفها ولا تعرفني. تذكّرني بأبي. لا أدري لماذا بالضّبط، ولكنّها تذكّرني بهِ وهو يحملُ شجرة الزّنزلخت معه يغرسُها حيث حل، يرعاها ويشتاق إليها حتّى إذا رحلَ إلى بيروت تركَها غير آسف. تغيّر معناها في الحالتين. حالة الانتظار وحالة الانطلاق خارج حدود الحلم والهم.

أزَّ الهاتفُ مرّةً أخرى تلكّأتُ في التقاطِ السّماعة لاعتقادي بأنّها جليلة تستحثّني على النّزول. جاءني صوتُ عامرة ينبِئُني بوصولها. تراخيت عن النّهوض، ثمّ وثبت من السّرير إلى المرآة أمشّطُ شعري المهوش. لعلّها لحظة الاختيار بين الاثنتين هي السّبب في رغبتي الدّفينة لاستعراضِ تناسقي ومهابتي. كلاهما وعدتني بالحضور ولكنّ جليلة فاجأتني حقًّا، وكادت تنسيني حلاوة التقائي بعامرة الّتي ألحّت على الخروج ورغبتِه قائلةً:

- ننطلقُ إلى دجلة، نراقب السّفن الصّغيرة ونأكل السّمك المُدخّن بين ذراعي أبي نواس.

أضفتُ كي أقنعَها بأنّني راغبٌ في الخروج حقًّا وليس لأنّها تلح.

- وندخل العش في شجرة التّوت؟

ضحكت ضحكتها البريئة الواثقة.

- وندخل العش.

ليست هذه أوّل مرّة تطلبُني إلى موعدٍ منذ أن سعيتُ إلى بيتها خلفَ رائحة الأنثى. هذه المرة الثّالثة وهي مَن تبدأ بعدما أيقَنت أنّني أصارعُ الخزي والنّدم على ما بدر منّي

في ذاك اللّقاء. خرجنا معًا. مشينا على ضفة النّهر يدًا بيد وذراعًا بذراع. نتحدّث. نصمت. نضحك. نرسمُ على وجه الأفق صورًا زاهية بالألوان. حرصتُ على ألّا تأتي على ذكر حادثة البيت حتّى نسيتُ أنّني قد ركبتُ غرائزي إليها. طوت صفحةَ جليلةَ فأدهشني أن يأتي الشّبع والارتواء من لمسةِ يد ناعمة، مِن ضحكةٍ صافية، من نظرةٍ موحية تحملُ عناقيد الرّضا؛ تضغطُ على ذراعي لنبدأ الرّكض أو الجلوس أو الوقوف، فتبدأ الدّماء رحلتَها المذهلة بشكل انسيابي أنيق عبر قنوات الخَدر الّذي لم يصبني طيلةَ سنين قضيتها متجوّلًا جسدَ جليلة الفائر.

أعرف الآن تمامًا لمَ لمْ أقل لها ولو مرّة واحدة «حبيبتي» ولمَ لمْ تقل لي «حبيبي». ما حاجتُها إلى القول ما دمتُ أنا الفحل المربرب غارقًا فيها حتّى أذني؟ تستدرجُني إلى زريبتها، أدخلُها رافعَ الرّأس وأتركُها زحفًا محنيَّ الظّهر، ويبقى الحب عملةً زائفةً في سوقٍ لا تخضعُ لظاهرة العرض والطّلب... تغترفُ منّي مغمضةً عينيها وإن فتحتْها فإنّما لترى الفحلَ فوقَها؛ حتّى إذا أطلقَتْ صراخَها ولهاثَها كان للّهاث معنى والصّراخ. الفعل لا القول ما يهمّها وعامرة ترى الحب عملةً صعبة غطاؤها ذهبٌ خالصٌ. تكلّمَ الحبّ بيننا بغير لسان. التقينا فتفتّح الزّهرُ في

الحدائق وصار دجلةُ يركض مِن أمامنا مهرًا أرعن، وفي التّجويف العش أخذتُ وجههَا بين يدي فقرأت آياتٍ من الحبّ لم تقل لي جليلة حرفًا منه. عامرة تحكي في صمتها وسكونها ضعفَ ما يحمله الكلام من معاني السّكينة والحبّ والوئام. لغة العينين هي الفيصل أمّا الجسد فأخرس يحكي بالإشارة، يلوحُ بمفتاح صغير ستلقيه في يدي ذات يوم. أيّ يوم؟ لم أسال، فلا يعنيني السّؤال. أمّا جليلة فانتظرت معها شهورًا إلى أن ألقت في يدي مفتاح بيتها وقالت «هيت لك». كلاهما الآن بانتظاري. ها قد جاءت لحظة الاختيار.

قفزتُ إلى الباب. أغلقتُه من بعدي. لم أنتظر المصعد فهبطتُ الدّرجَ الطّويل وثبًا. رأيتُ عن بسطة الدّرج الأخيرة من الدّرابزين عامرة وجليلة تجلسان الواحدة قبالة الأخرى. ما كدتُ أصل منتصفَ الصّالة حتّى وجدتني بينما وكلّ منها تمدُّ يدها مصافحة، كلّ منها تحدّق إلى الأخرى ذاهلة؛ ولو أنَّ جليلة مَن كانت الأسرع في التّكشير عن أسنانها النّافرة. أمسكَت بيدي وقبضَت على ذراعي مسدّدة إلى عامرة نظرةً رهيبة ضاعف بروزُ عينيها من حدّتها ولؤمها. تراخت يدُ عامرة الممدودة وسقطت بجانبها كغصنٍ ميت، تخضّبَ وجهُها بحمرة

قانية لإحساسها بأنّها متطفّلة. حملت عيناها إلى جليلة معنى الاعتذار ترجوها أن تتقبّله، ولكنّ هذه ظلّت تطعُنها بنظراتٍ ثاقبة، أعمتها المفاجأة عن كيفيّة التّصرّف الصّحيح حتّى خلتها ستنتفضُ صارخة «ماذا تنتظرين؟ انصرفي» تمكّنت بجهد جاهد من السّيطرة على نفسها أخيرًا، ولكنّ صوتها ظلّ مهزوزًا وهي تتوعّدني مشيرة إلى حقيبتها الصّغيرة.

- جئتُ حسب اتّفاقنا.

وأردفت وهي تقيسُ عامرة من الرّأس إلى القدم.

- أم تراكَ نسيت؟!

ثمّ واجهت عامرة مصالبةً ذراعيها أمام صدرها قائلة بصوتٍ خافت نوعًا بيد أنّه في منتهى الشّراسة والاحتقار.

- هو الّذي ألحَّ عليّ أن آتي كي نقضي إجازة مفتوحة على شواطئ العالم.

كذبةٌ وجدت ما يبرّرُها أمام جمال عامرة النّاطق بألف لسان. خلتُ من دوران عينيها في أجفانها الضّيّقة أنّها على وشك أن تصفَعها وتشدّ شعرها الفاحم تحصدُه عن الكتفين والظّهر.

قالت ضاغطةً على الحروف:

ـ جئتُ لتوّي مِن عمّان.

لهجةٌ حاسمة أتبَعتها بنظرةٍ جانبيّة إليّ، القصد منها أن أفهم قبل غيري كم قطَعت من أميال وكم تحمّلت من مشاق كي تلتقي بي، وأنا إن لم أكن قد أحسست بذنبي بعد فليس أقل من أن تخجل عامرة مِن نفسها لتطفّلها على حبيبين يقطعان أميالا للّقاء.

رغم جفوتها الظّاهرة سارعت عامرة إلى التّرحيب بها، مدّت يدها إليها، فتردّدت جليلة طويلًا قبل أن تلمس يدَها مسًّا خفيفًا. ما كانت لتفعل لولا وجودُنا في الصّالة ولولا إحساسها بالتّفوق، ربّما لأنّها طبيبة وربّما لتسامحِ عامرة الّتي فسّرته ضعفًا وخضوعًا، في حين لم أجد له تفسيرًا هذه اللّحظة وهي الّتي أنكرَت تحديقي إلى المضيفة ولكزتني بغيرة «إنّهن يلاطفن الجميع».

وعلى غير عادتها في التّوقّي والحذر أمام النّاس دسّت جليلة ذراعها تحت إبطي؛ والتصقت بي تتمسّحُ بدلال فجّ يناسب إحساسَها المطلق بأنّي جزءٌ من أملاكها؛ يناسبُ تركَها ثوبها الطّويل الفضفاض والمنديل لترتدي بلوزا؛

وبنطالا رغم ضيقه لم يلتصق كما اشتهت بفخذيها النّاحلتين فظلّ كأنّه معلّقٌ على مشجب.

قالت عامرة بصوت يجرحه الأسف والشّعور بالذّنب وكلّ همّها أن تولّي هاربة مِن موقف طارىء؛ لم تحسب حسابه فألفَت نفسَها على المشرحة أمام جزّار لا يعرف الرّحمة.

- لقد تحدّث الأستاذ متروك عنك كثيرًا فكنتِ كما وصفك رائعة بل في منتهى الرّوعة.

لم أستطع التّمييز إن كانت هذه الكذبة مدحًا أم ذمًّا غير أنّي أدركتُ خطأها إذ ظنّت بأنَّ جليلة زوجتي، وأنا الّذي لم آتِ على ذكرها من قبل. سارعتُ إلى القول بلهجة أقرب إلى النّفي والاحتجاج.

- ليست زوجتي.

أطلَّ الحنينُ برأسه من جديد فرأيت أنَّ زوجتي على علّاتها تفضُلُ جليلة بمراحل؛ فإن اعتبرتني كلاهما جزءًا من أملاكها فإنَّ جليلة زادت على هذا بأن جعلت منّي تيسًا يدخل زريبتها رافعَ الرّأس ويتركها زحفًا محنيَّ الظّهر.

تململَت كبريائي فجأة، أبعدتُ جليلة بغلظة. وضعتُ يدي على ذراع عامرة الّتي انقلبَ موقفُها إلى الحياد التّام كأنّما

بدورها تتركُ لي الخيارَ بعدما أدركت أنَّ هذه المرأة الفظّة ليست زوجتي. قلتُ بلهجةٍ لا تقبلُ المساومة.

- كنّا على موعد للنّزهة، وها نحن خارجان.

عادت إلى وجه عامرة إشراقتُه الأولى، أهملتُ جليلة تمامًا فلم ألتفت إليها لأرى وقعَ هذه الكلمات عليها. لم أناقش نفسي في ماهيّة الأصول... أن أترك عامرة تذهب وحدها على هذه الصّورة فأمرٌ فوق طاقتي واحتمالي.

- ألا توصلني حُجرتي على الأقل؟!

كان صوتُها ينذر ببكاء لا ينتهي، وبقدر ما سمحت سمرتُها الدّاكنة كان وجهُها مربدًا وعيناها توارتا في أجفانها الضّيقة كقطٍّ مذعور خطفَ العشاءَ مِن طفلٍ يتيم.

بسطت يدَها بالمفتاح تهيبُ بي ألّا أحرجها أكثر. قبل أن أمعن في تحقيرها، سارعت عامرة إلى التقاط الحقيبة قائلة.

- تفضّلي.

قالتها بسماحة المضيفة الّتى اتّخذت السّماحة عادة رغم فظاظة الضّيف. سبقتنا إلى المصعد متجاوزةً لأوّل مرّة

شروط اليافطة، كما تجاوزها مدير الفندق أمام إصرارها على أن تحملَ الحقيبة بنفسها.

لم تستوعب جليلة هذه الدّماثة ولم تعطها حقّها من المحاولة إن عزَّ عليها المقابلة بالمثل. ظنّت أنَّ مِن حقّها بل ويشرّفُ عامرة أن تقومَ على خدمتها؛ تمامًا مثلما اعتبرت سكرتيرتُها ازدهار نشري أشعارها الرّكيكة حظوة لي وللصّحيفة على حدٍّ سواء. بدلًا من أن تذهب إلى حُجرتها توًّا أعطَت عامرة رقم حُجرتي مصدرةً إليها الأمر بحمل حقيبتها إلى هناك. رفعَت كبريائي رأسُها ثانية فنبّهتها إلى أن هذا مخالف لتعاليم الفندق. سدّدَت إلى عامرة نظرةً رهيبة وقد اعتبرت سماحتَها ودماثتَها ضعفًا ورهبة. قالت باحتقار.

- وفتاتك هذه! كم مرة يا ترى دخلت حُجرتك؟ أم أنّها فوق تلك التّعاليم؟!

كيف تفهم أنَّ التقاء رجل وفتاة لا يعني فقط التقاء شفتي كلّ منهما والتحام جسدين؟ لن تفهم هذا على الإطلاق ولغة الجسد والصّبوات عندها هي الغالبة. أن تلتقي روحان في منتصف الطّريق إلى الفردوس الموعود؛ أن يتكلّم الحبّ بغير كلام فهذه لغة يستعصي عليها فهمها؛

وإلّا لمَا جاءت ولم يبق لي سوى يوم واحد... لو أحبّتني حقًّا لفضّلت انتظارًا ينتهي بلقاء مدهش، ولكنّها جاءت مسوقةً بغاية واحدة. جاءت إلى الفحل ولن تلبثَ حُجرتي أن تتحوّل إلى زريبة؛ إلى ساحة اقتتال شرس يسيلُ فيها دمي بعد أيّام نقاهة اعتبرتها هي حرمانًا ودَينًا تخلّفَت عن سداده. لم أطِق مجرّد التّفكير بأن تجمعني وإيّاها حُجرة واحدة، تطبق عليَّ جدرانها، تكبّلُ روحي الّتي أفلتَت من أسرها البغيض. إنّها مثلُ تلك الحقيبة الّتي جاءت في غير أوانها. كلاهما لا تعرفُني ولا أعرفها غير أنّ إحداهما أعمت بصري وبصيرتي؛ والأخرى تذكّرني بأبي وهو يصنعُ الخيارات بنفسه ويرحلُ من غير الزّنزلخت.

التفتُّ إلى عامرة، وجهها النّقي يذكّرني بسرحان، وجهُها وجهُهُ يفتحُ لي صفحاتٍ مجهولة لم أقرأها من قبل. ابتسامتُها ابتسامتُه الّتي لم تطفئها الرّصاصة الغادرة، تهيبُ بي أن أنطلق، تلملمُ الحنين في حزمة واحدة، تلقيه في قارب نجاة. الحنين إلى ابني وزوجتي، الحنين إلى أبي، الحنين إلى ذاك الحَجر الّذي أدمى إصبعي تحت شجرة الزّنزلخت. الحنين الأكبر إلى أن أكونَ على مرمى حجرٍ من فلسطين فأرى كيف عاد أبي شابًّا؛ لأرى كيف

صارت الغرسة الفتيّة؛ تركها سرحان فيَّ حاملا ابتسامة لم يطفئها الموت، غرسةً أسماها قبل أن يقتل «ثائر».